البلاغة العربية

(علم البيان)

محمد السيد



دار البداية ناشرون وموزعون

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

البلاغة العربية
علم البيان

محمد السيد

الطبعة الأولى
٢٠١٥م /١٤٣٦ هـ



دار البداية ناشرون وموزعون

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٤/٦/٣٠٣٧)

٤١٤.٢

السيد، محمد محمود

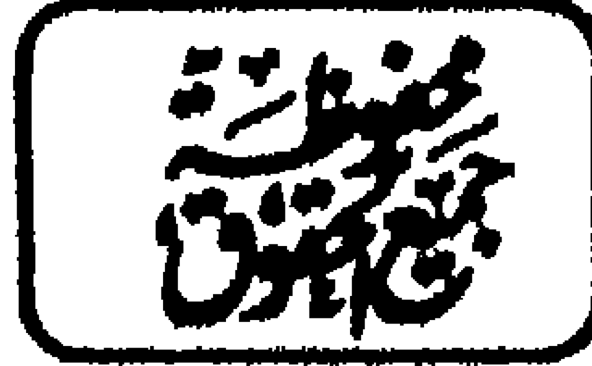
البلاغة العربية علم البيان/ محمد محمود السيد، عمان، دار البداية ناشرون وموزعون، ٢٠١٤

( ) ص.

ر.إ.: ٢٠١٤/٦/٣٠٣٧

الواصفات: /البلاغة// اللغة العربية// البيان/

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.



الطبعة الأولى

٢٠١٥م /١٤٣٦هـ



دار البداية ناشرون وموزعون

عمان - وسط البلد - تلفاكس: 4840679 6 962+

ص.ب 184248 عمان 11118 الأردن

info.daralbedayah@yahoo.com

خبراء الكتاب الأكاديمي

ISBN: ٩٧٨-٩٩٥٧-٨٢-٣٢٥-٢ (ردمك)

البلاغة العربيّة

«عِلْمُ البَيَان»

.....

۞ ـ تنبيه

كِتَابٌ قَدْ حَوَى دُرَراً

بِعَيْنِ الحُسْنِ [مَنْظُورَهْ]

لِهَذَا قُلْتُ تَنْبِيهَاً :

[سِهَامُ الغَصْبِ مَحْظُورَهْ] (١)



(١) ـ ما بين المعقفات من كلمات ؛ إنما هى من كيسى .

.....

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ؛

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى أَبَوَيْهِ

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيل ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمَاً كَثِيراً



.....

❁ - إِهْـدَاء

.....

لَوْلا مَـوَاعِيدُ آمَالٍ أعِيشُ بِهَا
لَمِتُّ يَـا أَهْلَ هَـذَا الحَيِّ مِن زَمَنِ
وَإِنَّمَـا طَرْفُ آمَـالِي بِـهِ مَـرَحٌ
يَـجْرِي بِوَعْدِ الأَمَانِي مُطْلَقَ الرَّسَنِ

هَكَـذَا قَالَ الشَّـاعِرُ القَدِيم ؛ وَلَقَد صَدَقْتُ إِذ تَمَثَّلْتُ بِقَوْلِهِ ؛ فَمَا حَالِى مِـن هَذِهِ الأَبْيَاتِ بِبَعِيـد !!... ؛ وَإِنِّى لأُومِنُ بِتِلْكَ المَقُولَةِ الَّتِى وَرَدَت فِى الأَخْبَـارِ الَّتِى تَجَاوَزَهَـا الـزَّمَانُ بِآمَادٍ وَآمَاد : مِن أَنَّ أَرْبَـعِينَ رَجُلاً مِنَ الحُكَمَاءِ جَلَسُوا يَتَفَاوَضُونَ فِي أَمْثِلَةِ الدُّنْيَا ؛ فَاستَقَرَّ رَأْيُهُم فِي الأَخِيرِ : أَنَّ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالدُّنْيَـا : أَضْغَاثُ أَحْـلام !!

نَعَم ؛ نَعَم لَسْتُ أَشُكُّ فِى ذَلِك ... ؛ وَلَكِنَّ حَالِى كَمَـا قَالَ الشَّـاعِر :

وَمَا هَـذِهِ الأَيَّـامُ إِلاَّ صَحَـائِفٌ
نُـؤَرِّخُ فِـيهَا ثُمَّ تُمْحَى وَتُـمْحَـقُ
وَلَم أَرَ عَـيْشاً مِثْـلَ دَائِـرَةِ المُنَى
تُـوَسِّعُهَا الآمَالُ وَالعَيْشُ ضَيِّـقُ !!

وَكَأَنِّى حِينَ أَجْهَرُ بِفَلْسَفَتِى هَاذِهِ ؛ أَسْمَعُكَ تَتَمَثَّلُ وَأَنْتَ تَتَبَسَّمُ فِى أَسَىً بِقَوْلِ القَائِلِ:

مَا أَنْتَ أَوَّلُ سَارٍ غَرَّهُ قَمَرٌ
وَرَائِدٌ أَعْجَبَتْهُ خُضْرَةُ الدِّمَنِ !!

وَلَكِنِّى أَطْمَعُ فِى مِنَّةِ الرَّحْمَنِ وَأَرْجُوهَا !!... ؛ وَلَكِنِّى أَقُول:

كَم كُرْبَةٍ طَرَقَت جُنْحَ الظَّلامِ وَمَا
تَنَفَّسَ الصُّبْحُ حَتَّى فَرَّجَ اللهُ

.....

(إِنَّ لِلْمَعَالِى طَرِيقٌ لا يَسْلُكُهُ إِلاَّ
مَن وَضَعُوا الحَيَاةَ تَحْتَ أَقْدَامِهِم)

.....

إِلَي أَخِى وَصَدِيقِى ... الشَّاعِر
« سَامِح عَبْدِ الرَّؤوفِ الجَزَّار »
المَعْرُوف بِـ: « سَامِح العَلِى »
أُهْدِى هَذَا الكِتَاب
المُخْلِص
« مُحَمَّد مَحْمُود السَّيِّد أَحْمَد »



.....

❁- تَصْدِير



وَرُبَّمَا يَضْحَكُ المَكْرُوبُ مِن عَجَبٍ
السِّنُّ يَضْحَكُ وَالأَحْشَاءُ تَضْطَرِمُ !!

.....

كَم أَضْحَكَ الدَّهْرُ مِن بَاكٍ يَنُوحُ وَكَم
أَبْكَى ضَحُوكَاً وَكَم رَقَّى وَكَم خَذَلا !!



.....

مَدْخَل



هَكَذَا الدُّنْيَا:

طُبِعَت عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا
صَفْوَاً مِنَ الأَقْذَارِ وَالأَكْدَارِ !!

.....

وَمِن عَادَةِ الأَيَّامِ أَنَّ صُرُوفَهَا
إِذَا سَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ سَاءَ جَانِبُ !!





❁ـ كَلِمَةٌ قُبَيْلَ الشُّرُوعِ :

بسم الله الرحمن الرحيم



الحَمْدُ لله ؛ الحَمْدُ للهِ الَّذِى خَلَقَنِى وَقَدَّرَ حَالِى وَأَمْرِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى ؛ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فِى خَوْفِى وَأَمْنِى ؛ وَفِى فَزَعِى أو ثَبَاتِى ؛ أنَا الطِّينِىُّ الفَانِى وَهُوَ الحَىُّ الَّذِى لا يَمُوت ؛ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ؛ وَأنَا المُعْتَرِفُ بِالعَجْزِ وَالنَّقْصِ فِى حَالَى النُّطْقِ وَالسُّكُوت ؛ هُوَ البَاقِى المَوْجُودُ مِنَ القِدَم ؛ وَأنَا المُحْدَثُ الصَّائِرُ إِلَى العَدَم ؛ مَازَالَ قَلْبِى فِى كَافَّةِ أَحْوَالِهِ لا يَلْجَأُ إلاَّ إِلَى هَذَا الإِلَه ؛ فَسُبْحَانَ رَبِّى لا إِلَهَ سِوَاه .

ثُمَّ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى مَن لا نَبِىَّ بَعْدَه ؛ مَا رَأَى المَرْءُ أَمَامَ نَاظِرَيْهِ حُزْنَهُ أو سُعْدَه .

ثُمَّ عَلَى الصَّحْبِ وَالرِّفَاقِ وَعَلَى كُلِّ مُتَّبِعٍ وَوَلِىّ ؛ ثُمَّ عَلَى الآلِ بِلا مَثْنَوِيَّةٍ ؛ وَعَلَى الأُسْرَةِ المُطَهَّرَةِ الَّتِى تُنْسَبُ حَقّاً وَصِدْقاً إِلَى رُوحِ وَنَفْسِ الإِمَامِ عَلِىّ ؛ وَمَن يُدَانِيهِم وَأَيْنَ أَيْن ؟!!! ؛ وَكَفَى بِكَ دَلِيلاً مَا تَرَاهُ مِن فَضْلٍ وَجَاهٍ سَيِّدِنَا وَمَوْلانَا الحُسَيْن .

.....

أَمَّا بَعْدُ :

لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيم ؛ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيم ؛ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْع ؛ وَرَبُّ الأَرَضِينَ السَّبْع ؛ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم .
لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيم ؛ عَزَّ اللَّهُ ؛ وَتَبَارَكَ اللَّهُ ؛ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين .

.....

مَا أَدْرِي إِلَى أَيْنَ يُذْهَبُ بِي ؟!! ؛ إِنَّ الظَّلامَ يَحْجُبُ كَافَّةَ أَرْجَاءِ المَكَان !! ؛ مَا أَدْرِي سِوَى أَنَّ القَبْرَ رُبَّمَا يَكُونُ أَرْأَفَ بِصَاحِبِهِ مِن كُفْرِ هَذِهِ الدُّنْيَا !! ؛ لا حِكْمَةُ الحُكَمَاءِ عَادَت تَنْفَعُنِي !! ؛ وَلا مَنْطِقُ العُقَلاءِ يُجْدِي !! ؛ وَلا رُقَى الشُّعَرَاءِ أَبْرَأَتْنِي مِن عِلَّتِي !! ؛ وَلا طِبُّ العُزْلَةِ يَرْحَمُنِي وَلا يَشْفِينِي !!... ؛ وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُول !!.

.....

كَتَبَ سَعِيدُ بْنُ حُمَيْد إِلَى عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ طَاهِر كِتَاباً مِنَ الاسْتِتَار ؛ قَالَ فِيهِ :
وَأَرْجُو أَن يَكْشِفَ اللهُ بِالأَمِيرِ ـ أَعَزَّهُ اللهُ ـ هَذِهِ الْغُمَّة ؛ الطَّوِيلِ مَدَاهَا !! ؛ البَعِيدِ مُنْتَهَاهَا !! ؛ فَإِنَّ طُولَهَا ؛ قَد أَطْمَعَ فِي انْقِضَائِهَا ؛ وَتَرَاخِي أَيَّامِهَا ؛ قَد سَهَّلَ سَبِيلَ الأَمَلِ لِفَنَائِهَا .
وَقَد قِيل : لا تَيْأَسُ أَرْضٌ مِن عُمْرَان ؛ وَإِن جَفَاهَا الزَّمَان .
وَالعَامَّةُ تَقُول : نَهْرٌ جَرَى فِيهِ المَاء ؛ لابُدَّ أَن يَعُودَ إِلَيْهِ .

.....

ثم:

خَلِيلَيَّ لا وَاللهِ مَا مِن مُلِمَّةٍ
تَدُومُ عَلَى حَيٍّ وَإن هِيَ جَلَّتِ
فَإن نَزَلَت يَوْمَاً فَلا تَخْضَعَن لَهَا
وَلا تُكْثِرِ الشَّكْوى إذَا النَّعْلُ زَلَّتِ
فَكَم مِن كَرِيمٍ قَد بُلِي بِنَوَائِبٍ
فَصَابَرَهَا حَتَّى مَضَت وَاضْمَحَلَّتِ
وكَانَت عَلَى الأيَّامِ نَفْسِي عَزِيزَةٌ
فَلَمَّا رَأت صَبْرِي عَلَى الذُّلِّ ذَلَّتِ

.....

وبعد:

« يَا مَن تُحَلُّ بِهِ عُقَدُ المَكَارِهِ ؛ وَيُفَلُّ حَدُّ الشَّدَائِدِ ؛ وَيَا مَن يُلْتَمَسُ بِهِ المَخْرَج ؛ وَيُطْلَبُ مِنْهُ رُوحُ الفَرَج ؛ أنْتَ المَدْعُو فِي المُهِمَّات ؛ والمَفْزَعُ فِي المُلِمَّات ؛ لا يَنْدَفِعُ مِنْهَا إلاَّ مَا دَفَعْت ؛ وَلا يَنْكَشِفُ مِنْهَا إلاَّ مَا كَشَفْت ؛ قَد نَزَلَ بِي مَا قَد عَلِمْت ؛ وَقَد كَادَنِي ثِقْلُهُ !! ؛ وَألَمَّ بِي مَا بَهَظَنِي حِمْلُهُ !! ؛ وَبِقُدْرَتِكَ أوْرَدتَهُ عَلَيَّ، وَبِسُلْطَانِكَ وَجَّهْتَهُ إلَيَّ ؛ وَلا مَصْدَرَ لِمَا أوْرَدت ؛ وَلا كَاشِفَ لِمَا وَجَّهْت ؛ وَلا فَاتِحَ لِمَا أغْلَقْت ؛ وَلا مُيَسِّرَ لِمَا عَسَّرْت ؛ وَلا مُعَسِّرَ لِمَا يَسَّرْت ؛ فَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى مُحَمَّدٍ ؛ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ؛ وَافْتَح لِي بَابَ الفَرَجِ بِطَوْلِك ؛

وَاحْبِس عَنِّى سُلْطَانَ الهَمِّ بِحَوْلِك ؛ وَأَنِلْنِى حُسْنَ النَّظَرِ فِيمَا شَكَوْت ؛ وَأَذِقْنِى حَلاوَةَ الصُّنْعِ فِيمَا سَأَلْت ؛ وَهَب لِي مِن لَدُنْكَ فَرَجاً هَنِيًّاً عَاجِلاً ؛ وَصَلاحَاً فِى جَمِيعِ أَمْرِى سَنِيَّاً شَامِلاً ؛ وَاجْعَل لِى مِن عِنْدَكَ فَرَجاً قَرِيباً ؛ وَمَخْرَجَاً رَحْبَاً ؛ وَلا تَشْغَلْنِى بِالاهْتِمَامِ عَن تَعَاهُدِ فُرُوضِك ؛ وَاسْتِعْمَالِ سُنَّتِك ؛ فَقَد ضِقْتُ ذَرْعَاً بِمَا عَرَانِى !! ؛ وَتَحَيَّرْتُ فِيمَا نَزَلَ بِى وَدَهَانِى !! ؛ وَضَعُفْتُ عَن حَمْلِ مَا قَد أَثْقَلَنِى هَمَّاً ؛ وَتَبَدَّلْتُ بِمَا أَنَا فِيهِ قَلَقَاً وَغَمَّاً !! ؛ وَأَنْتَ القَادِرُ عَلَى كَشْفِ مَا قَد وَقَعْتُ فِيهِ ؛ وَدَفْعِ مَا مُنِيتُ بِهِ ؛ فَافْعَل بِى ذَلِكَ يَا سَيِّدِى وَمَوْلاىَ وَإِن لَم أَسْتَحِقَّهُ ؛ وَأَجِبْنِى إِلَيْهِ وَإِن لَم أَسْتَوْجِبْه ؛ يَا ذَا الْعَرْشِ الْعَظِيم ؛ يَا ذَا الْعَرْشِ الْعَظِيم ؛ يَا ذَا الْعَرْش الْعَظِيم.» .(١).

.....

«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِى!! ؛ وَقِلَّةَ حِيلَتِى!! ؛ وَهَوَانِى عَلَى النَّاس!! . يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين !! ؛ أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِين ؛ وَأَنْتَ رَبِّى!! ؛ إِلَى مَن تَكِلُنِى؟! إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِى؟!! ؛ أَو إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِى؟!! ؛ إِن لَم يَكُن بِكَ عَلَىَّ غَضَبٌ فَلا أُبَالِى!! ؛ وَلَكِنَّ عَافِيَتُكَ أَوْسَعُ لِى!! ؛ أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِى أَشْرَقَت لَهُ الظُّلُمَات ؛ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَة : مِن أَن تُنْزِلَ بِى غَضَبَك !! ؛ أَو تَحِلَّ عَلَىَّ سَخَطَك !! ؛ لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ؛ وَلا حَوْلَ وَلا

---

(١)ـ يُنْسَبُ هَذَا الدُّعَاءُ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِى طَالِب ـ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاه ـ .

قُوَّةَ إِلاَّ بِك. ﴾.(١).



القَادِمُ مِنَ الزَّمَنِ المَجْهُول

﴿ مُحَمَّد مَحْمُود السَّيِّد أَحْمَد ﴾

ـ المَغْرِبِىُّ أُصُولاً ..... المِصْرِىُّ مِيلاداً وَمَوْطِناً ـ

الشَّهِيرُ بـ: ﴿ رَاهِبُ الأُدَبَاء ﴾

وَالمَعْرُوفُ فِى الأَوْسَاطِ الأُرْدُنِيَّةِ بِاسْم

﴿ عُمَر إِيزِيل ﴾

[٢٣ / ٤ / ٢٠١٣ م]

بِالحَارَةِ العَتِيقَة ... بِقَرْيَةِ الكُوم

بِمَدِينَةِ الرِّيَاض ... بِشَمَالِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّة



(١). أخرجَ الطبرانىُّ فى كتاب ((الدُّعاء)) ؛ (ح : ١٠٣٦) ؛ وفى ((المُعجم الكبير)) ؛ (ح : ١٨١) ؛ (ح : ١٤٧٦٤) : عن عبدِ اللهِ بنِ جعفر ؛ قال : خرجَ النبىُّ ـ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ـ إلى الطائفِ ماشياً على قدميه ؛ فدعاهم إلى الإسلام ؛ فلم يُجيبُوه ؛ فانصرفَ ؛ فأتى ظِلَّ شجرةٍ ؛ فصلَّى ركعتين ؛ ثُمَّ قال : ... ؛ فذكرَ هذا النَّصَّ .

قَالَ أَبُو نِزَار : وهو حديثٌ ضعيفٌ ؛ عِلَّتهُ مُحمَّد بن إسحاق ؛ فقد عنعنهُ ؛ وهو معروفٌ بالتدليس ؛ وبقيَّةُ رجالهِ ثقات ؛ ومعناهُ مُستجادٌ مقبُولٌ ؛ فهو دُعاء ؛ ومثل هذا لا بأسَ بقبُولهِ وإن كانَ ضعيفاً ؛ واللهُ أعلم.

❁ـ تَمْهِيد :



بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْتُ فِى صَدْرِ الجُزْءِ الأَوَّلِ مِن هَـذِهِ السِّلْسِلَةِ ـ« عِلْمُ المَعَانِى » ـ مَا لَفْظُهُ :

﴿ ثُمَّ !!... ؛ لِلْمُؤَلِّفِ أن يُهْدِى كِتَابَهُ لِمَن يَشَاء ... ؛ وَلَهُ أن يَكْتُبَ كَلِمَاتِ الإِهْدَاءِ بِالأُسْلُوبِ الَّذِى يَرُوقُهُ وَيُعْجِبُهُ ... ؛ ثُمَّ ... ؛ التَّصْدِيرُ قَد يُعَبِّرُ عَن الكَاتِبِ نَفْسَهُ ... ؛ يَدُلُّكَ عَلَى كُنْهِ مَشَاعِرِهِ ؛ أو عَلَى حَقِيقَةِ حَيَاتِهِ ؛ أو عَلَى مَاهِيَّةِ العَمَلِ وَطَبِيعَةِ الكِتَاب .

ثُمَّ ... ؛ المَدْخَلُ إِمَّا أن تُنَاطَ فِكْرَتُهُ بِمَادَّةِ الكِتَاب ؛ أو أن تُهَيِّءَ القَارِىءَ لِمَا يُسْتَقْبَلُ مِن كَلِمَاتِ وَأَفْكَارِ المُقَدِّمَة .

ثُمَّ ... ؛ المُقَدِّمَةُ حَقٌّ مُسَلَّمٌ بِهِ لِلكَاتِبِ ؛ لَهُ أن يُعَبِّرَ فِيهَا عَن ذَاتِهِ وَنَفْسِهِ ؛ عَن حُبِّهِ وَعِشْقِهِ ؛ عَن حُزْنِهِ وَيَأْسِهِ ؛ عَن أَمَلِهِ وَطُمُوحَاتِهِ ؛ عَن فِكْرِهِ وَثَقَافَتِهِ ؛ عَن حَادِثَةٍ خَاصَّةٍ أو عَامَّةٍ ... ؛ نَعَم ؛ لَهُ أن يُعَبِّرَ فِيهَا عَن أَىِّ شَىْءٍ يُرِيد .

ثُمَّ ... ؛ التَّمْهِيد ؛ إِنَّمَا جُعِلَ لِلتَّعْرِيفِ بِمَادَّةِ الكِتَابِ وَمُحْتَوَاه .

ثُمَّ ... ؛ التَّوْطِئَة ؛ وَهِىَ تَتَحَدَّثُ عَن مَاهِيَّةِ الفَصَاحَةِ وَالبَلاغَة ؛ وَهِىَ كَلِمَةٌ نَافِعَةٌ كَتَبَهَا الدُّكْتُور عَبْدُ الرَّحْمَن بْنُ حَسَن حَبَنَّكَة المَيْدَانِىُّ الدِّمَشْقِىُّ « ت

سَنَة ١٤٢٥ هـ)) ؛ قَيَّدَهَا بِكِتَابِهِ ((البَلاغَةُ العَرَبِيَّة)) .

ثُمَّ صَنَعْتُ فَصلاً بِعُنْوَان : ((أَقْوَالٌ فِي البَلاغَة)) .

ثُمَّ مَادَّةُ الكِتَاب ؛ وَقَد تَنَاوَلْتُ فِي هَذَا الجُزْء : ((عِلْم المَعَانِي)) ؛ وَعَرَضْتُهُ عَرْضًا يَجْمَعُ بَيْنَ القُوَّةِ وَسُهُولَةِ التَّنَاول ؛ فَلا هُوَ بِالضَّعِيفِ المَرِيض ؛ وَلا هُوَ بِالضَّخْمِ العَرِيض ؛ بَل هُوَ كِتَابٌ عَصْرِيٌّ مَقْبُول ؛ وَظَنِّي أَن سَتَقْبَلُهُ القَرَائِحُ وَتَستَجِيدُهُ العُقُول ؛ وَرَبُّنَا المُستَعَان ؛ وَإِلَيْهِ التَّفْوِيضُ وَعَلَيْهِ التُّكْلان .

ثُمَّ لَمَّا انْتَهَيْنَا مِن عَرْضِ المَادَّة ... ؛ جَاءَ دَوْرُ الدِّرَاسَةِ التَّطْبِيقِيَّة ؛ وَمَازِلْتُ أَقُول : إِنَّ البَلاغَةَ لَيْسَت هِيَ القَوَاعِدُ وَالأُصُول !!... ؛ بَل هِيَ الإِمْعَانُ فِي تَأَمُّلِ إِبْدَاعِ الأُدَبَاءِ الفُحُول... ؛ لَوْلا قَضَاءُ السَّنَوَاتِ فِي قِرَاءَةِ كُتُبِ الجَاحِظِ وَابْنِ المُقَفَّعِ وَأَبِي حَيَّانِ التَّوْحِيدِيِّ وَأَمْثَالِهِم مِن أَهْلِ البَلاغَةِ وَالبَيَانِ مِن المُتَقَدِّمِين... ؛ ثُمَّ الإِقْبَالُ عَلَى مَا أَبْدَعَتْهُ يَرَاعَةُ مُصْطَفَى لَطْفِي المَنْفَلُوطِي صَاحِبِ ((العَبَرَات)) و((النَّظَرَات)) ؛ وَمُصْطَفَى صَادِق الرَّافِعِيُّ صَاحِبِ ((رَسَائِلِ الأَحْزَان)) و((أَوْرَاق الوَرْد)) و((السَّحَاب الأَحْمَر)) و((وَحْي القَلَم)) ؛ وَمَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر صَاحِب ((جَمْهَرَة المَقَالات)) ؛ وَأَضْرَابِهِم مِن المُحْدَثِين... ؛ لَوْلا هَذَا الأَمْر!!... ؛ لَمَا قَدِرْنَا عَلَى كِتَابَةِ الرَّسَائِلِ وَالمَقَالاتِ بِهَذَا الأُسْلُوبِ الَّذِي عُرِفْنَا بِهِ ؛ وَلَعَلَّ أُسْلُوبَ كِتَابِي ((كَلِمَاتٌ فِي مَوْسِمِ الخَرِيف)) هُوَ أَعْظَمُ دَلِيلٍ عَلَى صِدْقِ مَقُولَتِي هَذِهِ ؛ وَإِلاَّ فَلَو عَوَّلْتُ عَلَى المَوْهِبَةِ وَحْدَهَا لَمَا قَدِرْتُ عَلَى الذَّهَابِ وَالمَجِيءِ هَكَذَا بِلا خَوْفٍ أَو هَيْبَةٍ... ؛ إِنِّي آسَفُ أَشَدَّ الأَسَفِ مِمَّا أَرَاهُ وَمِمَّا أَسْمَعُهُ !!... ؛ تَجْمَعُنِي جِلْسَةٌ

مَا مَعَ فَتىً فِي الثَّالِثَةِ وَالعِشْرِين ؛ أو فِي الخَامِسَةِ وَالعِشْرِين ؛ أو فِي السَّابِعَةِ وَالعِشْرِين ؛ أو فِي الثَّلاثِين مِثْلِي ؛ وَأكُون قَد سَمِعْتُ مِن بَعْضِهِم أنَّهُ يَتَعَاطَى صِنَاعَةَ الأدَب ؛ فَأسْألُهُ : مَا هِيَ الكُتُبُ الَّتِي تَخَرَّجْتَ عَلَيْهَا؟... ؛ فَإذَا بِهِ يُجِيب ـ مَثَلاً ـ : قَرَأتُ أعْمَال أنِيس مَنْصُور وَمَا تَرَكْتُ كِتَاباً لَهُ ؛ وَقَرَأتُ جُلَّ أعْمَال الكَاتِب رَجَاء النَّقَّاش !!... ؛ يَقُول هَذَا وَهُوَ فَرِحٌ مُغْتَبِط !!... ؛ يَذْكُرُ أسْمَاءَ مُؤَلَّفَاتِهِم وَهُوَ فَخُورٌ فَخْرَ مَن أسْقَطَ القُسْطَنْطِينِيَّة وَأوْقَعَ الرُّعْبَ فِي نُفُوسِ الجَحَافِلِ النَّصْرَانِيَّة !!... ؛ يَا لَلنَّكْبَة !!... ؛ أنِيس مَنْصُور!!... ؛ رَجَاء النَّقَّاش!!... ؛ أنَا قَرَأتُ أعْظَمَ مَا كَتَبَ أنِيس مَنْصُور : ((فِي صَالُون العَقَّاد كَانَت لَنَا أيَّام)) ؛ ((عَاشُوا فِي حَيَاتِي)) ؛ ((يَسْقُط الحَائِط الرَّابِع)) ؛ وَقَرَأتُ لَهُ غَيْرَ مَا ذَكَرْتُ ؛ كَـ : ((طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا)) ؛ ((عَلَى رِقَابِ العِبَاد)) ؛ وَكِتَابَهُ عَن الوجُودِيَّة ؛ وَغَيْرَ ذَلِك... ؛ فَمَا هِيَ لُغَتُهُ؟!!... ؛ وَمَا هُوَ أُسْلُوبُهُ؟!!... ؛ نَعَم هُوَ يُسَلِّي فِي أوْقَاتِ الضِّيق ؛ وَعِنْدَهُ أشْيَاءُ تَدْعُو المُؤَرِّخَ الأدَبِيَّ إلَى العِنَايَةِ بِهَا ؛ وَإن كَانَ يُكَرِّرُ نَفْسَهُ فِي أكْثَر مِن كِتَابٍ وَفِي غَيْرِ مَا عَمَلٍ ؛ كَحَدِيثِهِ عَن العَقَّاد وَطَه حُسَيْن وَتَوْفِيق الحَكِيم ؛ فَهُوَ أُسْلُوبٌ ضَعِيفٌ يُشْبِهُ أن يَكُونَ عَامِّيّاً تُجَارِيّاً !!... ؛ وَأمَّا رَجَاء النَّقَّاش ؛ فَكُتُبُهُ وَصَلَتْنِي هُنَا فِي الرِّيَاض قَبْلَ أن أعْمَل فِي مُؤَسَّسَة أطْلَس ـ إذ هِيَ الَّتِي نَشَرَت أكْثَرَ أعْمَالِهِ ـ ؛ وَقَرَأتُهَا ... ؛ فَعَلِمْتُ شَيْئاً وَاحِداً... ؛ أنَّ الحَيَاةَ حُظُوظ !!... ؛ عَرْضٌ غَبِيٌّ!!... ؛ وَتَنَاولٌ يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ العَقْل!!... ؛ وَأُسْلُوبٌ لا يَلِيقُ إلاَّ بِصِبْيَانِ الكُتَّاب !!... ؛ التُّرَاثُ الأدَبِيُّ... ؛ هُوَ سِرُّ النَّزْعَةِ البَيَانِيَّةِ البَلاغِيَّةِ عِنْدَ فُحُولِ الأُدَبَاءِ الَّذِينَ عَاشُوا فِي

القَرْنِ المُنصَرِم ... ؛ وَمَن ظَنَّ أَنَّهُ يَصِيرُ أَدِيبًا بَلِيغًا مِن غَيْرِ أن يُعَايِشَ أَسْفَارَ أَدَبَاتِنَا الأَوَائِلِ... ؛ فَقَد ظَنَّ مُحَالاً ؛ وَتَمَنَّى مَا لا يَكُونُ أَبَدًا !! .

مِن أَجْلِ هَذَا ؛ فَمَا كِدْتُ أَفْرَغُ مِن عَرْضِ مَادَّةِ عِلْمِ المَعَانِي ؛ حَتَّى صَنَعْتُ القِسْمَ التَّطْبِيقِيَّ ؛ وَهُوَ يَتَمَثَّلُ فِي أَجْمَلِ وَأَبْدَعِ وَأَبْلَغِ المَقَالاتِ الَّتِي كَتَبَهَا الشَّيْخُ الأَدِيبُ مُصْطَفَى لُطْفِي المَنْفَلُوطِيّ وَأَوْدَعَهَا كِتَابَهُ «النَّظَرَات» .

وَسَتَكُونُ هَذِهِ هِيَ طَرِيقَتِي فِي بَقِيَّةِ الأَجْزَاءِ الَّتِي سَأُخْرِجُهَا ـ إِن شَاءَ اللهُ تَعَالَى ـ ؛ وَالَّتِي تُنَاطُ بِقِسْم : «عِلْمُ البَلاغَةِ العَرَبِيَّة» ؛ فَسَيَتْلُو ذَلِكَ : المُنتَخَب مِن رَسَائِلِ الرَّافِعِيِّ ؛ ثُمَّ المُنتَقَى مِن مَقَالاتِ أَبِي فِهْر مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر ؛ ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ عَبَاقِرَةُ البَيَانِ العَرَبِيِّ مِن الأَئِمَّةِ المُتَقَدِّمِين .

قُلْتُ : وَسَيَتْلُو هَذَا الجُزْء ـ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى ـ :

٢ ـ عِلْمُ البَيَان.

٣ ـ عِلْمُ البَدِيع.

٤ ـ أُصُولُ النَّظَرِيَّةِ البَلاغِيَّة.

٥ ـ فَنُّ الأُسْلُوب.

٦ ـ أُمَرَاءُ البَيَان.

٧ ـ رَسَائِلُ البُلَغَاء.

٨ ـ مَصَادِرُ البَلاغَةِ العَرَبِيَّة.

٩ ـ البَلاغَةُ العَرَبِيَّة : نَشْأَتُهَا وَتَطَوُّرُهَا... ؛ مَدَارِسُهَا وَأَعْلامُهَا.

ثُمَّ... ؛ أَتَيْتُ بَعْدَ الْمُنْتَخَبِ مِن مَقَالات مُصْطَفَى لُطْفِي الْمَنْفَلُوطِيّ بِطَلِيعَةِ كِتَابِي الْمَوْسُوم بِـ : « رَسَائِلُ الدَّم » ؛ وَهِيَ رَسَائِلُ أَدَبِيَّةٌ تَتَشَابَهُ فِي نَزْعَتِهَا الأُسْلُوبِيَّةِ بِالأَدَاءِ البَيَانِيِّ الَّذِي تَجِدُهُ فِي كِتَابِي « كَلِمَاتٌ فِي مَوْسِمِ الخَرِيف» ؛ وَقَد وَضَعْتُ الرَّسَائِلَ الخَمْسَةَ الأُولَى فِي هَذَا الجُزْء ؛ وَسَتَرَى بَقِيَّةَ الرَّسَائِلِ فِي الأَجْزَاءِ الَّتِي ذَكَرْتُهَا حَسْبَ تَرْتِيبِهَا ؛ وَرُبَّمَا أَجْمَعُهَا فِي عَمَلٍ مُفْرَدٍ بَعْدَ ذَلِكَ إِن شَاءَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ؛ فَهُوَ مِنَ الأَعْمَالِ الَّتِي أَعْتَدُّ بِهَا ؛ إِذ هِيَ إِبْدَاعٌ غَيْرُ مَمْزُوجٍ بِنَقْلٍ أَو انْتِخَاب ؛ وَالأَعْمَالُ الإِبْدَاعِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَبْقَى ؛ وَهِيَ الَّتِي تَكْتُبُ الخُلُودَ لِصَاحِبِهَا ؛ وَلأَنَّنِي أَعْلَمُ يَقِيناً أَنَّ المَوْتَ سَيَهْجُمُ عَلَى سَاحَتِي عَمَّا قَرِيب !!... ؛ فَأَنَا أَرْجُو إِن رَحَلْتُ عَن دُنْيَا النَّاس !!... ؛ أَن تَبْقَى أَشْعَارِي وكَلِمَاتِي . ✽ .(١) .

.....

قُلْتُ : وَقَد رَأَيْتُ أَن آتِي بُعَيْدَ الْمُنْتَخَبِ مِن مَقَالاتِ الرَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - بِـ « رِسَائِل الدَّم » كَامِلَةً مِن أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا ؛ وَذَلِكَ لِسَبَبَيْن :

- الأَوَّلُ : أَنَّهُ رُبَّمَا وَقَفَ القَارِئُ عَلَى جُزْءٍ مِن هَذِهِ السِّلْسِلَةِ أَو عَلَى غَيْرِ مَا جُزْءٍ ؛ وَلَكِنَّهُ لَم يَقِف عَلَى كَافَّةِ أَجْزَائِهَا ؛ فَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ الوُقُوفُ عَلَى الرَّسَائِلِ كَامِلَةً .

- الثَّانِي : أَنَّنِي رَأَيْتُ أَن آتِي فِي العَمَلِ التَّالِي وَمَا سَيَتْلُوهُ - إِن شَاءَ اللهُ

(١) - [ص : ٩ - ١٤] .

سُبْحَانَهُ ـ بِأعْمَالٍ أُخْرَى مِن حَرَائِرِ تَوَالِيفِى الأَدَبِيَّةِ البَيَانِيَّةِ ؛ وَبِذَلِكَ تَتَضَاعَفُ الفَائِدَة .

.....

وَاللَّـهُ مِن وَرَاءِ القَصْد





﴿البلاغة العربية﴾

﴿علم البيان﴾

.....

بسم الله الرحمن الرحيم

.....

✿ - مدخل

- تعريف علم البيان:

هو علمٌ يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه .

- أقسام الدّلالة:

ودلالة اللفظ : إما على ما وُضع له ؛ أو على غيره .

والثاني إما داخل في الأول دخول السقف في مفهوم البيت ؛ أو الحيوان في مفهوم الإنسان ؛ أو خارج عنه خروج الحائط عن مفهوم السقف ؛ أو الضاحك عن مفهوم الإنسان .

وتسمى الأولى : دلالة وضعية ؛ وكل واحدة من الأخيرتين دلالة عقلية .

وتختص الأولى بدلالة المُطابَقَة ؛ والثانية بالتضمن ؛ والثالثة بدلالة الالتزام .

وشرط الثالثة : اللزوم الذهني ؛ أي : أن يكون حصول ما وضع اللفظ له في الذهن ملزوماً لحصول الخارج فيه ؛ لئلا يلزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر ؛ لكون نسبة الخارج إليه حينئذٍ كنسبة سائر المعاني الخارجية .

ولا يُشترط في هذا اللزوم أن يكون مما يُثبته العقل ؛ بل يكفي أن يكون مما يثبته اعتقاد المخاطب ؛ إما لعرف عام ، أو لغيره ؛ لإمكان الانتقال حينئذٍ من

المفهوم الأصلي إلى الخارجي .

وقد وقع في كلام بعض العلماء ما يشعر بالخلاف في اشتراط اللزوم الذهني في دلالة الالتزام ؛ وهو بعيدٌ جدًّا ؛ وإن صحَّ فلعل السبب فيه توهم أن المراد باللزومِ الذهني اللزومُ العقلي ؛ لإمكان الفهم بدون اللزوم الذهني بهذا المعنى حينئذٍ كما سبق .

ثم إيراد المعنى الواحد على الوجه المذكور لا يتأتى بالدلالة الوضعية ؛ لأن السامع إن كان عالماً بوضع الألفاظ ؛ لم يكن بعضها أوضح دلالة من بعض ؛ وإلا لم يكن كل واحد منها دالا ؛ وإنما يتأتى بالدلالات العقلية ؛ لجواز أن يكون للشيء لوازم بعضها أوضح لزوماً من بعض .



.....

✡ ـ أبواب علم البيان

.....

ثم اللفظ المراد به لازم ما وُضع له : إن قامت قرينة على عدم إرادة ما وضع له فهو مجاز ؛ وإلا فهو كناية .

ثم المجاز منه الاستعارة ؛ وهي ما تُبتني على التشبيه ؛ فيتعين التعرض له .

فالمحصر المقصود في :

ـ التشبيه .

ـ والمجاز .

ـ والكناية .

وقُدِّم التشبيه على المجاز ؛ لما ذكرنا من ابتناء الاستعارة ـ التي هي مجاز ـ على التشبيه ؛ وقُدِّم المجاز على الكناية ؛ لنزول معناه من معناها منزلة الجزء من الكل .



الباب الأول

«التشبيه»



.....

التشبيه

.....

ـ تعريف التشبيه :

ـ التشبيه : هو الدّلالة على مشاركة أمر لآخر في معنىً .

والمراد بالتشبيه ههنا ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقية ؛ ولا الاستعارة بالكناية ؛ ولا التجريد ؛ فدخل فيه ما يسمى تشبيهاً بلا خلاف ؛ وهو ما ذُكرت فيه أداة التشبيه ؛ كقولنا : « زيد كالأسد » ؛ أو « كالأسد » بحذف « زيد » لقيام قرينة ؛ وما يسمى تشبيهاً ـ على المختار ـ وهو ما حذفت فيه أداة التشبيه وكان اسم المشبه به خبراً للمشبه ، أو في حكم الخبر ؛ كقولنا : « زيد أسد » ، وكقوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ أي : هم ، ونحوه قول من يخاطب الحجّاج :

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامةٌ
فَتْخَاء تنفر من صفير الصافرِ

وكقولنا : « رأيت زيداً بحراً »

.....

ـ تأثير التشبيه :

وإذ قد عرفتَ معنى التشبيه في الاصطلاح ؛ فاعلم أنه مما اتفق العقلاء على

شرف قدره وفخامة أمره في فن البلاغة، وأن تعقيب المعاني به ـ لا سيما قسم التمثيل منه ـ يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها، مدحاً كانت أو ذمّاً أو افتخاراً أو غير ذلك، وإن أردت تحقيق هذا، فانظر إلى قول البُحتريّ:

دانٍ على أيدي العُفاة وشاسعٍ
عن كل نِدٍّ في النَّدى وضَرِيبِ
كالبدر أفرط في العلو وضوءهُ
للعُصبة السَّارين جِدُّ قريبِ

أو قول ابن لَنْكَك:

إذا أخو الحُسْنِ أضحى فعله سَمِجاً
رأيت صورته من أقبح الصُّوَرِ !!
وهبه كالشمس في حُسْنٍ ألم ترنا
نفرُّ منها إذا مالت إلى الضررِ؟!!

وقِس حالك ـ وأنت في البيت الأول ولم تنتهِ إلى الثاني ـ على حالك وأنت قد انتهيتَ إليه ووقفتَ عليه؛ تعلم بُعد ما بين حالتيك في تمكن المعنى لديك؛ وكذا تَعَهَّدِ الفرق بين أن تقول: «الدُّنيا لا تدوم» وتسكت وأنت تذكر عقيبه ما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «من في الدنيا ضيف، وما في يده عارية، والضيف مرتحل والعارية مؤداة»، أو تنشد قول لبيد:

وما المال والأهلون إلا ودائعٌ

ولابُدَّ يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ

وبين أن تقول: «أرى قوماً لهم منظر، وليس لهم مخبر» وتقطع الكلام، وأن تُتبعه نحو قول ابن لنكك:

في شجر السَّرْو منهم مَثَلٌ

له رُواءٌ وما له ثمرُ

وانظر في جميع ذلك إلى المعنى في الحالة الثانية كيف يتزايد شرفه عليه في الحالة الأولى.

.....

ـ أسباب تأثير التشبيه:

ولذلك أسباب؛ منها: ما يحصل للنفس من الأنس بإخراجها من خفيٍّ إلى جليٍّ؛ كالانتقال مما يحصل لها بالفكرة إلى ما يُعلم بالفطرة، أو بإخراجها مما لم تألفه إلى ما ألفته.

كما قيل:

ما الحُبُّ إلا للحبيب الأولِ

أو مما تعلمه إلى ما هي به أعلم؛ كالانتقال من المعقول إلى المحسوس؛ فإنك قد تعبر عن المعنى بعبارة تؤديه وتبالغ، نحو أن تقول وأنت تصف اليوم بالقِصَر: «يوم كأقصر ما يُتصور»، فلا يجد السامع له من الأنس ما يجده

لنحو قولهم : « أيام كأباهيم القَطَا »، وقول الشاعر :

ظللنا عند باب أبي نُعَيْمٍ

بيومٍ مثل سالفة الذُّبابِ

وكذا تقول : « فلان إذا همَّ بالشيء لم يزل ذاك عن ذكره، وقصر خواطره على إمضاء عزمه فيه، ولم يشغله عنه شيء » ؛ فلا يصادف السامع له أريحية، حتى إذا قلت :

إذا همَّ ألقى بين عينيه عزمهُ

امتلأت نفسه سروراً، وأدركته هِزَّة لا يمكن دفعها عنه .

ومن الدليل على أن للإحساس من التحريك للنفس وتمكين المعنى ما ليس لغيره ؛ أنك إذا كنت أنت وصاحب لك يسعى في أمر على طرف نهر، وأنت تريد أن تقرر له أنه لا يحصل من سعيه على طائل، فأدخلت يدك في الماء ثم قلت له : « انظر : هل حصل في كفي من الماء شيء ؟ ؛ فكذلك أنت في أمرك » كان لذلك ضرب من التأثير في النفس وتمكين المعنى في القلب زائد على القول المجرد .

ومنها : الاستطراف

ومن فضائل التشبيه أنه يأتيك من الشيء الواحد بأشياء عدة : نحو أن يعطيك من الزند بإيرائه : شبه الجواد والذكي والنجح في الأمور، وبإصلاده : شبه البخيل والبليد والخيبة في السعي، ومن القمر : الكمال عن النقصان، كما قال أبو تمَّام :

لهفي على تلك الشواهد فيهما

لـو أُمهلـت حتى تصير شمائلا

لغدا سكوتهما حِجَاً وصباهما

حُلماً وتـلـك الأريحيَّة نـائلا

ولأعقـب النجـم المُرِذُّ بديمـة

ولعـاد ذاك الطَّلُّ جـوداً وابـلا

... إنَّ الهـلال إذا رأيـت نُـمـوَّهُ

أيقـنت أن سيـصير بدراً كـاملا

والنقصان عن الكمال ؛ كقول أبي العلاء المعري :

وإن كُنتَ تبغي العيش فابغ توسُّطاً

فعنـد التنـاهـي يقـصر المتطـاولُ

تُـوَقَّ البـدور النقـص وهـي أهِلَّةٌ

ويُـدركهـا النُّقـصان وهـي كـواملُ

وتتفرع من حالتي كماله ونقصه فروع لطيفة ؛ كقول ابن بابك في الأستاذ أبي علي ، وقد استوزره وأبا العباس الضبي فخر الدولة بعد وفاة ابن عبَّاد :

وأُعـرتَ شطـر المُلْك شطـر كمالهِ

والبـدر في شـطـر المسافـة يكمُلُ

.....

ـ أركان التشبيه :

ثم النظر في أركان التشبيه، وهي أربعة: «طرفاه، ووجهه، وأداته»، وفي الغرض منه، وفي تقسيمه بهذه الاعتبارات.

ـ طرفا التشبيه:

أما طرفاه فهما إما حسيَّان، كما في تشبيه الخد بالورد، والقَدِّ بالرمح، والفيل بالجبل في المبصرات، والصوت الضعيف بالهمس في المسموعات، والنكهة بالعنبر في المشمومات، والريق بالخمر في المذوقات، والجلد الناعم بالحرير في الملموسات.

وإما عقليان؛ كما في تشبيه العلم بالحياة.

وإما مختلفان؛ والمعقول هو المشبه؛ كما في تشبيه المَنِيَّة بالسبع، أو العكس؛ كما في تشبيه العطر بخُلُق كريم.

والمراد بالحسيِّ المُدرَك ـ هو أو مادته ـ بإحدى الحواس الخمس الظاهرة؛ فدخل فيه الخيالي، كما في قوله:

وكأنَّ محمر الشقيـ

ـق إذا تصوَّب أو تصعَّد

أعلام ياقوتٍ نُشر

ن على رماحٍ من زبرجد

والمراد بـ «العقلي» ما عدا ذلك؛ فدخل فيه الوهمي؛ وهو ما ليس مدركاً بشيء من الحواس الخمس الظاهرة، مع أنه لو أُدرك لم يدرك إلا بها؛ كما في قول امرئ القيس:

ومسنونةٍ زُرقٍ كأنياب أغوالِ

وعليه قوله تعالى: « طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ » ، وكذا ما يُدرَك بالوجدان؛ كاللذة، والألم، والشبع، والجوع .

ـ وجه الشَّبه :

وأما وجهه: فهو المعنى الذي يشترك فيه الطرفان تحقيقاً أو تخييلاً، والمراد بالتخييل ألا يُمكن وجوده في المشبه به إلا على تأويل؛ كما في قول القاضي التنوخي:

وكأن النجوم بين دُجاها

سننٌ لاح بينهن ابتداعُ

فإن وجه الشبه فيه الهيئة الحاصلة من حصول أشياء مشرقة بيض في جوانب شيء مظلم أسود؛ فهي غير موجودة في المشبه به إلا على طريق التخييل، وذلك أنه لما كانت البدعة والضلالة وكل ما هو جهل يجعل صاحبها في حكم من يمشي في الظلمة، فلا يهتدي إلى الطريق، ولا يفصل الشيء من غيره؛ فلا يأمَن أن يتردَّى في مَهْوَاة؛ أو يعثر على عدو قاتل، أو آفة مهلكة، شُبِّهت بالظلمة، ولزم ـ على عكس ذلك ـ أن تُشبَّه السُّنَّة والهُدى وكل ما هو علم بالنور، وعليهما قوله تعالى: « يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » ؛ وشاع ذلك حتى وُصف الصنف الأول بالسواد، كما في قول القائل: « شاهدت سواد الكفر من جبين فلان » ؛ والصنف الثاني بالبياض؛ كما في

قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: «أتيتكم بالحنيفية البيضاء»؛ وذلك لتخييل أن السنن ونحوها من الجنس الذي هو إشراق أو ابيضاض في العين، وأن البدعة ونحوها على خلاف ذلك، فصار تشبيه النجوم ما بين الدياجي بالسنن ما بين الابتداع كتشبيه النجوم في الظلام ببياض الشيب في سواد الشباب، وبالأنوار مؤتلقة بين النبات الشديد الخضرة؛ فالتأويل فيه أنه تخيُّل ما ليس بمتلون متلوناً، ويحتمل وجهاً آخر؛ وهو أن يُتأول بأنه أراد معنى قولهم: «إن سواد الظلام يزيد النجوم حُسنا»؛ فإنه لما كان وقوف العاقل على عوار الباطل يزيد الحق نُبلاً في نفسه وحُسناً في مرآة عقله؛ جُعل هذا الأصل من المعقول مثالاً للمشاهد المبصر هناك، غير أنه لا يخرج - مع هذا - عن كونه على خلاف الظاهر؛ لأن الظاهر أن يُمثّل المعقول في ذلك بالمحسوس؛ كما فعل البحتري في قوله:

وقد زادها إفراط حُسْنٍ جوارها
خلائق أصفارٍ من المجد خُيَّبِ
وحُسن دراريِّ الكواكب أن ترى
طوالع في داجٍ من الليل غَيْهبِ

ومن التشبيه التخييلي قول أبي طالب الرقي:

ولقد ذكرتُكِ والظلام
يوم النَّوى وفؤاد من لم يعشقِ

فإنه لما كانت أيام المكاره توصف بالسواد توسُّعاً؛ فيقال: «اسودَّ النهار في

عيني، وأظلمت الدنيا عليَّ »، وكان الغَزِل يدعي القسوة على من لم يعشق، والقلب القاسي يوصف بالسواد توسُّعاً، تخيل يوم النوى وفؤاد من لم يعشق شيئين لهما سواد، وجعلهما أعرف به، وأشهر من الظلام، فشبَّهه بهما .

وكذا قول ابن بَابَك:

وأرض كأخلاق الكرام قطعتها
وقد كحَّل الليل السِّمَاك فأبصرا

فإن الأخلاق لما كانت توصف بالسعة والضيق تشبيهاً لها بالأماكن الواسعة والضيِّقة، تخيل أخلاق الكرام شيئاً له سعة، وجُعل أصلاً فيها، فشبَّه الأرض الواسعة بها .

وكذا قول التنوخي:

فانهض بنارٍ إلى فحمٍ كأنهما
في العين ظلمٌ وإنصافٌ قد اتفقا

فإنه لما كان يقال في الحق: « إنه منير واضح »، فيستعار له صفة الأجسام المنيرة، وفي الظلم خلاف ذلك، تخيلهما شيئين لهما إنارة وإظلام، فشبه النار والفحم مجتمعَين بهما مجتمعين .

وكذا ما كتب به الصاحب إلى القاضي أبي الحسن، وقد أهدى له الصاحب عطر القُطْر:

وقال له: هل سمعت هذا المعنى ؟؛ فقال ابن رشيق: سمعته، وأخذتَه أنتَ

وأفسدتَه ؛ أما الأخذ فمن النابغة الذبياني حيث يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً
وهل يأثمن ذو إمّةٍ وهو طائعُ؟
لكلفْتني ذنب امرئٍ وتركتهُ
كذي العُرِّ يُكوَى غيره وهو راتعُ !

وأما الإفساد ؛ فلأن سبابة المتندم أول شيء يتألم منه ؛ فلا يكون المعاقَب غير الجاني ، وهذا بخلاف بيت النابغة ؛ فإن المكوي من الإبل يألم وما به عُرٌّ البتة ، وصاحب العُر لا يألم جملة .

ـ الوجه الداخل في الطرفين ، والخارج عنهما :

وهو إما غير خارج عن حقيقة الطرفين ، أو خارج .

والأول : إما تمام حقيقتهما ؛ كما في تشبيه إنسان بإنسان في كونه إنساناً ، أو جزئهما ؛ كما في تشبيه بعض الحيوانات العُجْم بالإنسان في كونه حيواناً .

والثاني : صفة ؛ إما حقيقية أو إضافية ، والحقيقية إما حسية ؛ وهي الكيفيات الجسمية مما يدرك بالبصر من الألوان والأشكال والمقادير والحركات وما يتصل بها من الحُسن والقبح وغير ذلك ، أو بالسمع من الأصوات القوية والضعيفة والتي بين بين ، أو بالذوق من أنواع الطعوم ، أو بالشم من أنواع الروائح ، أو باللمس من الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، والخشونة والملاسة ، واللين والصلابة ، والخفة والثقل ، وما ينضاف إليها .

وإما عقلية : كالكيفيات النفسية من الذكاء والتيقظ والمعرفة والعلم والقدرة

والكرم والسخاء والغضب والحلم، وما جرى مجراها من الغرائز والأخلاق .

والإضافية: كإزالة الحجاب في تشبيه الحُجَّة بالشمس .

ـ الوجه الواحد، وغيره، والحسي، والعقلي:

تقسيم آخر باعتبار آخر:

وجه الشبه إما واحد، أو غير واحد .

والواحد: إما حسي، أو عقلي .

وغير الواحد: إما بمنزلة الواحد؛ لكونه مركباً من أمرين أو أمور، أو متعدد غير مركب .

والمركب إما حسي، أو عقلي .

والمتعدد: إما حسي، أو عقلي، أو مختلف .

والحسي لا يكون طرفاه إلا حسيين؛ لامتناع أن يدرك بالحس من غير الحسي شيء .

والعقلي طرفاه إما عقليان، أو حسيان، أو مختلفان؛ لجواز أن يدرك بالعقل من الحسي شيء؛ ولذلك يقال: التشبيه بالوجه العقلي أعم من التشبيه بالوجه الحسي .

ـ الواحد الحسي:

الواحد الحسي: كالحمرة، والخفاء، وطيب الرائحة، ولذة الطعم، ولين الملمس في تشبيه الخد بالورد، والصوت الضعيف بالهمس، والنكهة بالعنبر، والريق بالخمر، والجلد الناعم بالحرير .

ـ الواحد العقلي :

والواحد العقلي : كالعَراء عن الفائدة في تشبيه وجود الشيء العديم النفع بعدمه ، وجهة الإدراك في تشبيه العلم بالحياة - فيما طرفاه معقولان - والجراءة في تشبيه الرجل الشجاع بالأسد ، ومطلق الاهتداء في تشبيه أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم ؛ ورضي عنهم - بالنجوم فيما طرفاه محسوسان ، والهداية في تشبيه العلم بالنور ، وتحصيل ما بين الزيادة والنقصان في تشبيه العدل بالقسطاس ، فيما المشبه فيه معقول والمشبه به محسوس ، واستطابة النفس في تشبيه العطر بخُلُق كريم ، وعدم الخفاء في تشبيه النجوم بالسنن فيما المشبه به فيه محسوس والمشبه به معقول .

ـ المركب الحسي :

والمركب الحسي طرفاه إما مفردان : كالهيئة الحاصلة من الحمرة والشكل الكُرّي ، والمقدار المخصوص في قول ذي الرمة :

وسِقْط كعين الديك عاورت صاحبي

أباها وهيأنا لموقعها وكرا

وكالهيئة الحاصلة من تقارن الصور البيض المستديرة الصغار المقادير في المرأى على كيفية مخصوصة إلى مقدار مخصوص في قول أحيحة بن الجلاح - أو أبي قيس بن الأسلت - :

وقد لاح في الصبح الثريا كما ترى

كعنقود مُلاّحية حين نوَّرا

وإما مركبان ؛ كالهيئة الحاصلة من هَوِيّ أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار متفرقة في جوانب شيء مظلم، في قول بشار:

كأن مثار النقع فوق رءوسنا

وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبهْ

وكالهيئة الحاصلة من تفرق أجرام متلألئة مستديرة صغار المقادير في المرأى على سطح جسم أزرق صافي الزرقة في قول أبي طالب الرقي:

وكأن أجرام النجوم لوامعاً

دُررٌ نُثرن على بساطٍ أزرقِ

وإما مختلفان، كما في تشبيه الشاة الجبليّ بحمار أبتر مشقوق الشفة والحوافر نابت على رأسه شجرتا غَضًا .

ومن بديع هذا النوع - أعني المركب الحسي - ما يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركة، ويكون على وجهين :

أحدهما : أن يقرن بالحركة غيرها من أوصاف الجسم ؛ كالشكل، واللون . كما في قوله:

والشمس كالمرآة في كفٌ الأشلْ

من الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الإشراق والحركة السريعة المتصلة، وما يحصل من الإشراق بسبب تلك الحركة من التموج والاضطراب، حتى يُرَى الشعاع كأنه يهمُّ بأن ينبسط حتى يفيض من جوانب الدائرة، ثم يبدو له فيرجع من الانبساط الذي بدا له إلى الانقباض، كأنه يجتمع من الجوانب إلى

الوسط ؛ فإن الشمس إذا أحدَّ الإنسان النظر إليها ليتبين جِرْمها ، وجدها مؤدية لهذه الهيئة ، وكذا المرآة التي كانت في يد الأشل .

فإن البوتقة إذا أُحميت وذاب فيها الذهب ، تشكل بشكلها في الاستدارة ، وأخذ يتحرك فيها بجملته تلك الحركة العجيبة ، كأنه يهم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها ؛ لما في طبعه من النعومة ، ثم يبدو له فيرجع إلى الانقباض لما بين أجزائه من شدة الاتصال والتلاحم ؛ ولذلك لا يقع فيه غليان على الصفة التي تكون في الماء ونحوه مما يتخلله الهواء .

وكما في قول الصنوبري :

كأن في غُدرانها
حواجباً ظلَّت تمط

أراد ما يبدو في صفحة الماء من أشكال كأنصاف دوائر صغار ، ثم تمتد امتداداً يُنقِص من انحنائها ، فينقلها من التقوس إلى الاستواء ، وذلك أشبه شيء بالحواجب إذا امتدت ؛ لأن للحاجب كما لا يخفى تقويساً ، ومده يُنقِص من تقويسه .

والوجه الثاني : أن تُجرَّد هيئة الحركة عن كل وصف غيرها للجسم ، فهناك أيضاً لابُدَّ من اختلاط حركات كثيرة للجسم إلى جهات مختلفة له ؛ كأن يتحرك بعضه إلى اليمين ، وبعضه إلى الشمال ، وبعضه إلى العلو ، وبعضه إلى السفل ، فحركة الرحا والدولاب والسهم لا تركيب فيها ؛ لاتحاد الحركة ، وحركة المصحف في قول ابن المعتز :

وكأنَّ البرق مُصحف قارٍ

فانطباقاً مرَّةً وانفتاحا

فيها تركيب ؛ لأنه يتحرك في الحالتين إلى جهتين ؛ في كل حالة إلى جهة .
وكلما كان التفاوت في الجهات التي تتحرك أبعاض الجسم إليها أشد، كان التركيب في هيئة المتحرك أكثر .
ومن لطيف ذلك قول الأعشى يصف السفينة في البحر وتقاذف الأمواج بها :

تَقِصُّ السَّفِين بجانبيه كما

يَنْزُو الرباح خلا له كَرْعُ

قال الشيخ عبد القاهر : الرباح : الفصيل ، والكرع : ماء السماء ؛ شبَّه السفينة في انحدارها وارتفاعها بحركات الفصيل في نزوه ؛ فإنه يكون له حينئذٍ حركات متفاوتة تصير له أعضاؤه في جهات مختلفة ، ويكون هناك تسفل وتصعد على غير ترتيب ، وبحيث يكاد يدخل أحدهما في الآخر ، فلا يتبينه الطرف مرتفعاً حتى يراه متسفلاً ، وذلك أشبه شيء بحال السفينة وهيئة حركتها حين تتدافعها الأمواج .

ـ وجه الشبه المركب العقلي :

والمركب العقلي كالمنظر المُطمِع مع المَخْبَر المؤيس الذي هو على عكس ما قدِّر في قوله تعالى : ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ؛ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ؛ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ؛ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ)) ؛ شبه ما

يعمله من لا يُقرن الإيمان المعتبر بالأعمال التي يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ثم يَخيب في العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدَّر بسراب يراه الكافر بالساهرة ؛ وقد غلبه عطش يوم القيامة ، فيحسبه ماء فيأتيه ؛ فلا يجد ما رجاه ؛ ويجد زبانية الله عنده ؛ فيأخذونه ؛ فيعتِلونه إلى جهنم ؛ فيسقونه الحميم والغُساق .

فهو كما ترى منتزع من أمور مجموعة قُرن بعضها إلى بعض ، وذلك أنه روعي من الكافر فعل مخصوص ، وهو حسبان الأعمال نافعة له ، وأن تكون للأعمال صورة مخصوصة ، وهي صورة الأعمال الصالحة التي وعد الله تعالى بالثواب عليها ، بشرط الإيمان به وبرسله عليهم السلام ، وأنها لا تفيدهم في العاقبة شيئاً ، وأنهم يلقَوْن فيها عكس ما أمَّلوه ؛ وهو العذاب الأليم ، وكذا في جانب المشبه به .

وكحرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب في استصحابه ، كما في قوله تعالى : ((مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ؛ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)) ؛ فإنه أيضاً منتزع من أمور مجموعة قُرن بعضها إلى بعض ، وذلك أنه روعي من الحمار فعل مخصوص وهو الحمل ، وأن يكون المحمول شيئاً مخصوصاً وهي الأسفار التي هي أوعية العلوم ، وأن الحمار جاهل بما فيها ، وكذا في جانب المشبه .

ـ دقيقة في الوجه المُركَّب :

واعلم أنه قد تقع بعد أداة التشبيه أمور يظن أن المقصود أمر منتزع من

بعضها، فيقع الخطأ؛ لكونه أمراً منتزعاً من جميعها .

كقوله :

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامةٌ

فلما رأوها أقشعت وتجلَّتِ

فإنه ربما يظن أن الشطر الأول منه تشبيه مستقل بنفسه لا حاجة به إلى الثاني، على أن المقصود به ظهور أمر مطمع لمن هو شديد الحاجة إليه، ولكن بالتأمل يظهر أن مغزى الشاعر في التشبيه أن يثبت ابتداءً مُطمعاً متصلاً بانتهاء مؤيس، وذلك يتوقف على البيت كله .

فإن قيل : هذا يقتضي أن يكون بعض التشبيهات المجتمعة كقولنا : « زيد يصفو ويكدر » تشبيهاً واحداً ؛ لأن الاقتصار على أحد الخبرين يُبطل الغرض من الكلام ؛ لأن الغرض منه وصف المخبر عنه بأنه يجمع بين الصفتين، وأن إحداهما لا تدوم .

قُلنا : الفرق بينهما أن الغرض في البيت أن يُثْبَت ابتداءً مطمعٌ متصلٌ بانتهاء مؤيس - كما مر - ، وكون الشيء ابتداء لآخر زائد على الجمع بينهما، وليس في قولنا : « يصفو ويكدر » أكثر من الجمع بين الصفتين، ونظير البيت قولنا : « يصفو ثم يكدر » ؛ لإفادة « ثم » الترتيب المقتضي ربط أحد الوصفين بالآخر .

وقد ظهر مما ذكرنا أن التشبيهات المجتمعة تفارق التشبيه المركب في مثل ما ذكرنا بأمرين :

ـ أحدهما : أنه لا يجب فيها ترتيب .

ـ والثاني : أنه إذا حُذف بعضها لا يتغير حال الباقي في إفادة ما كان يفيده قبل الحذف ، فإذا قلنا : « زيد كالأسد بأساً ، والبحر جوداً ، والسيف مضاءً » لا يجب أن يكون لهذه التشبيهات نسق مخصوص ، بل لو قدم التشبيه بالبحر أو التشبيه بالسيف جاز ، ولو أسقط واحد من الثلاثة لم يتغير حال غيره في إفادة معناه ، بخلاف المركب ؛ فإن المقصود منه يختل بإسقاط بعض الأمور .

ـ المتعدد الحسي :

والمتعدد الحسي كاللون والطعم والرائحة في تشبيه فاكهة بأخرى .

ـ المتعدد العقلي :

المتعدد العقلي ؛ كحدَّة النظر ، وكمال الحذر ، وإخفاء السفاد في تشبيه طائر بالغراب .

ـ المتعدد المختلف :

والمتعدد المختلف ؛ كحُسن الطلعة ونباهة الشأن في تشبيه إنسان بالشمس .

واعلم أن الطريق في اكتساب وجه الشبه أن يُميَّز عما عداه ، فإذا أردت أن تشبه جسماً بجسم في هيئة حركة ، وجب أن تطلب الوِفَاق بين الهيئة والهيئة مجردتين عن الجسم وسائر أوصافه من اللون وغيره ، كما فعل ابن المعتز في تشبيه البرق ؛ فإن لم ينظر إلى شيء من أوصافه سوى الهيئة التي تجدها العين من انبساط يعقبه انقباض .

ـ أداة التشبيه :

وأما أداته : فـ « الكاف » في نحو قولك : « زيد كالأسد » .

و «كأن » في نحو قولك : « زيد كأنه أسد » .

و« مثل » في نحو قولك : « زيد مثل الأسد » .

وما في معنى « مثل »، كلفظة « نحو »، وما يُشتق من لفظة « مثل » و« شبه » ونحوهما .

والأصل في الكاف ونحوها أن يليها المشبه به ، وقد يليها مفرد لا يتأتى التشبيه به .

وذلك إذا كان المشبه به مُركَّباً ؛ كقوله تعالى : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ » ؛ إذ ليس المراد تشبيه حال الدنيا بالماء ، ولا بمفرد آخر يُتَمَحَّل لتقديره ؛ بل المراد تشبيه حالها في نضارتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضرَ وارفاً ، ثم يهيج فتُطيِّره الرياح كأن لم يكن .

وأما قوله ـ عَزَّ وَجَل ـ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟! » ؛ فليس منه ؛ لأن المعنى : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى ، حين قال لهم : من أنصاري إلى الله ؟.

وقد يذكر فعل ينبئ عن التشبيه ؛ كعلمت في قولك : « علمت زيداً أسداً » ،

ونحوه .

هذا إذا قرب التشبيه ، فإن بُعِّد أدنى تبعيد قيل : ((خلته وحسبته)) ، ونحوهما .

ـ الغرض من التشبيه :

وأما الغرض من التشبيه فيعود في الأغلب إلى المشبه ، وقد يعود إلى المشبه به .

ـ ما يعود إلى المشبه من أغراض التشبيه :

أما الأول فيرجع إلى وجوه مختلفة :

منها بيان أن وجود المشبه ممكن : وذلك في كل أمر غريب يمكن أن يخالَف فيه ويدعى امتناعه ؛ كقول أبي الطيِّب :

فإن تَفُقِ الأنام وأنت منهم
فإن المسك بعض دم الغزالِ

أراد أنه فاق الأنام في الأوصاف الفاضلة ، إلى حدٍّ بطل معه أن يكون واحداً منهم ، بل صار نوعاً آخر ـ برأسه ـ أشرف من الإنسان ، وهذا ـ أعني أن يتناهى بعض أفراد النوع في الفضائل ، إلى أن يصير كأنه ليس منها ـ أمر غريب يفتقر من يدعيه إلى إثبات جواز وجوده على الجملة ، حتى يجيء إلى إثبات وجوده في الممدوح ؛ فقال : ((فإن المسك بعض دم الغزال)) ؛ أي : ولا يعد في الدماء ؛ لما فيه من الأوصاف الشريفة التي لا يوجد منها شيء في الدم ، وخلوه من الأوصاف التي لها كان الدم دماً ؛ فأبان أن لما ادَّعاه أصلاً في الوجود على الجملة .

ومنها بيان حاله ؛ كما في تشبيه ثوب بثوب آخر في السواد ، إذا عُلم لون

المشبه به دون المشبه .

ومنها بيان مقدار حاله في القوة والضعف والزيادة والنقصان ؛ كما في قوله :

مداد مثل خافية الغرابِ

وعليه قول الآخر :

فأصبحت من ليلى الغداة كقابضٍ

على الماء خانته فروج الأصابعِ

أي : بلغت في بوار سعيي في الوصول إليها وأن أُمتَّع بها أقصى الغايات ، حتى لم أحظ منها بما قلَّ ولا بما كَثُر .

ومنها تقرير حاله في نفس السامع ؛ كما في تشبيه من لا يحصل من سعيه على طائل بمن يَرْقِم على الماء .

وعليه قوله ـ عَزَّ وَجَلَّ : « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ » ؛ فإنه بيَّن ما لم تجر به العادة بما جرت به العادة .

وهذه الوجوه تقتضي أن يكون وجه الشبه في المشبه به أتم ، وهو به أشهر ؛ ولهذا ضُعِّف قول البحتري :

على باب قنسرينَ والليل لاطخٌ

جوانبه من ظُلمةٍ بمدادِ

فإنه رُبَّ مدادٍ فاقد اللون ، والليل بالسواد وشدته أحق وأحرى ؛ ولهذا قال ابن الرومي :

حِبْر أبي حفص لعاب الليلِ

؛يسيل للإخوان أيَّ سيلِ

فبالغ في وصف الحبر بالسواد حين شبهه بالليل ؛ فكأنه نظر إلى قول العامة في الشيء الأسود : ((هو كالنِّقْس)) ، ثم تركه للقافية إلى المداد .

ومنها تزيينه للتغريب فيه ، كما في تشبيه وجه أسود بمقلة الظبي .

ومها تشويهه للتنفير عنه ، كما في تشبيه وجه مجدور بسلحة جامدة قد نقرتها الديكة .

وقد أشار إلى هذين الغرضين ابن الرومي في قوله :

تقول هذا مجاج النحل تمدحهُ

وإن تَعِبْ قلت ذا قيء الزنابيرِ

ومنها استطرافه : كما في تشبيه فحم فيه جمرة موقد ببحر من المسك مَوْجه الذهب ؛ لإبرازه في صورة الممتنع عادة .

وللاستطراف وجه آخر ؛ وهو أن يكون المشبه به نادر الحضور ؛ إما مطلقاً وإما عند حضور المشبه .

ـ ما يعود إلى المشبه به من أغراض التشبيه :

وأما الثاني فيكون في الغالب إيهام أن المشبه به أتم من المشبه في وجه الشبه ، وذلك في التشبيه المقلوب ، وهو أن يكون الأمر بالعكس ؛ كقول محمد بن وهيب :

وبدا الصباح كأن غُرتهُ وجه الخليفة حين يمتدحُ

فإنه قصد إيهام أن وجه الخليفة أتم من الصباح في الوضوح والضياء .

واعلم أن هذا وإن كان في الظاهر يشبه قولهم : « لا أدري أوجهه أنـوَر أم الصبح؟!! ؛ وغرته أضوأ أم البدر ؟!!» ، وقولهم إذا أفرطوا : « نور الصباح يخفى في ضوء وجهه » أو« نور الشمس مسروق من نور جبينه » ونحو ذلك من وجوه المبالغة ؛ فإن في الأول خلابة وشيئاً من السحر ليس في الثاني ، وهو أنه كأنه يستكثر للصباح أن يشبهه بوجه الخليفة ، ويوهم أنه احتشد له واجتهد في تشبيه يفخم به أمره ، فيوقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر ، ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاؤه لها ؛ لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه ، لا يُشفِق من خلاف مخالف وتهكم متهكم ، والمعاني إذا وردت على النفس هذا المورد كان لها نوع من السرور عجيب ، فكانت كالنعمة التي لا تكدرها المنة ، وكالغنيمة من حيث لا تحتسب ، وفي قوله : « حين يمتدح » فائدة شريفة ، وهي الدلالة على اتصاف الممدوح بما لا يوجد إلا فيمن هو كامل في الكرم ، من معرفة حق المادح - على ما احتشد له من تزيينه وما قصده من تفخيم شأنه في عيون الناس - بالإصغاء إليه والارتياح له ، والدلالة بالبشر والطلاقة على حُسن موقعه عنده .

ومنه قوله تعالى حكاية عن مُستحلِّ الربا : « إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا » ؛ فإن مقتضى الظاهر أن يقال : إنما الربا مثل البيع ؛ إذ الكلام في الربا لا في البيع ، فخالفوا لجعلهم الربا في الحلِّ أقوى حالاً من البيع وأعرف به .

ومنه قوله ـ عَزَّ وَجَلَّ: «أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ»؛ فإن مقتضى الظاهر العكس؛ لأن الخطاب للذين عبدوا الأوثان وسمُّوها آلهة تشبيهاً بالله سبحانه وتعالى؛ فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فخولف في خطابهم؛ لأنهم بالغوا في عبادتها؛ وغلوا حتى صارت عندهم أصلاً في العبادة والخالق سبحانه وتعالى فرعاً، فجاء الإنكار على وفق ذلك.

وقد يكون الغرض العائد على المشبه به بيان الاهتمام به، كتشبيه الجائع وجهاً كالبدر في الإشراق والاستدارة بالرغيف؛ إظهاراً للاهتمام بشأن الرغيف لا غير، وهذا يسمى إظهار المطلوب.

ـ أقسام التشبيه باعتبار طرفيه:

وأما تقسيم التشبيه: فباعتبار طرفيه أربعة أقسام:

ـ الأول: تشبيه المفرد بالمفرد:

وهو ما طرفاه مفردان: إما غير مقيدين، كتشبيه الخد بالورد ونحوه، وعليه قوله تعالى: «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ».

فإن قلت: ما وجه الشبه في الآية؟ قلت: جعله الزمخشري حسيًّا، فإنه قال: لما كان الرجل والمرأة يعتنقان، ويشتمل كل واحد منهما على صاحب في عناقه؛ شبه باللباس المشتمل عليه، قال الجعدي:

إذا ما الضجيع ثنى عطفها

تثنت فكانت عليه لباسا

وقيل: شبه كل واحد منهما باللباس للآخر؛ لأنه يصونه من الوقوع في

فضيحة الفاحشة، كاللباس الساتر للعورة .

وإما مفردان مقيدان ؛ كقولهم لمن لا يحصل من سعيه على شيء : ((هو كالقابض على الماء، وكالراقم في الماء)) ؛ فإن المشبه هو الساعي، لا مطلقاً، بل مقيداً بكون سعيه كذلك، والمشبه به هو القابض أو الراقم، لا مُطلقاً، بل مقيداً بكون قبضه على الماء أو رقمه فيه ؛ لأن وجه الشبه فيهما هو التسوية بين الفعل وعدمه في عدم الفائدة، والقبض على الماء والرقم فيه كذلك ؛ لأن فائدة قبض اليد على الشيء أن يحصل فيها، فإذا كان مما لا يتماسك ؛ فقبضها عليه وعدمه سواء، وكذلك القصد بالرقم في الشيء أن يبقى أثره فيه، فإذا فُعل فيما لا يقبله كان فعله كعدمه ؛ فالقيد في هاتين الصورتين هو الجار والمجرور .

ونحوهما قولهم : ((هو كمن يجمع سيفين في غمد)) ؛ وقولهم : ((كمبتغي الصيد في عِرِّيسة الأسد)) ، وقد يكون حالاً ؛ كقولهم : ((هو كالحادي وليس له بعير)) .

ومما طرفاه مُقيَّدان قول الشاعر :

إني وتزييني بمَدحي مَعشَراً
كَمُعَلِّقٍ دُرّاً عَلى خِنزيرِ

فإن المشبه فيه هو المتكلم بقيد اتصافه بتزيينه بمدحه معشراً، فمتعلق التزيين ؛ أعني قوله : ((بمدحي)) داخل في المشبه، والمشبه به من يعلق دُرّاً، بقيد أن يكون تعليقه إياه على خنزير، فالشبه مأخوذ من مجموع المصدر وما في

صلته، وهو أن كل واحد منهما يضع الزينة حيث لا يظهر لها أثر؛ لأن الشيء غير قابل للتزيين؛ فالواو في قوله: ((وتزييني)) بمعنى مع؛ إذ لا يمكن أن يقال: إني كذا، وإن تزييني كذا؛ لأنه ليس معنا شيئان يكون أحدهما خبراً عن ضمير المتكلم، والآخر عن تزييني، لا يقال تقديره: إني كمعلق دُرًّا على خنزير، وإن تزييني بمدحي معشراً كتعليق دُرٍّ على خنزير؛ لأنه لا يتصور أن يشبه المتكلم نفسه - من حيث هو - بمعلق دُرًّا على خنزير، بل لابُدَّ أن يكون يشبه نفسه باعتبار تزيينه بمدحه معشراً.

وإما مختلفان، والمقيد هو المشبه به، كقوله:

والشمس كالمرآة في كف الأشلْ

فإن المشبه هو الشمس على الإطلاق، والمشبه به هو المرآة لا على الإطلاق، بل بقيد كونها في يد الأشل.

أو على عكس ذلك؛ كتشبيه المرآة في كف الأشل بالشمس.

- الثاني: تشبيه المركب بالمركب:

الثاني تشبيه المركب بالمركب، وهو ما طرفاه كثرتان مجتمعتان؛ كما في قول البُحتري:

ترى أحجاله يصعدن فيهِ

صعود البرق في الغيم الجَهَامِ

لا يريد به تشبيه بياض الحُجول على الانفراد بالبرق، بل مقصوده الهيئة الخاصة الحاصلة من مخالطة أحد اللونين بالآخر.

ـ الثالث: تشبيه المُفرد بالمُركّب:

كما مر من تشبيه الشاة الجَبَليّ.

ـ الرابع: تشبيه المركب بالمفرد:

كقول أبي تمام:

يا صاحبيَّ تقصيا نظريكما

تريا وجوه الأرض كيف تُصورُ

تريا نهاراً مُشمساً قد شابهُ

زهر الرُّبا فكأنما هو مُقمرُ

يعني أن النبات من شدة خضرته ـ مع كثرته وتكاتفه ـ قد صار لونه إلى الإسوداد، فنقص من ضوء الشمس حتى صار كضوء القمر.

ـ التشبيه الملفوف والمفروق:

وأيضاً إن تعدد طرفاه؛ فهو إما ملفوف أو مفروق.

فالملفوف ما أتى فيه بالمشبهين ثم بالمشبه بهما؛ كقول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً

لدى وكرها العناب والحشف البالي

وغير الملفوف بخلاف ذلك؛ كقول المُرقّش الأكبر:

النشر مسكٌ والوجوه دنا

نيرٌ وأطراف الأكف عَنَم

ـ تشبيه التسوية والجمع :

وإن تعدد طرفه الأول ـ أعني المشبه ـ دون الثاني ، سُمِّي تشبيه التسوية .

كقول الآخر :

صدغ الحبيب وحالي
كلاهما كالليالي
؛ وثغره في صفاءٍ
؛ وأدمعي كاللآلي

وإن تعدد طرف الثاني ـ أعني المشبه به دون الأول ـ سُمِّيَ تشبيه الجمع .

كقول البُحتري :

كأنما يَبْسُمُ عن لؤلؤٍ
مُنضَّدٍ أو بَرَدٍ أو أقاح

ـ أقسام التشبيه باعتبار وجه الشبه :

وأما باعتبار وجهه : فله ثلاثة تقسيمات : تمثيل وغير تمثيل ، ومجمل ومفصل ، وقريب وبعيد .

١ـ تشبيه التمثيل :

التمثيل ما وجهه وصف منتزع من متعدد ؛ أمرين أو أمور ، وقيده السكاكي بكونه غير حقيقي ، ومثّله بصور مثّل بها غيره أيضاً ، منها قول ابن المعتز :

اصبر على مَضَض الحسو
د ... ؛ فإنَّ صبرك قاتلهْ

فالنار تأكل نفسها ...

.. ؛إن لم تجد ما تأكلهْ

فإن تشبيه الحسود المتروك مقاولته ـ مع تطلبه إياها لينال بها نفثة مصدور ـ بالنار التي لا تُمد بالحطب في أمر غير حقيقي ؛ منتزع من متعدد ، وهو إسراع الفناء ؛ لانقطاع ما فيه مدد البقاء .

٢ـ تشبيه غير التمثيل :

وغير التمثيل ما كان بخلاف ذلك ، كما سبق في الأمثلة المذكورة .

٣ـ التشبيه المجمل :

والمجمل ما لم يذكر وجهه ؛ فمنه ما هو ظاهر يفهمه كل أحد حتى العامة ؛ كقولنا : « زيد أسد » ؛ إذ لا يخفى على أحد أن المراد به التشبيه في الشجاعة دون غيرها .

ومنه ما هو خفيٌّ لا يدركه إلا من له ذهن يرتفع عن طبقة العامة ؛ كقول من وصف بني المهلب للحجَّاج لما سأله عنهم وأن أيهم أنجد : « كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها » ؛ أي : لتناسب أصولهم وفروعهم في الشرف يمتنع تعيين بعضهم فاضلاً وبعضهم أفضل منهم ، كما أن الحلقة المفرغة لتناسب أجزائها يمتنع تعيين بعضها طرفاً وبعضها وسطاً

وأيضا منه ما لم يذكر فيه وصف المشبه ولا وصف المشبه به ؛ كالمثال الأول .

ومنه ما ذكر فيه وصف المشبه به وحده ؛ كالمثال الثاني ، ونحوه قول زياد الأعجم:

وإنا وما تُلقِي لنا إن هجوتنا

لكالبحر مهما تُلقِ في البحر يغرقِ

وكذا قول النابغة الذبياني:

فإنك شمس والملوك كواكبٌ

إذا طلعت لم يبد منهن كوكبُ

ومنه ما ذكر فيه وصف كل واحد منهما، كقول أبي تمام:

صدفت عنه ولم تَصدِف مواهبهُ

عنِّي وعاوده ظني فلم يَخِبِ

كالغيث إن جئته وافاك رَيِّقه

وإن ترحَّلت عنه لَجّ في الطَّلبِ

٤ـ التشبيه المفصل:

والمفصل ما ذكره وجهه، كقول ابن الرومي:

يا شبيه البدر في الحُسـ

ـن وفي بُعد المنال

جُدْ فقد تنفجر الصخـ

ـرة بالماء الزُّلال

٥ ـ التشبيه القريب المبتذل:

والقريب المبتذل، وهو ما يُنتقَل فيه من المشبه إلى المشبه به من غير تدقيق نظر؛ لظهور وجهه في بادئ الرأي، وسبب ظهوره أمران:

الأول: كون الشبه أمراً جُمليًّاً؛ فإن الجملة أسبق أبداً إلى النفس من التفصيل؛ ألا ترى أن الرؤية لا تصل في أول أمرها إلى الوصف على التفصيل؟ ؛ لكن على الجملة، ثم على التفصيل؛ ولذلك قيل: «النظرة الأولى حمقاء، وفلان لم يُنعم النظر»؛ وكذا سائر الحواس؛ فإنه يدرك من تفاصيل الصوت والذوق في المرة الثانية ما لم يدرك في المرة الأولى، فمن يروم التفصيل كمن يبتغي الشيء من بين جملة، يريد تمييزه مما اختلط به، ومن يروم الإجمال كمن يريد أخذ الشيء جُزافاً، وكذا حكم ما يدرك بالعقل، ترى الجمل أبداً تسبق إلى الذهن، والتفاصيل مغمورة فيها، لا تحضر إلا بعد إعمال الرويَّة.

والثاني: كونه قليل التفصيل مع غلبة حضور المشبه به في الذهن:

إما عند حضور المشبه؛ لقرب المناسبة بينهما، كتشبيه العنبة الكبيرة السوداء بالإجَّاصة في الشكل وفي المقدار، والجرَّة الصغيرة بالكوز كذلك.

وإما مُطلقاً؛ لتكرره على الحس، كما مر من تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة في الاستدارة والاستنارة؛ فإن قرب المناسبة والتكرر كل واحد منهما يعارض التفصيل؛ لاقتضائه سرعة الانتقال.

ـ التشبيه البعيد الغريب:

والبعيد الغريب؛ وهو ما لا يُنتقل فيه من المشبه إلى المشبه به إلا بعد فكر؛ لخفاء وجهه في بادئ الرأي، وسبب خفائه أمران:

أحدهما: كونه كثير التفصيل؛ كما سبق من تشبيه الشمس بالمرآة في كف

الأشل ؛ فإن ما ذكرناه من الهيئة لا يقوم في نفس الرائي للمرآة الدائمة الاضطراب إلا أن يُستأنف تأمُّلاً ، ويكون في نظره مُتمهِّلاً .

والثاني : نُدُور حضور المشبه به في الذهن :

إما عند حضور المشبه ؛ لبعد المناسبة بينهما ، وإما مُطلقاً ؛ لكونه وهميًّاً ، أو مُركَّباً خيالياً ، أو مُركَّباً عقلياً .

ـ التشبيه البعيد ؛ وهو التشبيه البليغ :

والبليغ من التشبيه ما كان من هذا النوع - أعني البعيد - لغرابته ؛ ولأن الشيء إذا نِيل بعد الطلب له والاشتياق إليه كان نيله أحلى ، وموقعه من النفس ألطف ، وبالمسرَّة أولى ؛ ولهذا ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ ، كما قال :

وهُنَّ ينبذْنَ من قولٍ يُصبن به
مواقع الماء من ذي الغُلَّة الصادي

لا يقال : عدم الظهور ضرب من التعقيد ، والتعقيد مذموم ؛ لأنا نقول : التعقيد له سببان : سوء ترتيب الألفاظ ، واختلال الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثاني الذي هو المراد باللفظ .

والمراد بعدم الظهور في التشبيه ما كان سببه لطف المعنى ودقته أو ترتيب بعض المعاني على بعض ، كما يشعر بذلك قولنا : « في بادئ الرأي » ؛ فإن المعاني الشريفة لابُدَّ فيها - في غالب الأمر - من بناء ثانٍ على أول ، وَرَدِّ تالٍ إلى سابق .

ـ تحول القريب إلى بعيد:

وقد يتصرف في القريب المبتذل بما يخرجه من الابتذال إلى الغرابة، وهو على وجوه:

منها أن يكون كقوله:

لم تلق هذا الوجه شمس نهارنا

إلا بوجهٍ ليس فيه حياءُ

وقوله:

فُردَّت علينا الشمس والليل راغمٌ

بشمسٍ لهم من جانب الخِدْر تطلعُ

... ؛ فوالله ما أدري أأحلام نائمٍ ؟!!

ألَمَّت بنا أم كان في الركب يُوشعُ ؟!!

فإن تشبيه وجوه الحسان بالشمس مبتذل، لكن كل واحد من حديث الحياء في الأول، والتشكيك ـ مع ذكر يوشع عليه السلام ـ في الثاني، أخرجه من الابتذال إلى الغرابة.

ومنها أن يكون كقوله:

في طلعة البدر شيءٌ من محاسنها

وللقضيب نصيبٌ من تثنِّيها

ـ أقسام التشبيه باعتبار أداته:

وأما باعتبار أداته؛ فإما مُؤكَّد، أو مرسل:

ـ والمُؤكَّد:

ما حُذفت أداته؛ كقوله تعالى: ((وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ))؛ وقوله: ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)).

ـ التشبيه المُرسل:

والمرسل ما ذُكرت أداته؛ كقوله تعالى: ((مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا))؛ وقول البحتري:

وإذا الأسنَّة خالطتها خلتها

فيها خيال كواكبٍ في الماءِ

ـ أقسام التشبيه باعتبار الغرض:

وأما باعتبار الغرض؛ فإما مقبول، أو مردود:

ـ التشبيه المقبول:

الوافي بإفادة الغرض؛ كأن يكون المشبه به أعرف شيء بوجه الشبه؛ إذا كان الغرض بيان حال المشبه من جهة وجه الشبه، أو بيان المقدار.

ثم الطرفان في الثاني إن تساويا في وجه الشبه، فالتشبيه كامل في القبول، وإلا فكلما كان المشبه به أسلم من الزيادة والنقصان؛ كان أقرب إلى الكمال، أو كأن يكون المشبه به أتم شيء في وجه الشبه، إذا قُصد إلحاق الناقص بالكامل، أو كأن يكون المشبه به مسلم الحكم معروفه عند المخاطب

في وجه الشبه ؛ إذا كان الغرض بيان إمكان الوجود .

ـ التشبيه المردود:

والمردود بخلاف ذلك ؛ أي : القاصر عن إفادة الغرض .

ـ مراتب التشبيه:

قد سبق أن أركان التشبيه أربعة:

المشبه ، والمشبه به ، وأداة التشبيه ، ووجهه .

فالحاصل من مراتب التشبيه في القوة والضعف في المبالغة باعتبار ذكر أركانه كلها أو بعضها سبع:

ـ إحداها : ذكر الأربعة ؛ كقولك : « زيد كالأسد في الشجاعة » ؛ ولا قوة لهذه المرتبة .

ـ ثانيتها : ترك المشبه ؛ كقولك : « كالأسد في الشجاعة » ؛ أي : زيد ، وهي كالأولى في عدم القوة .

ـ ثالثتها : ترك كلمة التشبيه ؛ كقولك : « زيد أسد في الشجاعة » ؛ وفيها نوع قوة .

ـ رابعتها : ترك المشبه وكلمة التشبيه ؛ كقولك : « أسد في الشجاعة » ؛ أي : زيد ، وهي كالثالثة في القوة .

ـ خامستها : ترك وجه الشبه ؛ كقولك : « زيد كالأسد » ، وفيها نوع قوة ؛ لعموم وجه الشبه من حيث الظاهر .

ـ سادستها : ترك المشبه ووجه التشبيه ؛ كقولك : « كالأسد » ؛ أي : زيد ،

وهي كالخامسة .

ـ سابعتها : ترك كلمة التشبيه ووجهه ؛ كقولك : « زيد أسد » ؛ وهي أقوى الجميع .



الباب الثانى
الحقيقة والمجاز



.....

۞ ـ القــول في الحقيقة والمجاز



ـ المبحث الأول :

ـ في أقسام الحقيقة

الحقيقة التي نبحث عنها هنا ضربان : حقيقة من طريق اللغة ، وحقيقة من ناحية المعنى والمعقول .

بيان هذا أنا إذا وصفنا كلمة مفردة بكونها حقيقة ، كما إذ أطلقنا السبع على الحيوان المعروف ، واليد على الجارحة المخصوصة ، كان ذلك الإطلاق حُكماً آتياً من ناحية اللغة ، ألا ترى أنا نقول : إن المتكلم استعمل الكلمة فيما وضعت له ابتداء في اللغة ، وإذا وصفنا بالحقيقة الجملة من الكلام كان ذلك الوصف آتياً من جانب المعقول دون اللغة ؛ لأن الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث إنها جمل لا يصح ردها إلى اللغة ، ولا وجه لنسبتها إلى واضعها ؛ لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم ، أو اسم إلى اسم ، وذاك شيء يحصل بقصد المتكلم ، فمثلاً : كتب ؛ لا يصير خبراً عن محمد في قولك : محمد كتب بوضع اللغة ، بل بمن قصد إثبات الكتابة فعلاً له ، كذا في « أسرار البلاغة » بتصرف .

.....

- المبحث الثاني:

- في تعريف الحقيقة

الحقيقة في اللغة فعيل بمعنى فاعل من حق الشيء إذا ثبت، أو بمعنى مفعول من حققت الشيء إذا أثبته، ثم نقل إلى الكلمة الثابتة أو المثبتة في مكانها الأصلي؛ والتاء فيها للنقل من الوصفية إلى الاسمية.

وقد علمت مما سبق أن الحقيقة التي نبحث عنها ضربان: حقيقة لغوية، وحقيقة عقلية.

١ - فاللغوية: هي الكلمة المستعملة فيما وضعت له في إصلاح التخاطب، فخرج بقولنا «المستعملة» الكلمة قبل الاستعمال، فلا تسمى حقيقة ولا مجازاً، وبقولنا «فيما وضعت له» الغلط، نحو: خذ هذا الكتاب، مشيراً إلى مسطرة، والمجاز الذي لم يستعمل فيما وضع له، لا في اصطلاح التخاطب، ولا في غيره، كالأسد المستعمل في الرجل الشجاع؛ لأن الاستعارة وإن كانت موضوعة فوضعها تأويلي، أي: يحتاج إلى قرينة؛ لا تحقيقي، والمفهوم من إطلاق الوضع التحقيقي وهو ما كانت الدلالة فيه بنفسه لا بقرينة، وبقولنا في اصطلاح التخاطب المجاز المستعمل فيما وضع له في اصطلاح آخر غير الاصطلاح الذي وقع به التخاطب؛ كالزكاة إذا استعملها الشرعي في النماء، فإنها تكون مجازاً؛ لأنها لفظ استعمل في غير ما وضع له في اصطلاح الشرع، وهو الجزء المخصوص الذي يؤخذ من المال، ويعطى للسائل

والمحروم، وإن كان مستعملاً فيما وضع له في اصطلاح اللغة، فلولا هذا القيد لتناول تعريف الحقيقة والمجاز.

٢ ـ والعقلية هي إسناد الفعل، أو ما في معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر، أي: إسناد الفعل، أو ما في معناه، وهو المصدر واسم الفاعل، واسم المفعول والصفة المشبهة، واسم التفضيل والظرف، إلى ما هو له عند المتكلم فيما يفهم من ظاهر حاله بألا ينصب قرينة على أنه غير ما هو له في اعتقاده، ومعنى كونه له أن حقه أن يسند إليه؛ لأنه وصف له؛ وذلك كإسناد الفعل المبني للفاعل إلى الفاعل، وإسناد الفعل المبني للمفعول، وستأتي الأمثلة عند ذكر أقسامها، وهي أربعة:

١ ـ ما يطابق الواقع والاعتقاد معاً؛ كقول الموحد: خلق الله العالم.

٢ ـ ما يطابق الواقع دون الاعتقاد ولا يكاد يوجد له مثال، ومثلوا له بقول المعتزلي لمن لا يعرف حقيقة حاله وهو يخفيها عنه «خلق الله الأفعال كلها» إذ هو لا يعتقد ذلك، وإنما يعتقد أن الأفعال الاختيارية مخلوقة بكسب العبد واختياره.

٣ ـ ما يطابق الاعتقاد دون الواقع كقول الطبعي المنكر لوجود الإله: شفى الطبيب المريض، وعليه قوله تعالى حكاية عن بعض الكفار: «وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ».

٤ ـ ما لا يطابق شيئاً منهم؛ كالأقوال الكاذبة التي يكون المتكلم عالماً بحالها دون المخاطب، كما تقول: سافر محمد، وأنت تعلم أنه لم يسافر، فلو علمه

المخاطب كما علمه المتكلم لما تعين كونه حقيقة لجواز أن يجعل المتكلم علم السامع بأنه لم يسافر قرينة على عدم إرادة ظاهرة ، فلا يكون إسناداً إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر .

.....

ـ المبحث الثالث :

ـ في تعريف المجاز وأقسامه

المجاز مفعل ؛ واشتقاقه من الجواز ؛ وهو التعدي من قولهم : جزت موضع كذا ، إذا تعديته ،سمي به المجاز الآتي بيانه ؛ لأنهم جازوا به موضعه الأصلي ، أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولا .

وفي الاصطلاح قسمان : مجاز عقلي ، ولغوي ، والأول سنتكلم عنه بعد ، والثاني ضربان : مفرد ومركب ، فالمركب سيأتي بيانه .

والمفرد : هو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب لملاحظة علاقة بين الثاني والأول مع قرينة تمنع إرادة المعنى الأصلي ، كالأسد المستعمل في الشجاع ، والغيث المستعمل في النبات ، فخرج بقولنا : الكلمة المستعملة قبل الاستعمال ، فلا هي حقيقة ولا مجاز ، وبقولنا : في غير ما وضعت له الحقيقة ، وبقولنا : في اصطلاح التخاطب الحقيقة التي لها معنى آخر في اصطلاح التخاطب ؛ كالزكاة إذا استعملها المتكلم باصطلاح اللغة في النماء ، فإنها يصدق عليها أنها كلمة مستعملة في غير ما وضعت له لكن باصطلاح آخر ، وهو اصطلاح الشرع لا اصطلاح المتكلم ، وهو اللغة ،

فلولا هذا القيد لأمكن دخول هذه الحقيقة في تعريف المجاز، وبقولنا الملاحظة: علاقة، وهي المناسبة الخاصة بين المعنى المنقول عنه والمنقول إليه، الغلط كالكتاب إذا استعمل في المسطرة غلطاً في نحو قولك: خذ الكتاب، مشيراً إلى مسطرة، فإنه ليس فيه علاقة ملحوظة، وبقولنا: مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي الكناية فإن قرينتها لا تمنع من إرادة الموضوع له.

وينقسم إلى: مجاز مرسل واستعارة؛ لأن العلاقة المصححة للتجوز إن كانت غير المشابهة فمجاز مرسل، وإلا فاستعارة.

.....

- المبحث الرابع:

- في المجاز المرسل

هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة ومناسبة غير المشابهة؛ كاليد إذا استعملت في النعمة، لما جرت به العادة من صدورها عن الجارحة، وبواسطتها تصل إلى المقصود بها.

ويجب أن يكون في الكلام دلالة على رب تلك النعمة ومصدرها بنسبتها إليه ومن ثم لا تقول: اقتنيت يداً، ولا اتسعت اليد في المد، كما تقول: اقتنيت نعمة، وكثرت النعمة في البلد، وإنما تقول: جلست يده عندي، وكثرت أياديه لدي، أو ما شابه ذلك.

ومن هذا قوله عليه السلام لأزواجه: «أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً»؛ إذ المراد بسط اليد بالعطاء والبذل.

ونظير ذلك اليد إذا استعملت في القدرة ؛ لأن أجلى مظاهرها وأحكمها في اليد ، ألا ترى أن بها البطش والتنكيل والأخذ والقطع والرفع والوضع ، إلى غير ذلك من أفاعيلها التي ترشدك إلى وجوه القدرة ومكانها .

ومن هذا النمط الأصبع في قولهم لراعي الإبل إن له عليها إصبعاً ، أي : أثراً حسناً ، كما قال الراعي يصف راعياً :

ضعيف العصا بادي العروق ترى لهُ

عليها إذا ما أجدب الناس إصبعا

دلوا على أثر المهارة والحذق بالأصبع من قِبَلِ أنهما لا يظهران في عمل اليد إلا في حُسن تصريف الأصابع وخفّة رفعها ووضعها كما يظهر ذلك في الخط والنقش وغيرهما من دقائق الصناعات .

وعلاقات هذا المجاز كثيرة ، أشهرها :

١ ـ السببية : وهي كون الشيء المنقول عنه سبباً ومؤثراً في شيء آخر ، نحو : رعى جواي المطر ، أي : الكلأ الحادث بالغيث .

٢ ـ المسببية : وهي كون المنقول عنه مسبباً ومتأثراً من شيءٍ آخر ، نحو : أمطرت السماء نباتاً ، أي : ماء به يوجد النبات ، وتناولت كأس الشفاء ، أي : الدواء ، وعليه قوله تعالى : « وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا » ، أي : مطراً يسبب الرزق ، وقوله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » ، أي : سلاح يحدث القوة والمنعة .

٣ ـ الكُلِّيَّة: وهي كون الشيء متضمناً لشيء آخر ولغيره، كالأصابع المستعملة في الأنامل في قوله تعالى: «يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ»، أي: رءوس أناملهم، ونحو: شربت ماء النيل، أي: بعضه، والقرينة: شربت، وسكنت مصر، أي: منزلاً من منازلها، والقرينة: سكنت.

٤ ـ الجزئية: بمعنى الشيء يتضمنه وغيره شيء آخر؛ كإطلاق العين على الربيئة لكونها هي المقصودة في كون الرجل ربيئة؛ لأن ما عداها لا يعني شيئاً مع فقدها، فصارت كأنها الشخص كله، ومن هذا قوله تعالى: «قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً»؛ أي: صل، وقوله تعالى: «لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا»؛ أي: لا تُصل.

وقولهم: قال فلانٌ اليوم كلمة نالت استحسان الجميع، أي: كلاماً مفيداً.

وشروط هذه العلاقة أمران:

أ ـ أن يكون الكل مركباً تركيباً حقيقياً.

ب ـ أن يستلزم انتفاء الجزء انتفاء الكل عُرفاً؛ كما في إطلاق الرقبة أو الرأس على الإنسان دون إطلاق الظفر أو الأذن مثلاً، أو أن يكون زائد الاختصاص بالمعنى المطلوب من الكل كما في إطلاق اليد على المعطى والعين على الربيئة، أو أن يكون أشرف أجزائه، كما في إطلاق القافية على القصيدة في قول معن بن أوس:

أعلمه الرِّماية كل يومٍ فلما اشتد ساعده رماني
وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافيةً هجاني

٥ ـ الملزومية: وهي كون الشيء يجب عند وجوده وجود شيء آخر، كما في إطلاق الشمس على الضوء في قولك: دخلت الشمس من الكُوَّة، والقرينة على ذلك: دخلت.

٦ ـ اللازمية: وهي كون الشيء يلزم وجوده عند وجود شيء آخر، كما في إطلاق الحرارة على النار، وإطلاق الضوء على الشمس في قولك: انظر الحرارة، أي: النار، وطلع الضوء، أي: الشمس، والقرينة على ذلك: نظر وطلع.

٧ ـ اعتبار ما كان: وهو النظر إلى الشيء بما كان عليه في الزمن الماضي؛ نحو: شربت بُنّاً جيِّداً، تريد قهوة بُن، ونحو: مشيت اليوم في شارع بولاق، تريد شارع ٢٦ يوليو قبل تغيير الاسم، وعليه قوله تعالى: « وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ »، سمي الذين أمرنا بإيتائهم أموالهم حال البلوغ: يتامى، لما كانوا عليه من اليُتم، ونحوه: « إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمَاً »، سمَّاه مجُرماً باعتبار الدنيا؛ والقرينة على ذلك: شربت، واليوم، وآتوا، ويأت.

٨ ـ اعتبار ما سيكون: وهو النظر إلى الشيء مما سيكون عليه في الزمن المستقبل، نحو: غرست اليوم شجراً، وأنت تعني بذوراً، وطحنت خُبزاً، أي: قمحاً، وعليه قوله تعالى: « وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرَاً كَفَّارَاً »؛ أي: صائراً إلى الكفر والفجور، وقوله تعالى: « إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرَاً »؛ أي: عنباً يئول عصيره إلى الخمرية، والقرينة على ذلك حالية في الأولى ومقالية في الباقي، وهي: طحن؛ ويلد؛ وأعصر.

٩ ـ الحالية : وهي كون الشيء حالاً في غيره ؛ نحو : نزلت بالقوم فأكرموني ؛ أي : بدارهم ، وعلى ذلك قوله تعالى : « فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » أي : في الجنَّة التي هي محل الرحمة ، والقرينة : نزل ؛ و« هم فيها خالدون » .

١٠ ـ المحلية : وهي كون الشيء يحل فيه غيره ، نحو : انصرف الديوان ، أي : عُمَّاله ، وحكمت المحكمة ؛ أي : قُضاتها ، وأقرَّت المدرسة توزيع الجوائز على النابغين ؛ أي : ناظريها ، والقرينة على ذلك : انصرف ، وحكمت ، وأقرت .

وقوله تعالى : « فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ » ، أي : أهل النادي ، وقوله تعالى : « بِيَدِهِ الْمُلْكُ » ؛ أي : القُدرة ، وقوله تعالى : « لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا » ؛ أي : عقول ، وقوله تعالى : « يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ » ؛ أي : ألسنتهم ، والقرينة : انصرف ؛ وحكمت ؛ ويدعو ؛ وبيده ؛ ويفقهون ؛ ويقولون .

١١ ـ الآليَّة : وهي كون الشيء آلة لإيصال أثر شيء إلى آخر ، نحو : يتكلم فلان خمس ألسن ، أي : خمس لغات ، ونحو : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ » ، أي : بلُغة قومه .

وقوله تعالى : « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ » ؛ أي : ذكراً جميلاً ، والقرينة : يتكلم ، وأرسلنا ، واجعل .

١٢ ـ العموم : وهو كون الشيء شاملاً لكثيرين ، كقوله تعالى : « أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ » ؛ أي : محُمَّداً عليه السلام ، وقوله عَزَّ من قائل : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ » ؛ يعني نُعيم بن مسعود الأشجعي ، والقرينة على ذلك أن الحسد ما كان إلا له ، وأن القائل ما كان إلاَّ نُعيماً .

١٣ ـ الخصوص: كإطلاق اسم الشخص على القبيلة، نحو: ربيعة، ومضر، وقُريش، وتميم.

١٤ ـ البدليَّة: وهو كون الشيء بدلاً وعوضاً من شيء آخر، نحو: قضيت الدين في موعده، أي: أدَّيته، وفي ملك فلان ألف دينارٍ، أي: متاع يساوي ألفاً؛ ونحو: «إِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ»؛ أي: أدَّيتم، والقرينة: في موعده في الأول؛ وحالية في الثاني والثالث.

١٥ ـ المبدليَّة: أي كون الشيء مبدلاً من شيء آخر؛ نحو: أكلت دم القتيل؛ أي: ديته، كما قال عروة الرحَّال يخاطب امرأته متوعداً:

أكلت دماً إن لم أُرعك بضُرَّةٍ

بعيدة مهوى القُرط طيبة النشرِ

١٦ ـ المجاورة: وهي كون الشيء يجاور غيره، فيطلق عليه اسمه كإطلاق الراوية على القربة، والثياب على النفس في قول عنترة:

فشككت بالرمح الأصم ثيابهُ

ليس الكريم على القنا بِمُحرَّمِ

وقد تكون المجاورة في الذكر فقط، وتسمى المشاكلة؛ نحو: اطبخوا لي جُبَّةً وقميصاً.

١٧ ـ الدالية: وهي كون الشيء يدل على شيء آخر، نحو: فهمت الكتاب؛ أي: معناه، كما قال المتنبي:

فهمت الكتاب أبر الكُتُبْ   فسمعت لأمر أمير العربْ

١٨ ـ المدلوليَّـة : وهي كون الشيء مدلولاً لغيره ، نحو : قرأت معناه مشغوفاً بتقبيل ، تريد لفظه .

١٩ ـ إقامة صيغة مقام أخرى ، وتسمى هذه العلاقة بالتعلق الاشتقاقي ، ويندرج تحت هذا أنواع :

أ ـ إطلاق المصدر على اسم المفعول ؛ نحو : « وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ » أي : معلومه .

ب ـ إطلاق اسم المفعول على المصدر ، نحو : « بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ » ؛ أي : الفتنة .

جـ ـ إطلاق اسم الفاعل على المصدر ، نحو : « لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » ؛ أي : تكذيب ، أو على اسم المفعول ؛ نحو : « مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ » ، أي : مدفوق ، « لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ » ، أي : لا معصوم .

د ـ إطلاق اسم المفعول على اسم الفاعل ؛ نحو : « إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا » ، أي : آتياً ، « حِجَابًا مَسْتُوراً » ؛ أي : ساتراً .

ـ تنبيهات :

١ ـ ليس المقصود من العلاقة إلا بيان الارتباط ، فالفطن اللبيب يعرف ما يناسب كل مقام فيصح أن يعتبر في إطلاق الدال على المدلول علاقة المجاورة بأن يتخيل أن الدال مجاور للمدلول ، أو علاقة الحالية نظراً إلى أن الدال محل للمدلول ، كما يقولون : الألفاظ قوالب المعاني ، أو علاقة السببية والمسببية ، أو نحو ذلك ، بحسب ما يهدي إليه الذوق ، ويرشد إليه الوجدان الصادق .

٢ ـ قد يكون اللفظ الواحد صالحاً ؛ لأن يكون بالنظر إلى معنى واحد مجازاً مرسلاً واستعارة باعتبارين ، فإذا جاز مراعاة علاقتين أو أكثر فالمعول عليه هو ما لاحظه المتكلم ، فإن لم يعرف مقصده ، صح للمخاطب أن يعتبر ما يشاء ، ولكن بعد أن ينعم النظر ويرجح أكثرها قوة وأشدها ملاءمة للغرض ، ومن ثمة يرجح علاقة المشابهة على غيرها ، والمشابهة الحقيقية على الصورية ، فمثلاً : المشفر إذا أطلق على شفة الإنسان ، فإن لوحظ في إطلاقه عليها المشابهة في الغلظ ، فهي استعارة ، وإن لوحظ أنه من إطلاق اسم المقيد على المطلق كان مجازاً مرسلاً .

٣ ـ قسَّم الإمام عبد القاهر هذا المجاز إلى قسمين : خال من الفائدة ؛ ومفيد . فالخالي منها : ما استُعمل في شيء بقيد مع كونه موضوعاً في أصل اللغة لذلك الشيء بقيد آخر من غير قصد التشبي ؛ كالمرسن الذي أصله للحيوان ؛ والشفة التي أصلها للإنسان ، والجحفلة التي أصل وضعها للفرس ، إذا استعمل شيء منها في غير الجنس الذي وضعت له ، كقول العجَّاج :

وفاحما ومرسناً مُسرَجا

يريد أنفاً كالسراج .

وقول الآخر :

فبتنا جلوساً لدى مهرنا

نتزع من شفتيه الصفارا

أما المفيد : فما عدا هذا الضرب والاستعارة كما إذا قصد التشبيه في الأمثلة

الماضية، كقولهم في الذم: إنه لغليظ الجحافل وغليظ المشافر، فإنه بمنزلة أن يقال كأن شفتيه في الغلظ مشفر البعير.

وعليه قول الفرزدق:

فلو كنت ضبيّاً عرفت قرابتي

ولكنك زنجيٌّ غليظ المشافرِ

يريد: ولكنك زنجي، كأنه لا يسمو فكره إلى معرفة شرفي.

٤ ـ يلاحظ مما سبق أن اسم العلاقة يستفاد من وصف الكلمة التى تذكر في الجملة، فإن كانت الجزء جعلت العلاقة الجزئية، وإن كانت الكل جعلت الكلية، وهكذا.

.....

ـ أسرار البلاغة في المجاز المرسل:

المجاز المرسل: ضرب من التوسع فى أساليب اللغة، وفن من فنون الإيجاز في القول؛ انظر قوله:

كفى بالمرء عيباً أن تراهُ

له وجهٌ وليس له لسانُ

تراه قد سلك طريقاً أرشد بها السامعين إلى أن من فقد الفصاحة والبيان، فكأنه فقد اللسان جملة، وفي هذا من كمال المبالغة ما أنت تشعر به وتتذوقه.

وهكذا تشاهد مثل هذا الخيال الرائع إذا أنت تأملت قوله:

إذا نزل السماء بأرض قومٍ

رعيناه وإن كانوا غضابا

فإنك لتستبين منه أنه رعى الغيث، وكأن النبات كله ماء .

وفي هذا كبير دلالة على أن النبات لا يحيا بدون الماء، وعلى أن عليه حياة الحيوان على وجه الأرض، وأنه بدونه لا يعيش .

.....

ـ المبحث الخامس:

ـ في الاستعارة ومنزلها في البلاغة

قال الإمام في «أسرار البلاغة»:

اعلم أن الاستعارة أمد ميداناً وأشد افتناناً وأوسع سعةً وأبعد غوراً، وأذهب نجداً في الصناعة وغوراً؛ من أن تجمع شعبها وشعوبها وتحصر فنونها وضروبها، ومن خصائصها: أنها تعطيك الكثير من المعاني حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدُّرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها، إن شئت أرتك المعاني التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها الظنون .ا. هـ .

وللاستعارة إطلاقان:

١ ـ المعنى المصدري: وهو فعل المتكلم، أعني استعمال لفظ المشبه به في المشبه بقرينة صارفة عن الحقيقة .

وأركانها بهذا المعنى ثلاثة مستعار وهو اللفظ ، ومستعار منه وهو المشبه به ، ومستعار له وهو المشبه .

٢ ـ المعنى الاسمي : وهو اللفظ المستعمل في غير المعنى الموضوع له لمناسبة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرينة تصرف عن إرادة المعنى الأصلي ، كقولك : رأيت أسداً ، تعني رَجُلاً شُجاعاً ، وبحراً : تريد جواداً ، وشمساً : تريد إنساناً مضيء الوجه مُتهلِّلاً ، وسللت سيفاً على العدو : تقصد رَجُلاً ماضياً في نصرتك .

فأنت بهذا قد استعرت اسم الأسد للرجل الشجاع ، فأفدت بهذه الاستعارة المبالغة في وصفه بالشجاعة وإيقاعك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وشدته ، إلى غير ذلك من المعاني المركوزة في طبيعته الدالة على الجرأة ، وأفدت باستعارة البحر له سعته في الجود وفيض الكف ، وباستعارة الشمس له إعطائه ما لها من البهاء الحسن الذي يبهر العيون ويملأ النواظر ، وباستعارة السيف له إعطائه ما له من الحدة والمضاء .

وهي تشبيه حذف أحد طرفيه وأداته ووجه الشبه ، لكنها أبلغ منه ؛ لأننا مهما بالغنا في التشبيه فلابُدَّ من ذكر الطرفين ، وهذا اعتراف بتباينهما ، وأن العلاقة بينهما ليست إلا التشابه والتداني فلا تصل حد الاتحاد ، إذ جعلك لكل منهما اسماً يمتاز به دليل على عدم امتزاجهما واتحادهما ، بخلاف الاستعارة فإن فيها دعوى الاتحاد والامتزاج ، وأن الشبه والمشبه به صار شيئاً واحداً يصدق عليهما لفظ واحد ، فإن قلت : رأيت بحراً يعطي البائس والمحتاج ،

كنت قد جعلت الجواد والبحر شيئاً واحداً حتى صح أن تسمي أحدهما باسم الآخر، ولولا ما أقمت من الدليل « القرينة » على ما تريد، لما خطر ببال المخاطب غير البحر الذي تعورف بهذا الاسم .

ومن قبل هذا اشترط فيها تناسي التشبيه وادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به، فلا يذكر وجه الشبه، ولا أداته، لا لفظاً ولا تقديراً، كما لا يجمع فيها بين الطرفين على وجه ينبئ عن التشبيه بأن يكون المشبه به خبراً عن المشبه في حكم الخبر؛ كما في بابي كان، وإن المفعول الثاني في باب ظن، أوحالاً، أو صفة، أو مضافاً كلجين الماء، أو مصدراً مبيناً لنوعه .

أو مبيناً بالمشبة صريحاً أو ضمناً؛ كقوله تعالى: « حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ »؛ فقد بين الخيط الأبيض بالفجر صريحاً، وفي ضمنه تبيين الخيط الأسود بالليل، فكل هذا تشبيه محذوف الأداة .

قال الإمام عبد القاهر في بيان هذا:

إذا دلَّت القرينة على تشبيه شيء، فهذا على ضربين:

١ ـ أحدهما أن يسقط ذكر المشبه من البين حتى لا يعلم من ظاهر الحال أنك أردته، كقولك: عنت لنا ظبية، وأنت تريد امرأة، ووردنا بحراً، وأنت تريد الممدوح، وهذا تقول: إنه استعارة؛ ولا تتحاشى البتة .

٢ ـ أن يكون المشبه مذكوراً أو مُقدَّراً، وحينئذٍ فالمشبه به إن كان خبراً أو في حكم الخبر، فالوجه أن يسمى تشبيهاً ولا يسمى استعارة؛ لأن الاسم إذا

وقع هذه الموقع كان الكلام موضوعاً لإثبات معناه لما يعتمد عليه، أو نفيه عنه؛ فإذا قلت: زيد أسد، فقد وضعت كلامك في الظاهر لإثبات معنى الأسد لزيد، وإذا امتنع إثبات ذلك له على الحقيقة كان لإثبات شبه من الأسد له، فيكون اجتلابه لإثبات التشبيه، فيكون خليقاً بأن يسمى تشبيهاً إذا كان إنما جاء ليفيده، بخلاف الحالة الأولى، فإن الاسم فيها لم يجتلب لإثبات معناه للشيء، كما إذا قلت: جاءني أسد، ورأيت أسداً، فإن الكلام في ذلك موضوع لإثبات المجيء واقعاً من الأسد؛ والرؤية واقعاً منك عليه لا لإثبات معنى الأسد لشيء، فلم يكن ذكر المشبه به لإثبات التشبيه؛ وصار قصد التشبيه مكنوناً في الضمير لا يعلم إلا بعد الرجوع إلى شيء من النظر والتأمّل.

« إذا افترقت الصورتان هذا الافتراق ناسب أن يفرق بينهما في الاصطلاح والعبارة بأن نسمي إحداهما تشبيها، والأخرى استعارة.».

ثم قال:

فإن أبيت إلا أن تطلق اسم الاستعارة على هذا القسم، فإن حسن دخول أدوات التشبيه لا يحسن إطلاقه، وذلك كأن يكون المشبه به معرفة؛ كقولك: زيد الأسد، فإنه يحسن أن يقال: زيد كالأسد، وإن حسن دخول بعضها دون بعض هان الخطب في إطلاقه، وذلك كأن يكون نكرة غير موصوفة؛ كقولك: زيد أسد، فإنه لا يحسن أن يقال: زيد كأسد، ويحسن أن يقال: كأن زيد أسداً، ووجدته أسداً، وإن لم يحسن دون شيء منها إلا بتغيير صورة

الكلام كان إطلاقه أقرب لغموض تقدير أداة التشبيه فيه، وذلك بأن يكون نكرة موصوفة بما لا يلائم المشبه به ؛ كقولك : هو بدر يسكن الأرض، وهو شمس لا تغيب، وكقوله :

شمس تألق والفراق غروبها

عنا وبدرٌ والصدود كسوفهُ

فإنه لا يحسن دخول الكاف ونحوه في شيء من هذه الأمثلة إلا بتغيير صورته ؛ كقولك : هو كالبدر إلا أنه يسكن الأرض، وكالشمس إلا أنه لا تغيب، وكالشمس المتألقة إلا أن الفراق غروبها، وكالبدر إلا أن الصدود كسوفه .

انتهى بتصرف واختصار كثير.

والتشبيه الذي يجب تناسيه هو الذي من أجله وقعت الاستعارة لا كل تشبيه ؛ فليس بمحظور أن تقول : رأيت أسداً في الحمام مثل الفيل في الضخامة، ولا : جاورت ليثاً كأنه بحر متلاطم الأمواج .

ومن اشتراط ادعاء دخول المشبه في المشبه به يتضح لك أن لابد أن يكون المشبه به كُليّاً كاسم الجنس وعلم الجنس، فلا تتأتى الاستعارة في الأعلام الشخصية لعدم تصور الشركة فيها حتى يمكن ادعاء دخول شيء في حقائقها إلا إذا تضمنت أوصافاً بها يصح أن تعتبر كأنها أجناس ؛ كتضمن حاتم الجود ومادر البخل، وقُس الفصاحة وباقل العي والفكاهة، فتقول : رأيت اليوم حاتماً أو قُسّاً، وتدعي كلية حاتم، أو قس، ودخول المشبه في جنس الجواد

والفصيح، حتى كأن حاتماً موضوع لمن اتصف بالجود سواء أكان هو ذلك الطائي المشهور أم غيره، وإن كان إطلاقه على الطائي حقيقة وعلى غيره ادعاء، وكذا القول في قُس، وكل ما كان من هذا الضرب فسبيله هذه السبيل .

.....

ـ المبحث السادس:

ـ في الاستعارة: أمجازٌ لُغويٌّ هي أم مجازٌ عقليٌّ

يرى الجمهور أن الاستعارة مجاز لغوي؛ وأيّده الإمام في « أسرار البلاغة »، وحُجتهم على ذلك أنا إذا أجرينا اسم الأسد على الرجل الشجاع، فإننا لا ندعي فيه صورة الأسد وشكله وعبالة عنقه ومخالبه ونحو ذلك من الأوصاف الظاهرة التي تبدو للعيون وتشاهد بالحواس، وإنما ندعي له ذلك من أجل اختصاصه بالشجاعة التي هي من أخص أوصاف الأسد وأمكنها .
ومن الجليِّ الواضح أن اللغة لم تضع الاسم لها وحدها، بل لها في مثل تلك الجثة وهاتيك الصورة والهيئة، ولو كانت وضعته للشجاعة وحدها لكان صفةً لا اسماً، ولكان كل شيء يبلغ في شجاعته إلى هذا الحد جديراً بهذا الاسم على جهة الحقيقة، لا على طريق التشبيه والتأويل .
ويرى آخرون أنها مجاز عقلي بمعنى: أن التصرف فيها في أمر عقلي لا لغوي؛ واختاره الإمام في « دلائل الإعجاز »؛ ودليلهم على ذلك أنها لا تطلق على المشبه إلا بعد ادعاء دخوله في جنس المشبه به؛ لأن نقل الاسم

وحده لو كان استعارة لكانت الأعلام المنقولة كيزيد ويشكر تستحق هذا الاسم، ولما كانت الاستعارة أبلغ من الحقيقة؛ لأنه لا بلاغه في إطلاق الاسم المُجرَّد عارياً عن معناه .

وإذا كان نقل الاسم تبعاً لنقل المعنى؛ كان مُستعملاً فيما وضع له، ومن ثم صحَّ التعجُّب في قول ابن العميد يصف غلاماً له جميلاً :

قامت تُظللني من الشمسِ
نفسٌ أعزُّ عليَّ من نفسي
قامت تظللني ومن عجبٍ
شمس تظللني من الشمسِ

كما صحَّ النهي عنه في قول الحسن بن طباطبا :

يا من حكى الماء فرط رِقَّتهِ
وقلبه في قساوة الحجرِ
يا ليت حظي كحظ ثوبك من
جسمك يا واحداً من البشرِ
لا تعجبوا من بلى غلالتهِ
قد زرَّ أزراره على القمرِ

فلولا أن ابن العميد ادعى لغلامه معنى الشمس الحقيقي لما كان لهذا التعجب وجه، إذ ليس ببدع ولا منكر أن يظلل إنسان حسن الوجه إنساناً ويقيه وهج الشمس بشخصه، ولولا أن أبا الحسن جعل صاحبه قمراً حقيقياً

لما كان للنهي عن التعجب معنى ؛ لأن الكتان إنما يسرع إليه البلى حين يلابس القمر الحقيقي لا إنساناً بلغ الغاية في الحُسن .

وأنت إذا أنعمت النظر رأيت حُجَّة الجمهور دامغة وأنها أحرى بالقبول ، بيان هذا : أن ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به لا يخرجه عن كونه مستعملاً في غير ما وضع له ، وأما صحة التعجب والنهي عنه فلبناء الاستعارة على تناسي التشبيه ، وادعاء أن المشبه به عين المشبه حتى تتم المبالغة ، إذ من الواضح أن أسداً في قولك : رأيت أسداً ، مستعملٌ في الشجاع ، والمعنى الموضوع له الأسد الحقيقي لا الادعائي ، فكأنك ادعيت أن للأسد صورتين ، إحداهما متعارفة ، وهي التي لها الإقدام والبطش في الهيئة المعروفة للحيوان المعروف ، وثانيتهما غير متعارفة ، وهي التي لها الجرأة والقوة ، لكن لا مع تلك الصورة ، بل مع صورة أخرى على النحو الذي ادعاه المتنبي في عد نفسه وجماعته من جنس الجن ، وعد جماله من جنس الطير حين يقول :

نحن ركبٌ من الجنِّ في زي ناسٍ
فوق طيرٍ لها شخوص الجمالِ

مستشهداً لدعواه بما يتخيل عُرفاً من نحو حكمهم إذا رأوا إنساناً لا يقاومه أحد أنه ليس بإنسان ، وإنما هو أسد ، أو هو أسد في صورة إنسان .

والقرينة التي تنصب في الكلام تنفي المتعارف الذي يسبق إلى الفهم ، وهو المعنى الأول ، وتعين ما أنت تستعمل له الأسد ، وهو ثاني المعنيين .

ـ تنبيه :

ـ الفرق بين الاستعارة والكذب من وجهين :

أ ـ بناء الدعوى فيها على التأويل ؛ أي : تأويل دخول المشبه في جنس المشبه به .

ب ـ نصب القرينة على أن المراد بها خلاف ظاهرها ، أما الكاذب فيتبرأ من التأويل ، ويركب كل صعب وذلول لترويج ما يدعيه وإيهام أن ليس الحق إلا ما يقول ؛ ولا ينصب دليلاً على خلاف ما يزعم ، وعلى هذا فليس ببدع أن تقع في كلام الله تعالى وكلام رسوله .

.....

ـ المبحث السابع :

في قرينة الاستعارة

الاستعارة نوع من المجاز ، فلابد لها من قرينة تفصح عن الغرض ، وترشد إلى المقصود ، ويمتنع معها إجراء الكلام على حقيقته .

وهي قسمان :

١ ـ حالية : تفهم من سياق الحديث .

نحو : رأيت قُسّاً يخطب .

٢ ـ مقالية : سوءا أكانت معنى واحداً .

نحو : يرمي بالسهام ، من قولك : لرأيت أسداً يرمي بالسهام .

أو أكثر .

نحو :

فإن تعافوا العدل والإيمانا

فإن في إيماننا نيرانا

فكُلٌّ من العدل والإيمان باعتبار تعلق الإعاقة به قرينة على أن الغرض من النيران السيوف ، إذ هو دليل على أن جواب الشرط محذوف ، يقدر بنحو : تحاربون أو تلجئون إلى الطاعة .

أو معاني ملتئمة ، مربوطاً بعضها ببعض ، بحيث تكون كلها قرينة ، لا كل واحد منها ، كما في قول البحتري :

وصاعقةٌ من نصله تنكفي بها

على أرؤس الأقران خمس سحائبُ

فإذا نظرت إلى ما صنع : رأيته قد استعار السحائب الخمس لأنامل يمين الممدوح كما هي عادتهم في تشبيه الجواد بالبحر الخضم طوراً ، وبالسحاب الهطّال طوراً آخر ، وتخيل لما أراد « فذكر أن هناك صاعقة ؛ وبيّن أنها من نصل سيفه » ، ثم قال إنها على رُءوس الأقران تفتك بهم ، ثم قال : خمس ، وهي عدد أنامل اليد ، فاستبان للسامع من كل هذا غرضه ، واتضح له مقصده .

.....

- المبحث الثامن:

- في انقسام الاستعارة إلى عنادية ووفاقية

تنقسم الاستعارة باعتبار الطرفين إلى قسمين:

١ - وفاقية: وهي التي يمكن اجتماع طرفيها المستعار منه والمستعار له في شيء واحد، وسميت بذلك لما بين طرفيها من الوفاق.

٢ - عنادية: وهي التي لا يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد، وسميت بذلك لتعاند الطرفين، وقد اجتمعتا في قوله تعالى: « أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ »؛ أي: من كان ضالاً فهديناه، استعير الإحياء من معناه الحقيقي: وهو جعل الشيء حيّاً للهداية التي هي الدالّة على الطريق الموصل إلى المطلوب، والإحياء والهداية مما يمكن اجتماعهما إذ لا يوصف الميِّت بالضلال.

ومن العنادية الاستعارة التهكمية والتمليحية، وهما ما نزل فيهما التضاد منزلة التناسب لأجل التهكم والاستهزاء، أو لأجل الملاحة والظرافة، نحو: « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »؛ استعيرت للبشارة، وهي الخبر بما يسر للإنذار الذي هو ضدها بإدخاله في جنس البشارة هزؤ وسخرية بهم، ونظيره كلمة « نعاتبه » في قول بشّار:

إذا الملك الجبّار صعّر خدهُ

أتينا إليه بالسيوف نُعاتبهْ

والتحية في قول عمرو بن معد يكرب:

تحية بينهم ضربٌ وجيعُ

والثواب في قولهم: ما ثوابه إلا السيف .

ومنها أيضاً استعارة اسم الموجود للمعدوم الذي بقيت آثاره الجميلة أو المعدوم أو لا شيء للموجود، إذا لم تنتج منه فائدة، ولم يحل منه بطائل من قِبَلٍ أنه شارك المعدوم في عدم غنائه ونفعه؛ كما قال أبو تمام:

هب من له يريد حجابه

ما بال لا شيء عليه حجاب

.....

ـ المبحث التاسع:

في انقسامها باعتبار الجامع إلى داخل وخارج

تنقسم الاستعارة باعتبار الجامع؛ وهو الوجه الذي يقصد اشتراك الطرفين فيه إلى قسمين:

١ ـ ما يكون الجامع فيها داخلاً في مفهوم الطرفين؛ كاستعارة النثر لإسقاط المنهزمين وتفريقهم في قول أبي الطيِّب:

نثرتهم فوق الأحيدب نثرةً

كما نثرت فوق العروس الدراهمُ

إذ النثر أن تجمع أشياء في كف أو وعاء، ثم يقع فعل تتفرق معه دفعة من غير ترتيب ولا نظام، وقد استعاره لما يتضمنه ذلك التفرق على الوجه المخصوص؛ وهو ما اتفق من تساقط المنهزمين في الحرب دفعة بلا ترتيب ولا

نظام، ونسبه إلى الممدوح؛ لأنه سببه .

٢ـ ما لا يكون داخلاً في مفهومها، كقولك: وردت بحراً يتهلل وجهه، وأنت تريد إنساناً جواداً، فالجامع، وهو الجود، غير داخل في مفهومها .

.....

ـ المبحث العاشر:

ـ في انقسامها باعتبار الجامع أيضا إلى عاميَّةٍ وخاصيَّةٍ

تنقسم الاستعارة باعتبار الجامع إلى:

١ ـ عامية مبتذلة لاكتها الألسن لظهور الجامع فيها، كقولك: رأيت شمساً ووردت بحراً، وأنت تعني إنساناً جميل المُحيَّا وجواداً كريماً .

٢ ـ خاصية غريبة؛ وهي التي لا يظفر بها إلا من ارتفع عن طبقة العامة، كقول طُفيل الغنويِّ:

وجعلت كوري فوق ناجيةٍ

يقتات شحم سنامها الرَّحلُ

انظر تر عجباً !! ؛ألا تراه قد استعار الاقتيات لإذهاب الرحل شحم السنام، وساعده التوفيق فيما عناه من قبل أن كان الشحم مما يصلح للقوت، وأن الرحل أبداً ينتقص منه ويذيبه ؟!!

والغرابة على ضروب؛ منها:

١ ـ أن تكون في الشبه نفسه، كما في قول يزيد بن مسلمة بن عبد الملك يصف فرساً له بالأدب:

عـوّدته فيمـا أزور حبائي
إهمـاله وكذاك كل مُخاطِرِ
وإذا احتبى قربوسه بعنانهِ
علك الشكيم إلى انصراف الزائرِ

فقد شبه هيئة وقوع العنان في موقعه من قربوس السرج ممتداً إلى جانبي فم الفرس بهيئة وقوع الثوب في موقعه من ركبتي المحتبي ممتداً إلى جانبي ظهره، ثم استعار الاحتباء وهو جمع الرجل ظهره وساقيه بثوب أو غيره لوقوع العنان في قربوس السرج، فجاءت الاستعارة غريبة كما ترى لغرابة الشبه.

٢ ـ أن تحصل بتصرف الاستعارة العامية، كقول ابن المعتز:

سألـت عليـه شعـاب الحيِّ حين دعـا
أنصاره بـوجـوهٍ كـالـدنانيـرِ

فهذا تشبيه معروف، لكنه تصرف فيـه بـأن أسـند الفعـل إلى الـشعاب دون وجوههم، وعدّى الفعل إلى ضمير الممدوح بعلى، فأفاد اللطف والغرابة من حيث أبان أن الشعاب امتلأت من الرجال وغصّت بها من كان ناحية وجانب.

٣ ـ أن تحصل بالجمع بين عدة استعارات لإلحاق الشكل بالشكل، كقول امرئ القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبهِ
وأردف أعجازاً وناء بكلكلِ

فقد أراد وصف الليل بالطول، فاستعار له اسم الصلب وجعله متمطياً لما هو مشاهد من أن كل ذي صلب يزيد طوله شيئاً ما عند التمطي، ثم ثنى واستعار الأعجاز لثله وبطء سيره، وبالغ في ذلك حتى جعل بعضها يردف بعضاً، ثم ثلث فاستعار الكلكل لمعظم الليل ووسطه آخذاً له من كلكل البعير، وهو ما يعتمد عليه إذا برك، وزاده مبالغة بأن جعله ينوء ويثقل؛ لما في الليل من التعب والنصب على كل قلب ساهر، وبذا تم له ما أراد من تصوير الليل بصورة البعير على أبلغ وجهٍ وأدقه .

.....

ـ المبحث الحادي عشر:

ـ في انقسامها باعتبار الطرفين والجامع

تنقسم الاستعارة باعتبار الطرفين والجامع إلى ستة أقسام:

١ ـ استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي .

نحو: «وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ» .

استُعير الموجان؛ وهو حركة الماء للاضطراب والاختلاط الناشئين عن الحيرة والجامع بينهما الحركة الشديدة والاضطراب .

٢ ـ استعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلي .

نحو:

« وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ » .

فالمستعار منه كشط الجلد وإزالته عن الشاة ونحوها، والمستعار له إزالة الضوء عن ظلمة الليل وملقى ظله ؛ وهما حسيان، والجامع بينهما ما يعقل من ترتب أمر على آخر ؛ كترتب ظهور اللحم على كشط الجلد وإزالته ؛ وترتب ظهور الظلمة على كشف الضوء عن مكان الليل .

وهذا الترتب أمر عقلي.

٣ ـ استعارة محسوس لمحسوس ؛ والجامع مختلف بعضه حسي وبعضه عقلي، كما تقول : رأيت شمساً، وأنت تريد إنساناً كالشمس في حُسن الطلعة، وهو حسي، ونباهة الشأن ورفعة القدر، وهي عقلية .

٤ ـ استعارة معقول لمعقول .

نحو:

«مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » .

استعير الرقاد وهو النوم للموت، والجامع عدم ظهور الفعل، والجميع عقلي .

ونظيره :

«تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ »، فقد استعير الغيظ للحالة المتوهمة للنار، لإرادة الانتقام من العُصاة .

٥ ـ استعارة محسوس لمعقول .

نحو:

« فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » .

فقد استعير صدع الزجاجة ، وهو كسرها ، وهذا حسي ؛ لتبليغ الرسالة بجامع التأثير، وهما عقليان .

ونحوه :

« فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » ؛ فقد استعير النبذ ، وهو إلقاء الشيء باليد للأمر المتناسي حاله ، والجامع عدم العناية فيهما .

٦ ـ استعارة معقول لمحسوس .

نحو:

« إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ » .

فقد استعير الطغيان ، وهو التكبر والعلو لظهور الماء وكثرته ، والجامع الخروج عن حد الاعتدال والاستعلاء المفرط ، فالمستعار منه والجامع عقليان .

.....

ـ المبحث الثاني عشر:

ـ في تقسيم الاستعارة إلى مُصرَّحة ومكنيَّة

تنقسم الاستعارة باعتبار ذكر المشبه به أو ذكر ما يخصه إلى قسمين :

١ ـ مصرحة أو مصرح بها أو تصريحية : وهي ما صرح فيها بلفظ المشبه به .

كقول شوقي:

دقّات قلب المرء قائلةٌ لهُ

إنَّ الحياة دقائقٌ وثوان

شبهت الدلالة بالقول بجامع إيضاح المراد وإفهام الغرض في كل منهما ؛ واستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ، واشتق من القول بمعنى الدلالة قائل بمعنى دال على طريق الاستعارة التصريحية ، والقرينة نسبة القول إلى الدقّات .

ونظيره قول الوأواء الدمشقي :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت
ورداً وعضّت على العنّاب بالبردِ

شبه الدموع باللؤلؤ ، والعيون بالنرجس ، والخدود بالورد ، والأنامل بالعناب ، والأسنان بالبرد .

وقول الحريري :

فزحزحت شفقاً غشّى سنا قمرٍ
وتساقطت لؤلؤاً من خاتم عطرِ

٢ ـ مكنية : وهي ما حذف فيها المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه .

نحو :

« وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ » .

شبه الذُّل بطائر بجامع الخضوع واستعير الطائر للذل ، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الجناح ، على طريق الاستعارة بالكناية ، وإثبات الجناح للذل استعارة تخييلية ، وهي قرينة المكنية ، ويجعل الطائر مستعاراً للمخاطب ؛ أي : للولد في معاملة والديه ؛ والأصل : واخفض لهما جناحك

ذُلاً .

ونحوه قوله تعالى:

« وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

وقول الكُميت:

خفضت لهم مني جناحي

إلى كنف عطفاه أهلٌ ومرحبُ

ونحو:

« يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ » .

قال في « الكشّاف »:

ساغ استعمال النقض في إبطال العهد من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من إثبات الوصلة بين المتعاهدين، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها: أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ثم يرموزا إليه بذكر شيء من روادفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه .

ونحوه قولك: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس؛ فقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر . ا . هـ .

ـ تنبيه:

علمت أن إثبات اللازم كالجناح للذل أو للمخاطب بلين الجانب للوالدين، والمأمور أن يذل لهما، وإثبات النقض للعهد يسمى استعارة تخييلية، وهي قرينة الاستعارة المكنية، وسمي ذلك الإثبات استعارة لأجل أن متعلقه وهو

الأمر المختص بالمشبه به قد استعير ونقل عما يناسبه، واستعمل مع ما شبه بأصله، وتخيليه لأن متعلقه وهو الأمر المختص بالمشبه به لما نقل عن ملائمه وأثبت للمشبه، صار يخيل إلى السامع أن المشبه من جنس المشبه به .

وهو حقيقة لاستعماله فيما وضع له، ألا ترى أن الجناح استعمل في حقيقته؛ وإنما التجوز في إثباته؛ فهو مجاز عقلي في الإثبات؛ لا مجاز لغوي؛ وهكذا يقال في نظائره .

ومن حيث إنها قرينة المكنية، فهي لازمة لها، لا تفارقها، إذ لا استعارة بدون قرينة، هذا إذا كان لازم المشبه به واحداً، فإن تعددت اللوازم جعل أقوالها وأبينها لزوماً قرينة لها، وما عداه ترشيحاً وتقويةً لها .

.....

ـ المبحث الثالث عشر:

في مذهب السكاكي والخطيب القزوينيٌّ في المكنيَّة

مذهب السكاكي أن المكنية لفظ المشبه المستعمل في المشبه به بادعاء أن المشبه عين المشبه به، وإنكار أن يكون غيره بقرينة ذكر اللازم، فالذل عنده في المثال السابق مراد به الطائر بادعاء أنه عينه بقرينة إضافة الجناح الذي هو من خواص الطائر ولوازمه إليه، وليس المراد من الذل عنده مجرد الخضوع حتى يكون مستعملاً في معناه الحقيقي، بل الذل المفروض أنه عين الطائر، وهو غير الموضوع له .

والجناح استعارة تخيلية بمعنى أن لفظ الجناح استعير عنده لأمر تخيلي

وهمي ؛ لأنه لما استعمل الذل في الخضوع المتحد مع الطائر ادعاء، أخذ الوهم يخترع له صورة مثل صورة الجناح، واستعار لفظ الجناح لذلك، ولا يخفى ما في هذا من التعسف .

وذهب الخطيب إلى أنها التشبيه المضمر في النفس والإثبات تخييل، فأخرجها من المجاز، أعني الكلمة المستعملة، إلخ ؛ إذ التشبيه فعل من أفعال النفس، فكل من الجناح والذل مستعمل في معناه الحقيقي عنده .

وقال سعد الدين التفتازاني : وتفسير الاستعارة بذلك لا مستند له في كلام السلف ؛ ولا هو مبني على مناسبة لغوية .

.....

ـ المبحث الرَّابع عشر:

ـ في تقسيم الاستعارة التصريحة لدى السكاكي إلى تحقيقية وتخييلية ومحتملة لهما

تنقسم الاستعارة المصرحة عند السكاكي إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ تحقيقية : وهي ما كان المستعار له فيها محققاً حسًّا أو عقلاً بأن كان اللفظ منقولاً إلى أمر معلوم يمكن الإشارة إليه إشارة حسية أو عقلية، فالأولى كقول زهير في معلقته يمدح حصين بن ضمضم :

لدى أسدٍ شاكي السِّلاح مُقذّفٌ له لبدٌ أظافره لم تُقلمِ

والثاني نحو:

« اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »

فقد استعير في الأول الأسد للرجل الشجاع؛ وهو محقق حساً، وفي الثاني الصراط لملّة الإسلام، وهي محققة عقلاً .

٢ ـ تخييلية: وهي ما كان المستعار له فيها غير محقق لا حسّاً ولا عقلاً؛ بل هو صورة وهمية محصنة لا يشوبها شيء من التحقيق؛ نحو قول الهذلي:

وإذا المنية أنشبت أظفارها

ألفيت كل تميمةٍ لا تنفعُ

فإنه لما شبه المنية بالسبع في الاغتيال أخذ الوهم يصور المنية بصورة السبع ويخترع لوازمه لها فاخترع لها مثل صورة الأظفار، ثم أطلق على هذه الصورة لفظ الأظفار، فتكون الأظفار عنده تصريحية تخييلية؛ لأن المستعار له الأظفار صورة وهمية شبيهة بصورة الأظفار الحقيقية، وقرينتها إضافتها إلى المنية، والتخييلية عنده قد تكون بدون استعارة بالكناية كقولك: أظفار المنية الشبيهة بالسبع قتلت فلاناً، فقد صرح بالتشبيه فلا مكنية في المنية مع كون الاستعارة في الاستعارة تخييلية .

٣ ـ محتملة للتحقيقية والتخييلية:

كقول زهير:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله

وعُرِّيَ أفراس الصبا ورواحله

الصحو خلاف السكر استعاره للسلو استعارة تصريحية تبعية ، وأقصر باطله ؛ أي : أقلع عنه وامتنع والمراد انتهى ميله ، والتعرية الإزالة ؛ يريد أنه ترك ما كان يرتكبه زمن الحب من الجهل والغي وأعرض عن معاودة ما كان منصرف إليه من اللهو فبطلت الآلات التي كان يستعملها .

فقد شبه الصبا بجهة من جهات المسير كالحج والتجارة ، قضى منها حاجاته ، فبطلت آلاته تشبيهاً مضمراً في النفس واستعارة الجهة للصبا وحذفها ورمز إليها بشيء من لوازمها وهي الأفراس والرواحل ، فالجهة هي المكنية عند الجمهور ، وإثبات الأفراس والرواحل لها تخييلية ، والأفراس والرواحل مستعملان في حقيقتهما عندهم أيضاً ، أما عند السكاكي فيجوز أن تكون الأفراس والرواحل استعارة تحقيقية إن أراد بها دواعي النفس وشهواتها والقوى الحاصلة لها في استيفاء اللذات ، أو أُريد بها أسباب اتباع الغي من المال والأعوان لتحقق معناها عقلاً إن أريد منها الدواعي ، أو حسّاً إن أريد منها الأسباب ، وعلى هذا فالمراد بالصبا زمان الشباب ، ويجوز أن تكون تخييلية إن جعلت الأفراس والرواحل مستعارة لأمر وهمي تخيل للصبا من الصبوة وهو الميل إلى الجهل والفتوة .

.....

ـ المبحث الخامس عشر :

ـ في انقسامها إلى أصليَّة وتبعيَّة

تنقسم الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار قسمين :

١ ـ أصلية : وهي ما يكون اللفظ المستعار فيها اسم جنس ، وهو الذات الصالحة لأن تصدق على كثيرين ولو تأويلاً ؛ نحو : أسد ، وقتل ؛ إذا استعير للشجاع والضرب الشديد ، ونحو : حاتم ؛ وقُس ؛ من قولك : رأيت اليوم حاتماً ، وسمعت اليوم قُساً يخطب ، ومثلهما كل ما شاكلهما من الأعلام التي اشتهرت مسمياتها بوصفية .

وإجراء الاستعارة في مثل هذا أن يقال شبه الرجل الشجاع بالأسد بجامع الشجاعة في كل ، واستعير لفظ الأسد الشجاع على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، وشبه الرجل الكريم بحاتم بجامع الكرم في كل ، واستعير لفظ حاتم للكريم استعارة تصريحية أصلية .

٢ ـ تبعية : وهي ما يكون المستعار فيها :

١ـ فعلاً .

٢ ـ اسماً مُشتقاً .

٣ ـ حرفاً .

فالأول ، نحو : عضنا الدهر بنابه ، فقد وقعت المصائب بالعض بجامع الإيلام في كل ، واستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ، واشتق من العض بمعنى الإيلام عض بمعنى آلم على طريق الاستعارة التصريحية التبعية .

هذا إذا كان التجوز في الفعل باعتبار حدثه ، فإن كان باعتبار زمانه كان التغاير بين المصدرين باعتبار القيدين ، نحو : « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ » ، أي : ينادي فيقال شبه النداء في المستقبل بالنداء في الماضي بجامع تحقق وقوعها ،

ثم استعير لفظ النداء في الماضي للنداء في المستقبل، واشتق منه نادى بمعنى ينادي على طريق الاستعارة التصريحية التبعية .

والثاني، نحو: جليل عملك ناطق بفضلك، شبهت الدلالة بالنطق بجامع إفهام الغرض في كل، واستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه واشتق من النطق بمعنى الدلالة ناطق بمعنى دال على طريق الاستعارة التصريحية التبعيَّة .

ونحو: ((مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا))، فالمرقد مكان الرقاد استعير للقبر بجامع خفاء الأثر في كل، ثم اشتق من الرقاد بمعنى الموت مرقد بمعنى مكان الموت وهو القبر استعارة تصريحية تبعية .

والثالث، نحو: ((فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا))، فقد شبه ترتب العداوة والحزن على الالتقاط بترتب العلة الغائية عليه بجامع مطلق ترتب شيء على شيء فسرى التشبيه من الكليين للجزئيات التي هي معاني الحروف فاستعيرت اللام الموضوعة لكل جزئي من جزئيات العلة الغائية كالمحبة والتبني للام التي تدل على العداوة والحزن استعارة تصريحية تبعية، وإلى هذا يشير قول الزمخشري:

معنى التعليل في اللام وارد على طريق المجاز؛ لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدواً وحزناً ولكن المحبة والتبني، غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم وثمرته شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله .

ثم قال:

وهذه اللام حكمها حكم الأسد حيث استعيرت لما يشبه التعليل، كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد. ا. هـ.

ونحوه قوله عَزَّ اسمه: « وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ »، شبه مطلق استعلاء بمطلق ظرفية بجامع التمكُّن في كل، فسرى التشبيه من الكُليان للجزئيات التي هي معاني الحروف فاستعير لفظ « في » الموضوع لجزئي من جزئيات الظرفية لمعنى على الموضوع للاستعلاء على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومدار قرينة الاستعارة التبعية في الأفعال والصفات المشتقة منها على نسبتها إلى الفاعل، نحو: نطقت الحال بكذا، أو إلى المفعول الأول كقول ابن المعتز:

جمع الحق لنا في إمامٍ
قتل البُخل وأحيا السماحا

فالذي دلَّ على استعارة قتل وأحيا، إنما إسنادهما إلى البخل والسماح، إذ لو قال: قتل الأعداء وأحيا الأحياء، لم يكن هناك سبيل للاستعارة فيهما.

أو إلى المفعول الثاني، كقول القطامي:

لم تلق قوماً هم شرٌّ لإخوتهم
منَّا عشية يجري بالدم الوادي
نقريهمُ لهذميَّاتٍ نُقِدُّ بها
ما كان خاط عليهم كل زرَّادِ

فإسناد القرى إلى اللهذميات قرينة على أن نقريهم استعارة.

أو إلى المفعولين الأول والثاني، كقول الحريري:

وأقرى المسامع إما نطقت

بياناً يقود الحرون الشموسا

فإن تعلق أقوى بكل من المسامع والبيان دليل على أنه استعارة.

أو إلى المجرور، نحو: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

فذكر العذاب دليل على أن بشّر استعارة تبعية تهكمية.

.....

ـ تنبيهات:

ـ أولها: كما تكون المصرحة أصلية وتبعية تكون المكنية كذلك.

ـ ثانيها: إنما سميت الاستعارة في القسم الثاني تبعية؛ لأنها تبعية لاستعارة أخرى إذ هي في المشتقات تابعة لجريانها في المصدر أولاً، كما أن معاني الحروف جزئية لا تتصور الاستعارة فيها إلا بواسطة كلي مستقل بالمفهومية ليتأتى كونها مشبهاً ومشبهاً بها؛ فلابُدَّ من إجراء التشبيه أولاً في متعلق معاني الحروف، ثم تتبعها الاستعارة في المعاني الجزئية.

ـ ثالثها: قال السكاكي: لو لم يجعلوا في الفعل والحرف استعارة تبعية بل جعلوا في مدخولهما استعارة مكنية بقرينتهما كما فعلوا في: أنشبت المنية أظفارها، لكان أقرب للضبط.

.....

ـ المبحث السادس عشر:

ـ في تقسيمها إلى مرشحة ومُجُرَّدة ومُطلقة

تنقسم الاستعارة باعتبار اقترانها بما يلائم المستعار منه أو المستعار له أو عدم اقترانها بما يلائم أحدهما إلى ثلاثة أقسام: مرشحة؛ ومجردة؛ ومطلقة:

١ ـ فالمرشحة: هي التي تقترن بما يلائم المستعار منه، كما تقول: رأيت في الميدان أسداً دامي الأنياب طويل البراثن.

وكما قال كثير عزة:

رمتني بسهمٍ ريشه الكحل لم يضر
ظواهر جلدي وهو للقلب جارحُ

فقد استعار السهم للنظر بجامع التأثير في كل ثم رشح الاستعارة بذكر الريش الملائم للسهم.

وكما قال ابن هانئ المغربي:

وجنيتم ثم الوقائع يانعاً
بالنصر من ورق الحديد الأخضرِ

٢ ـ والمجردة: هي التي تقترن بما يلائم المستعار له، كما تقول: رأيت أسداً في حومة الوغى يجندل الأبطال بنصله ويشك الفرسان برمحه، وكما قال كثير يمدح عمر بن عبد العزيز:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً غلقت لضحكته رقاب المالِ

فقد استعار الرداء للمعروف ؛ لأنه يصون عرضه كما يصون الرداء ما يلقى عليه من مكروه والقرينة تتمة البيت ، ثم وصفه بالغمر الذي هو وصف للمعروف لا للرداء على سبيل التجريد .

٣ ـ والمطلقة : هي التي لم تقترن بصفة معنوية ولا تفريع يلائم أحد الطرفين ، والفرق بينهما أن الملائم إن كان من تتمة الكلام الذي فيه الاستعارة فهو الصفة ، كما في قوله : تبسَّم ضاحكاً ، وإن كان كلاماً مستقلاً جيء به بعد تمام الاستعارة وبني عليها فهو التفريع ، نحو : « فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ » ، بعد قوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى » .

ـ تنبيهات :

ـ أولها : أنه إذا اجتمع الترشيح والتجريد كانت الاستعارة في حكم المطلقة ، كقول زهير:

لدى أسدٍ شاكي السلاح مُقذَّف
له لبدٌ أظفاره لم تُقلم

فشاكي السلاح حاده تجريد ؛ لأنه يناسب المشبه وهو الشجاع ، والمقذف إن أريد به في الوقائع والحروب كان تجريداً أيضاً ، وإن أريد به المرمى باللحم كناية عن عظم الجثة والضخامة ، لم يكن لا تجريداً ولا ترشيحاً ؛ لأنه يلائم كُلاًّ منهما ، وله لبد وهي الشعر المتراكم بين كتفي الأسد ترشيح ، وكذلك أظفاره لم تقلم ؛ لأن الأسد الحقيقي هو الذي ليس من شأنه تقليم الأظفار ، والقرينة كلمة لدى ، أو القرينة حالية ، ولدى تجريد إذ التجريد أو الترشيح إنما

يكون بعد تمام الاستعارة بقرينتها، ولذا لا تسمى قرينة الاستعارة التصريحية تجريداً ولا قرينة المكنية ترشيحاً .

ـ ثانيها : الترشيح أبلغ وأقوى من الإطلاق والتجريد، لاشتماله على تقوية المبالغة وكمالها، فإن المحور الذي يدور عليه الترشيح إنما هو تناسي التشبيه وادعاء أن المشبه هو المشبه به نفسه، وكأن الاستعارة غير موجودة، ألا ترى أن الناثر أو الشاعر يجد في إنكارها، ويخيل إلى السامع أن الأمر على ما يقول حقيقة، ومن ثم وضع أبو تمام كلامه في علو المنزلة والرقي في خلال الشرف وضعه في علو المكان حين يقول:

ويصعد حتى يظن الجهول

بأن له حاجةً في السما

فلولا أنه قصد تناسي التشبيه وعقد العزيمة على جحده ولم يأل جهداً في إنكاره فجعله صاعداً في السماء حيث المسافة المكانية لما كان لهذا الكلام وجه .

ونحوه قول بشّار:

أتتني الشمس زائرةً

ولم تك تبرح الفلكا

وقول المتنبي:

كبُرت حول ديارهم لما بدت

منها الشموس وليس فيها المشرقُ

ولم أر قبلي من مشى البدر نحوهُ

ولا رَجُلاً قامت تعانقه الأُسدُ

ومن هذا ما سبق من التعجب والنهي عنه .

وإذا جاز البناء على المشبه به مع الاعتراف بالمشبه في نحو قول العباس بن الأحنف:

هي الشمس مسكنها في السماء

فعزِّ الفُؤاد عزاءً جميلا

فلن تستطيع إليها الصعودَ

ولن تستطيع إليك النزولا

فلأن يجوز مع جحده وإنكاره في الاستعارة أولى .

ـ ثالثها: المطلقة أبلغ من المجردة ؛ لأن التجريد يذكر بالتشبيه ، فيضعف دعوى الاتحاد:

.....

ـ المبحث السابع عشر:

ـ في حُسن الاستعارة وقُبحها

لا تحسن الاستعارة ولا تقع الموقع الملائم إلا إذا حازت الشروط الآتية:

١ ـ رعاية حُسن التشبيه، إذ هو أساسها الذي تبنى عليه، خلا أنه مما يستملح هنا قوة الشبه بين الطرفين بعكس باب التشبيه، ومن ثمة تحسن الاستعارة فيما يقوي فيه الشبه بينهما بحيث يصير الفرع كأنه الأصل، ولا يحسن التشبيه، ألا

ترى أن الرجل يقول إذا فهم مسئلة: حصل في قلبي نور، ولا يقول: كأن العلم الذي حصل في قلبي نور، ويقول لمن أوقعه في شبهة: أوقعتني في ظلمة، ولا يقول: كأن الشبهة التي أوقعتني فيها ظلمة.

٢ ـ غرابة وجه الشبه ولطفه وكثرة التفصيل فيه وبعده من الابتذال وعدم خفائه إلى الغاية حتى لا يكون تعميةً وألغازاً، ومن ثم لا يحسن استعارة الأسد لإنسان أبخر لخفاء وجه الشبه في مجرى العادة في مثل هذا.

٣ ـ ألا يشم منها رائحة التشبيه لفظاً، ومن ثم ضعفت الاستعارة في قوله:

قد زرَّ أزراره على القمرِ

٤ ـ بُعدها عن الحقيقة بترشيحها تقوية لدعوى الاتحاد فيها، ومن أجل هذا قدمت المرشحة على المطلقة والمجردة في اعتبار البلغاء، فإن خلت الاستعارة مما سبق ذكره انحطت رتبتها واستهجنت كقول أبي نواس:

بُحَّ صوت المال مما

منك يشكو ويصيح

يريد أن المال تظلَّم من إهانته إياه بتمزيقه بالعطايا، وهذا معنى حسن، لكن العبارة عنه قبيحة لا تروق في نظر البلغاء ويأباها ذوو الفطر السليمة.

وقوله أيضاً وهو أسخف من الأول:

ما لرجل المال أضحت

تشتكي منك الكلالا

فأين هذا من قول مسلم بن الوليد في هذا المعنى:

تظلم المال والأعداءُ من يدهِ

لا زال للمال والأعداء ظلاّما

وقول أبي تمام:

بلوناك أما كعب عرضك في العُلا

فعالٍ وأما خد مالك أسفلُ

مراده أن عرضك مصون ومالك مبتذل، لكنه قد ساقه مستكرهاً، وأخرجه مخرجاً مستهجناً.

وكقول بشّار:

وجذت رقاب الوصل أسياف هجرنا

وقدت لرجل البين نعلين من خدي

قال في «العُمدة»: فما أهجن رجل البين وأقبح استعارتها ولو كانت الفصاحة بأسرها فيها، وكذلك رقاب الوصل.

.....

ـ أسرار البلاغة في الاستعارة:

الاستعارة بجميع ضروبها وتعدد مذاهبها وشعوبها، أعلى مرتبة من التشبيه، وأقوى في المبالغة منه؛ لما فيها من تناسي التشبيه، وادعاء الاتحاد بين المشبه والمشبه به، كأنهما شيء واحد، يطلق عليهما لفظ واحد، انظر إلى قول المتنبي:

ترنو إليَّ بعين الظبي مُجْهشةً   وتمسح الطل فوق الورد بالعنمِ

تراه وقد تمثلت له محبوبته ظبية تنظر إليه وهي حيرى تمسح طلاً فوق خدها بأصابعها وهي كالعنم ليناً وحُمرةً، واختبأ عن عينيه مظهر التشبيه، وظهر له ذلك بمظهر الحقيقة، ورأيته وقد سما به الخيال فرأى الطل يسقط على الورد .

فهل يُؤدِّي التشبيه مثل هذا ؟!

وهل تصل فيه المبالغة إلى ما تصل إليه الاستعارة ؟!

فهبه قال : تمسح الدموع التي تشبه الطل والخدود التي هي كالورد والأصابع التي تشبه العنم ؛ أتراه يصل إلى مثل ما قال ؟!

إنك لتحس بأن هذا أدنى من المعنى المجازي وأقل منه مبالغة، فإن في التشبيه جمعاً بين المشبه والمشبه به، وهذا إقرار بأنهما متقاربان .

وتأمل قول أبي الحسن التهامي :

يا كوكباً ما كان أقصر عمره
وكذاك عمر كواكب الأسحارِ

يتبين لك فيه صورة النجوم وقد أفلت بعد طلوعها، وكواكب الأسحار وقد غادرت بعد ظهورها .

وقد استعمل العرب الاستعارة في كلامهم تقريباً للمعنى إلى ذهن السامع، واستثارة لخياله واختلاباً للُبِّه ؛ ليقنع بما يقال له ويلقي في روعه .

.....

- المبحث الثامن عشر:

- في المجاز المُركَّب

المجاز المركب: هو اللفظ المركب المستعمل قصداً وبالذات في غير المعنى الذي وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي .

فخرج بقولنا « قصداً »، و« بالذات » ما إذا تجوز بجزء من أجزاء المركب، فإنه قد استعمل مجموعة في غير ما وضع له، وليس ذلك مجازاً مركباً .

وهذا المجاز قسمان:

أ - ما كانت علاقته غير المشابهة وهو المجاز المرسل المركب، وهو أنواع :

١ - المركبات الخبرية المستعملة في المعاني الإنشائية، إما للتحسر وإظهار الحزن، نحو:

ذهب الشباب فما له من عودةٍ
وأتى المشيب فأين منه المهربُ

وإما للدعاء، نحو: وفقك الله، نـجَّح الله مقاصدنا .

إلى غير ذلك من المقاصد التي يستعمل فيها الخبر ويكون غير مراد به الفائدة ولا لازمها، والعلاقة في مثل هـذا اللازمية، إذ يلـزم مـن الأخبـار بـذهاب الشيء المحبوب كالشباب مثلاً التحسر عليه، وهكذا يقال في نظائره والقرينة حاليَّة .

٢ - المركبات الإنشائية المستعملة في المعاني الخبرية .

نحو قوله عليه السلام:

« من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ».

بمعنى يتبوأ، والعلاقة في نحو هذا السببية؛ لأن إنشاء المتكلم هذه الجملة سبب لإخباره بما تتضمنه.

قال العيني في شرح البخاري: فليتبوأ أمر من النبوء وهو اتخاذ المباءة والمنزل، وظاهره أمر ومعناه خبر.

٣ـ الجمل الإنشائية: فعلية كانت أو اسمية المأتي بها، لما يتولد منها من إنكار ونحوه، والعلاقة في نحو هذا المجاورة.

نحو: «أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً».

ب ـ ما كانت علاقته المشابهة بين الهيئة المستعار منه والهيئة المستعار لها بأن تشبه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين وأمور بالأخرى، ثم يدعي أن الصورة المشبهة من جنس الصورة المشبهة بها فيطلق على الصورة المشبهة اللفظ الدال بالمطابقة على الصورة المشبه بها مبالغة في التشبيه، كما كتب الوليد بن يزيد لما بويع بالخلافة إلى مروان بن محمد حينما بلغه توقفه في البيعة له:

أما بعد: فإني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد علي أيهما شئت؛ والسلام.

فقد شبهت صورة تردده في المبايعة بصورة تردد من قام ليذهب في أمر، فتارة يريد الذهاب فيقدم رجلاً وتارة لا يريد فيؤخرها مرة أخرى، وكما يقال لمن

يعمل فيما لا يجدي : أراك تنفخ في غير فحم ، وأراك تخط على الماء ، يراد أنه في عمله كمن يفعل ذلك .

وهذا القسم يسمى : استعارة تمثيلية ، واستعارة على سبيل التمثيل ، وتمثيلاً على سبيل الاستعارة ، أو تمثيلاً فقط ، ويمتاز عنها التشبيه المركب بأن يقال له : تشبيه تمثيل ؛ أو تشبيه تمثيلي .

وإذا اشتهرت الاستعارة التمثيلية وكثر استعمالها سميت مثلاً ولا يغير مطلقاً محافظة على الاستعارة فيخاطب به المفرد والمذكر وفروعهما بطريقة واحدة ؛ كقولهم : أحشفاء وسوء كيلة ، يضرب مثلاً لمن يظلم من جهتين ، وبيان الاستعارة في مثل هذا أن يقال : شبهت هيئة من يظلم من جهتين بهيئة رجل اشترى من آخر تمراً رديئاً وطفّف له المكيال بجامع الظلم من جهتين واستعير التركيب الموضوع للمشبه به للمشبه استعارة تمثيلية ، وهكذا يقال في سائر الأمثال النثرية والنظمية ؛ نحو : إن البغاث بأرضنا يستنسر ، ما يوم حليمة بسر .

وقولهم :

إذا قالت حذام فصدّقوها

فإن القول ما قالت حذامُ

ـ تنبيه :

هذه الاستعارة أبلغ أنواع المجاز مفرداً ومركباً ، إذ مبناها تشبيه التمثيل ، وقد عرفت دقّة مسلكه من قِبَلٍ أن وجه الشبه فيه يكون هيئة منتزعة من أشياء

متعددة، فالاستعارة المبنية عليه تكون أدق أنواع الاستعارات؛ إذ من الصعوبة بمكان أن تعمد إلى صورتين مركبتين من أجزاء عدة فتحاول الربط بينهما، وتحصر جهات اتحادهما وتشبه إحداهما بالأخرى فلا يخفى ما أنت محتاج إليه في المهارة حينئذ، كما لا ينكر الأثر الذي تراه في مخاطبك إذا أدليت إليه في معرض كلامك بمثل، فكم تجد لديه من الأريحية، وكيف يغني إيجاز المثل عن الشرح والإسهاب.

.....

ـ المبحث التاسع عشر:

ـ في المجاز بالحذف أو الزِّيادة

كما توصف الكلمة بالمجاز لنقلها عن معناها الأصلي، كما تقدم، كذلك توصف بالمجاز بطريق الاشتراك اللفظي إذا تغير حكم إعرابها الأصلي بواسطة حذف لفظ أو زيادته.

فالحذف كقوله تعالى: « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »، إذ الأصل أهل القرية، فالحُكم الذي يجب للقرية في الأصل هو الجر فحذف المضاف وأعطى المضاف إليه إعرابه، ونظيره « وجاء ربُّك »؛ أي: أمر ربك.

والحكم بالحذف يكون لأحد أمرين:

١ ـ لأمر يرجع إلى غرض المتكلم، نحو: سل القرية، ألا ترى أنك لو قرأته أو سمعته في غير التنزيل لم تقطع بأن هاهنا محذوفاً، إذ من المحتمل أن يكون كلام رجل مر على قرية خربت وباد أهلها، فأراد أن يقول مذكراً نفسه أو

صاحبه على سبيل العظة والاعتبار: سل القرية عن أهلها وقل لها ماذا صنعوا، كما قال الرقاشي: سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً .

٢ ـ لأن الكلام لا يصح بدون المحذوف، كما إذا حذف أحد جزأي الجملة، نحو: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» .

والزيادة كقوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»، أي: ليس مثله شيء، فإعراب مثله في الأصل النصب، فلما زيدت الكاف سار جرًّا .

ونحوه: «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ» .

وقول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما
ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

يريد: ثم السلام عليكما .

ومما تقدم تعلم أن الحذف والزيادة إذا لم يوجبا تغير الإعراب لا توصف الكلمة من أجلهما بالمجاز، نحو: «أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ»، إذ الأصل: أو كمثل ذوي صيب، فحذف ذوي لدلالة يجعلون أصابعهم على هذا المحذوف وحذف لفظ مثل لدلالة قوله تعالى: «كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً» عليه، ونحوه: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ» .

.....

ـ المبحث العشرون:

ـ في المجاز العقلي أو المجاز الحكمي

هذا ضرب آخر من الاتساع والتجوز، غير ما قدمنا لك الكلام عليه، فإن ما مضى كانت تذكر فيه الكلمة ولا يراد معناها، ولكن ما هو ردف للمعنى أو شبيه به، فالتجوز كان يكون في اللفظ نفسه.

أما ما هنا فإن الكلمة متروكة على ظاهرها ومعناها مقصود في نفسه، وإنما التجوز في حكم يجري عليها، كقولهم: نام ليلي، وقوله تعالى: «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ» ، ففي هذا مجاز لكنه ليس في ذوات الألفاظ، فإن الليل والتجارة مستعملان في حقيقتهما، بل في أن جعلتهما فاعلين لنام وربح.

ومن هذا تفهم ما قالوه في تعريف هذا المجاز بأنه إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في الظاهر من حال المتكلم لملابسة مع قرينة صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ما هو له، وما في معنى الفعل هو المصدر واسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة، ومعنى كونه غير ما هو له أنه ليس من حقه أن يسند إليه؛ لأنه ليس يوصف له، ومعنى الملابسة العلاقة.

وهذا التعريف يشمل إسناد الفعل المبني للفاعل وما في حكمه كاسم الفاعل إلى غير فاعله كالمفعول والمصدر والزمان والمكان والسبب مما له علاقة بالفاعل، وإسناد الفعل المبني للمفعول وما في حكمه كاسم المفعول إلى غير نائب الفاعل مما له علاقة به، كالفاعل والمصدر ونحوهما، وإيضاح هذه

العلاقات مما يلي:

١ ـ إسناد ما بني للفاعل إلى المفعول، نحو: «عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ»، و: «مَاءٍ دَافِقٍ».

وقول الحطيئة:

دع المكارم لا ترحل لبُغيتها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فقد أسند راضية ودافق وطاعم وكاس وهي مبنية للفاعل إلى ضمير لعيشة مع أن الراضي صاحبها وكذلك الماء مدفوق والشخص مطعوم مكسو.

٢ ـ إسناد ما بني للمفعول إلى الفاعل، نحو: «إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً»، وسيل مفعم؛ لأن الوعد آت والسيل مفعم؛ أي: مالئ.

٣ ـ إسناد الفعل إلى المصدر.

نحو قول أبي فراس:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم
وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدرُ

فقد أسند الجد إلى الجد، أي: الاجتهاد، وهو ليس بفاعل له بل فاعله الجاد وفاصله جد الجاد جدا، أي: اجتهد اجتهاداً، فحذف الفاعل الأصلي وهو الجاد وأسند الفعل إلى الجد.

٤ ـ الإسناد إلى الزمان.

نحو: نهاره صائم، وليله قائم، وقوله:

هي الأمور كما شاهدتها دُولٌ

من سرَّه زمنٌ ساءته أزمانُ

فقد أسند الصوم إلى النهار والقيام إلى الليل والإساءة والسرور إلى الزمان، وكل هذه أزمنة للأفعال لا واقعة منها .

٥ ـ الإسناد إلى المكان .

نـحـو:

« وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ »

فقد أسند الجري إلى الأنهار، وهي أمكنة للمياه وليست هي الجارية بل الجاري ماؤها، ونحوه بيت ساكن .

٦ ـ الإسناد إلى السبب .

نـحـو:

إني لمن معشرٌ أفنى أوائلهم

قيل الكُماة ألا أين المحامونا ؟!!

فقد نسب الإفناء إلى قول الشجعان: هل من مدافع، وليس ذلك القول بفاعل ولا بمؤثر وإنما هو سبب فقط .

وقد يجيء هذا المجاز في النسبة الإضافية بأن يضاف إلى ملابس ما هو له ؛ نحو: جري الأنهار، ومكر الليل، وغراب البين .

فنسبة الجري إلى الأنهار مجاز علاقته المكانية، والمكر إلى الليل مجاز علاقته الزمانية، والبين إلى الغراب مجاز علاقته السببية على النحو الذي يزعمون .

قال الشاعر:

مشائين ليسوا مصلحين عشيرة

ولا ناعب إلا ببين غرابها

كما قد يجيء في النسبة الإيقاعية بأن يوقع الفعل على ملابس ما هو له ؛ كقوله تعالى: «وَأَطِيعُوا أَمْرِي»، وكما جاء في جميع ما مضى في الإثبات، فقد جاء أيضاً في النفي، كقوله عزَّ وعلا: «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ» أي: خسرت.

ونحو: ما نام ليلي، أي: سهر.

ونحو: تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، أي: بما تكره.

أقسامه باعتبار الطرفين طرفا هذا المجاز، وهما المسند إليه والمسند، إما:

١ ـ حقيقتان، نحو:

وشيَّب أيَّام الفراق مفارقي

٢ ـ وإما مجازان، نحو:

أحيا الأرض شباب الزمان

إذ المراد بإحياء الأرض إحداث النضارة والخضرة فيها مما ينتج عن تهيج القوى المنمية فيها، كما أن المراد من شباب الزمان ابتداء حرارته وازدياد قواه.

٣ ـ وإما مختلفان، نحو:

أهلك الناس الدينار والدرهم

فقد جعلته الفتنة إهلاكاً، ثم أثبت الإهلاك فعلاً للدينار والدرهم .

ونحو قول أبي الطيِّب :

وتحيي له المال الصوارم والقنا

ويقتل ما تحيي التبسم والجدا

فقد جعل الزيادة والوفور حياة للمال وتفريقه في العطاء قتلاً له، ثم أثبت الإحياء فعلاً للصوارم والقتل فعلاً للتبسم، مع أن كُلاً منهما لا يصح منه الفعل .

وقد وقع هذا المجاز في التنزيل، نحو: «وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا» ؛ فقد نسبت الزيادة إلى الآيات لكونها سبباً .

ونحو: «يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ» .

نسب الذبح إلى فرعون ؛ لأنه الآمر به والسبب فيه .

ونحو: «يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً» .

فقد أسند الفعل إلى الظرف لوقوعه فيه .

ـ « قرينته »:

قرينة هذا المجاز إما لفظية .

كقول أبي النجم العجلي :

ميَّز عنه قنزعاً عن قنزعِ

جذب الليالي أبطئ أو أسرعي

فقد استدللنا على أن إسناد ميز إلى جذب الليالي مجاز بقوله بعده :

أفناه قيل الله للشمس اطلعي

حتى إذا واراك أفق فارجعي

فإنه يدل على أن ذلك فعل الله، وأنه هو المفتي، فيكون إسناده إلى جذب الليالي من الإسناد إلى الزمان.

وإما غير لفظية، كاستحالة صدور المسند من المسند إليه، أو قيامه به عقلاً، نحو: محبتك جاءت بي إليك، أو عادة، نحو: بنى الوزير القصر، وكصدور الكلام من الموحد، كما في إسناد الإشادة والإفناء إلى كر الغداة في قولة الصلتان للعبدي:

أشاب الصغير وأفنى الكبير

كر الغداة ومر العشي

إذا ليلة هرمت يومها

أتى بعد ذلك يوم فتى

ـ تنبيهات:

ـ الأول:

قال عبد القاهر: هذا الضرب من المجاز، على حدته، كنز من كنوز البلاغة ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طرق البيان، ولا يغرنك من أمره أنك ترى الرجل يقول: أتى بي الشوق إلى لقائك، وسار بي الحنين إلى رؤيتك، وأقدمني بلدك حق لي على إنسانٍ وأشباه ذلك، مما تجده لشهرته يجري مجرى الحقيقة، فليس هو كذلك، بل يدق

ويلطف حتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها والنادرة تأنق لها .

ـ الثاني :

قال الإمام أيضاً : واعلم أنه ليس بواجب في هذا المجاز أن يكون للعمل فاعل في التقدير إذا أنت نقلت الفعل إليه عدت به إلى الحقيقة ، مثل أن تقول في ربحت تجارتهم : ربحوا في تجارتهم ، فإن ذلك لا يأتي في كل شيء ، ألا ترى أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل في قولك : أقدمني بلدك حق لي على إنسان ، فاعلاً سوى الحق .

وكذلك لا تستطيع في قول أبي نواس :

يزيدك وجهه حُسناً

إذا ما زدته نظرا

وقول ابن البوّاب :

وصيرني هواك وبي

لحيني يُضرب المثلُ

أن تزعم أن ليزيد فاعلاً قد نقل عنه الفعل فجعل للوجه ، ولا لصيرني فاعلاً غير الهوى ، فالاعتبار إذاً بأن يكون المعنى الذي يرجع إليه الفعل موجوداً في الكلام على حقيقته ، معنى ذلك أن القدوم في المثال المتقدم موجود على الحقيقة ، وكذلك الزيادة والصيرورة موجودتان على الحقيقة ، وإذا كان معنى اللفظ موجوداً على الحقيقة لم يكن المجاز فيه نفسه بل لا محالة في الحكم .

ـ الثالث : هذا المجاز كما يجري في الخبر كما سلف يجري في الإنشاء .

كقوله تعالى: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً».
وقوله تعالى: «فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً».
وقوله عزَّ وجل: «فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى».
وقوله عزَّ وعلا: «أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ».

فإن البناء والإيقاد فعل العملة وهامان سبب آمر، وهكذا يقال فيما بعده.

ـ الرابع: أنكر السكاكي هذا المجاز؛ وقال:

الذي عندي نظمه في سلك الاستعارة بالكناية بجعل الربيع مثلاً في قولك: أنبت الربيع البقل، استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبيه، وجعل نسبة الإنبات إليه قرينة الاستعارة على ما سبق لك في بيان مذهبه في الاستعارة بالكناية، وقد ردَّ هذا بأنه يستلزم ألا تصح الإضافة؛ نحو: «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ»، لبطلان إضافة الشيء إلى نفسه، وألا يكون الأمر بالبناء لهامان في قوله: «يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً»؛ لأن المراد به حينئذٍ العَمَلة أنفسهم، وأن يتوقف جواز التركيب في نحو: أنبت الربيع البقل، على السمع؛ لأن أسماء الله تعالى توقيفية، وكل هذه اللوازم منتفية فتنتفي ملزوماتها.

ـ تتمة:

وفيها مُهِمَّان:

١ ـ المجازات اللغوية المفردة يجب إقرارها حيث وردت، ولا يجوز تعديها إلا بإذن وتوقيف من اللغة، فإذا استعير لفظ الأسد للشجاع لما يربطهما من

معنى الشجاعة يجب إقراره، ولا يجوز تعديته واستعارته للرجل الأبخر لعلاقة المشابهة بينهما، ولفظ نخلة إذا استعير للرجل الطويل بجامع الطول في كل، لا يصح أن نعديه، ونطلقه على الحبل من أجل طوله.

أما المجازات العقلية فيجوز تعديها إلى غير محالها التي وردت فيها، فكما ورد قوله تعالى: «أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا»، قيل: تكاثرت أشواقي وأسقمني فقدك وأحيتني مشاهدتك، إلى غير ذلك مما لا يكاد يضبط في الرسائل والمواعظ والخطب كما قال ابن نباتة الخطيب: إنه الموت حسام أزهق النفوس ذبابه. كذا في الطراز.

٢ ـ المجاز خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا لباعث يرجع إما إلى اللفظ، وإما إلى المعنى، وإما إليهما جميعاً:

أ ـ فما يرجع إلى اللفظ أن يكون المجاز أخف على اللسان من الحقيقة كما نشعر بذلك في مثل لفظ الخنفقيق «الداهية»، أو يكون صالحاً للقافية أو السجع وهي لا تصلح لذلك، أو يكون مألوف الاستعمال والحقيقة غريبة وحشيَّة.

ب ـ ومما يرجع إلى المعنى، قصد التعظيم، كما تقول: سلام على المجلس، الكريم عادلاً، إلى المجاز، تعظيماً للمخاطب وتشريفاً له عن أن يخاطب بلقبه، أو المبالغة مع الإيجاز، كما تبين لك ذلك فيما سلف.

جـ ـ ومما يرجع إليهما تحسين اللفظ ودقة المعنى من أجل أن الشيء إذا عرف من بعض الوجوه دون بعض تاقت النفس إلى تحصيل ما ليس بمعلوم لها،

وذلك لا يتسنى إلا عند التعبير بالمجاز، أما عند التعبير بالحقيقة فيحصل العلم به من جميع الوجوه، لا جَرَمَ كان التعبير بالمجاز أقرب إلى تحسين الكلام وتجميله .

.....

ـ أسرار البلاغة في المجاز العقلي :

المجاز العقلي ضرب من التوسع في أساليب اللغة، وفن من فنون الإيجاز في القول ؛ ألا ترى أن إسناد الفعل إلى سبيله وجعله الفاعل المؤثر دليل على ما كان لهذا الأثر من شديد الصلة في صدور الفعل، وكأنه هو الذي صدر منه .

انظر إلى قول ابن الرومي :

أرى الشعر يحيي الناس والمجد بالذي

.........؛ تُبقِّيه أرواحٌ له عطراتِ

فما المجد لولا الشعر إلا معاهدٌ

... ؛ وما الناس إلا أعظمٌ نخراتِ

تره قد جعل حياة الناس ومآثرهم رهينة الشعر بما ينشر من فضائلهم ويذكره من جليل إحسانهم وعظيم إنعامهم فيبقى على كر الغداة ومر العشي .

وكذلك تجد ما في نسبة الحادث إلى زمانه أو مكانه، من دلالة على التعميم والشمول، فإن الفعل إذا أريد بيان شموله، وأنه يعم كل من يكنه المكان أو يحيط به الزمان نسب إلى المكان أو الزمان، تأمل قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام : «إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبَاً »، تره أراد أن

يجعل الشيب قد عم رأسه حتى صار كأنه نار، أضاف الاشتعال إلى الرأس لا إلى الشعر، مع أن المقصود هو بيان ابيضاض الشعر.

وانظر إلى طرفة بن العبد تره قد نسب إبداء المجهول إلى الأيام وهي لا تظهره بل يظهر فيها، ويستبين من أمره ما كان خفيّاً؛ في قوله:

ستُبدي لكل الأيام ما كنت جاهلاً

ويأتيك بالأخبار من لم تُزوِّدِ

وقد جعل ذلك شيمة الزمان وطبيعة الحدثان، في كل عصر وأوان، ولا تجد ذلك المعنى مستبيناً إذا أنت قد قلت: سيبدو على صفحات الزمان ما كان أمره خفيّاً، وما لم تجده من الشئون جليّاً.



ـ الباب الثالث:

٭ ـ القول في الكناية



ـ الباب الثالث:

ـ القول في الكناية

.....

ـ المبحث الأول:

ـ في تعريفها

الكناية لُغةً أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وقد كنوت بكذا عن كذا، أو كنيت إذا تركت التصريح به.

أنشد الجوهريُّ:

وإني لأكنو عن قُذُورٍ بغيرها
وأعرب أحياناً بها وأُصارحُ

وفي الاصطلاح تطلق على معنيين:

١ ـ المعنى المصدري الذي هو فعل المتكلم، أعني ذكر اللفظ الذي يراد به لازم معناه مع جواز إرادته معه.

٢ ـ اللفظ المستعمل فيما وضع له، لكن لا ليكون مقصوداً بالذات، بل لينتقل منه إلى لازمه المقصود لما بينهما من العلاقة واللزوم العرفي، وعلى هذا التعريف فهي حقيقة لاستعمال اللفظ فيما وضع له، لكن لا لذاته، بل لينتقل منه إلى لازمه فمعناه مراد لغيره مع استعمال اللفظ فيما وضع له، واللازم مراد لذاته، لا مع استعمال اللفظ فيه، فهو مناط الإثبات والنفي

والصدق والكذب .

تفسير هذا أن العرب تلفظ أحياناً بلفظ لا تريد منه معناه الذي يدل عليه بالوضع ، بل تريد منه ما هو لازم له في الوجود بحيث إذا تحقق الأول تحقق الثاني عُرفاً وعادةً، فتقول : فلان رحب الصدر ، ونقصد أنه حليم من قِبَلِ أن الحليم يكون ذا أناة وتؤدة ولا يجد الغضب إليه سبيلاً ، لما في صدره من السعة لاحتمال كثير من الحفاظ والأضغان كما يحتمل الصندوق الواسع كثيراً من المتاع والماعون ، وتقول : فلانة نئوم الضحى ، وتقصد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها من الخدم والحشم ، فهم يقومون بتدبير شئون المنزل وقضاء الحوائج البيتية ، فلا تحتاج إلى القيام مبكرة من النوم فأولئك قد كفوها مئونة التعب والنصب .

.....

ـ الفرق بينها وبين المجاز:

مما سلف تعلم الفرق بين الكناية والمجاز هو أن الأولى لا يمتنع معها إرادة المعنى الأصلي ، فيسوغ في المثالين المتقدمين أن تريد أنه واسع الصدر حقيقة ، وأنها تنام حقّاً إلى وقت الضحى ، وقد تمتنع إرادة المعنى الأصلي فيها أحياناً لخصوص الموضوع ، نحو : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » كناية عن الاستيلاء والملك ، « وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » كناية عن قوة التمكن وتمام القدرة ، إلى غير ذلك .

أما قرينة المجاز فتمنع من إرادة المعنى الأصلي، فلا يسوغ إرادة الأسد المفترس في قولك: رأيت أسداً في الميدان يضرب يميناً وشمالاً.

.....

ـ المبحث الثاني:

في أقسامها من حيث المكني عنه

تنقسم الكناية من حيث المكني عنه إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ كناية يطلب بها صفة من الصفات كالجود والكرم ودماثة الأخلاق، إلى غير ذلك.

وهي ضربان:

أ ـ قرينة: وهي ما ينتقل منها إلى المطلوب بها بلا واسطة سواء أكانت واضحة كقولهم كناية عن طويل القامة طويل النجاد، وقول الحماسي:

أبت الروادف والثديُّ لقُمصها

مس البطون وأن تمس ظهورا

كنى عن كبر الأعجاز ونهود الثدي بارتفاع القميص عن أن يمس بطناً أو ظهراً.

وهذا من بديع الكناية.

أم خفية يتوقف الانتقال منها إلى اللازم على التأمل وإعمال الرؤية، كقولهم كناية عن الأبله هو عريض القفا، إذ يزعمون أن عرض القفا وعظم الرأس إذا أفرطا دلا على الغباوة، أوما ترى إلى قول طرفة:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه

خشاش كرأس الحية المتوقدِ

ب ـ بعيدة : وهي ما ينتقل منها إلى المطلوب بها بواسطة كقولهم في الكناية عن المضياف : هو كثير الرماد ، فإنه ينتقل الذهن من كثرة الرماد إلى كثرة الطبائخ ، ومنها إلى كثرة الرماد ، ومنها إلى كثرة الضيفان ، ثم إلى المضيافة ، وهي المقصودة .

ونظيره قول الآخر :

وما يك فيَّ من عيبٍ فإني

جبان الكلب مهزول الفصيلِ

فإن الذهن ينتقل من جبن الكلب عن الهرير في وجه من يقصد داراً هو مقيم على حراستها والعس دونها ، مع أن ذلك ليس من طبعه ، إلى أنه قد دام زجره وتأديبه حتى تغير عن مجرى عادته ، ثم إلى استمرار موجب نباحه وهو اتصال مشاهدته وجوهاً إثر وجوه ، ومن ذا إلى كونه ملجأً للقاصي وللداني ، ومن ذا إلا أنه مشهور بحسن قرى الأضياف .

وكذا ينتقل من هزال الفصيل إلى فقد الأم ، ومن ذا إلى قوة الداعي إلى نحرها مع كمال عنايتهم بالنوق ، خصوصا المثالي منها ، ومن هذا إلى صرفها إلى الطبائخ ، ومن ذا إلى أنه مضايف .

٢ ـ كناية : يطلب بها موصوف ، نحو قولك كناية عن الأسد : قتلت ملك

الوحوش، وشرطها الاختصاص بالمكني عنه ليحصل الانتقال منها إليه.

وهي ضربان:

أ ـ ما هي معنى واحد بأن يتفق في صفة اختصاصها بموصوف معين فتذكر تلك الصفة ليتوصل بها إلى ذلك الموصوف كمجامع الأضغان كناية عن القلوب في قوله:

الضاربين بكل أبيض مخذم

والطاعنين مجامع الأضغانِ

ونحوه قول البحتري في قصيدته التي وصف فيها قتلة الذئب:

فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها

بحيث يكون اللب والرعب والحقدُ

ففي الشطر الثاني ثلاث كنايات، كل منها مستقل بإفادة الغرض، لا كناية واحدة، فقوله: بحيث يكون اللب، الرعب، الحقد، ثلاثتها عن كناية القلب، إذ هو محل العقل والخوف الضغينة.

ب ـ ما هي مجموع معان بأن تؤخذ صفة فتضم إلى صفة ثانية، ثم ثالثة، فتكون جملتها مما يختص بالموصوف، فمتى ذكرت توصل بها إليه كقولهم كناية عن الإنسان: إنه حي مستوي القامة عريض الأظفار، فمجموع هذه الأوصاف هو الثلاثة المختص بالإنسان لا كل واحد منها.

٣ ـ كناية : يطلب بها نسبة ، أي : ثبوت أمر لأمر ، أو نفيه عنه ، كما يقولون : المجد بين ثوبيه ، والكرم بين برديه ، فهم لم يصرحوا بثبوت المجد والكرم له ، بل كنُّوا عن ذلك بكونهما بين برديه وبين ثوبيه ، وكقول زياد الأعجم في مدح عبد الله بن الحشرج وكان أمير نيسابور :

إن السماحة والمروءة والندى
في قُبَّةٍ ضُربت على ابن الحشرج

فإنه أراد أن يثبت هذه الصفات خلالاً للممدوح لكنه لم يصرح بذلك فيقول : إنها مجموعة فيه ، أو مقصورة عليه ، أو نحو ذلك ، بل عدل إلى ما أنت تراه فجعلها في قبة مضروبة عليه لتمكنه أن يثبتها للممدوح بطريق الكناية ؛ لأنه إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه فقد أثبت له ، ومثل هذا وإن كان في حلة أبدع ووشي أغرب قول حسان :

بنى المجد بيتاً فاستقرت عمادهُ
علينا فأعيا الناس أن يتحولا

وقول أبي نواس :

فما جازه جودٌ ولا حلَّ دونهُ
ولكن يصير الجود حيث يصيرُ

وقول الآخر :

وحيثما يك أمر صالح تكن

ففي كل هذا توصل إلى إثبات للممدوح بإثباتها في المكان الذي يحل فيه ،

ولزومها بلزومه حيثما كان، وعلى هذا المسلك يحمل قولهم:

مثلك لا يبخل

قال في «الكشاف»:

نفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته، قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية؛ لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده وعمن هو على أخص أوصافه فقد نفوه عنه.

ونظيره قولك للعربي: العرب لا تخفر الذمم.

فإنه أبلغ من قولك: أنت لا تخفر. ا. هـ.

.....

ـ المبحث الثالث:

ـ في أقسامها من حيث الوسائط

تنقسم الكناية باعتبار الوسائط إلى أقسام أربعة:

١ ـ تعريض: وهو خلاف التصريح، واصطلاحاً ما أشير به إلى غير المعنى بدلالة السياق، كما تقول: المسلم من سلم المسلمون من لسانه، فالمعنى الأصلي انحصار الإسلام فيمن سلم الناس من يده ولسانه، والمعنى الكنائي اللازم للمعنى الأصلي انتفاء الإسلام عن المؤذي مطلقاً، وهو المعنى المقصود من اللفظ، ويشير بسياقه إلى نفي الإسلام عن المؤذي الذي تكلمت عنده.

ومن لطيف ذلك ما كتبه عمر بن مسعدة وزير المأمون إلى المأمون يوصيه على بعض أصحابه:

أما بعد، فقد استشفع بي فلان إلى أمير المؤمنين ليتطول في إلحاقه بنظرائه، فأعلمته بأن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين، وفي ابتدائه بذلك بعد عن طاعته.

فوقع المأمون في كتابه:

قد عرفنا نصيحتك له وتعريضك لنفسك وأجبناك إليهما.

٢ ـ تلويح: وهو لغة أن تشير إلى غيرك من بعد؛ واصطلاحاً كناية كثرت فيها الوسائط بين اللازم والملزوم، نحو: «أولئك قوم يوقدون نارهم في الوادي» كناية عن بخلهم، فقد انتقل من الإيقاد في الوادي المنخفض، إلى إخفاء النيران، ومن هذا إلى عدم رغبتهم في اهتداء ضيوفهم إليها، ومن ذا إلى بخلهم، ونحوه ما تقدم من قولهم: هو جبان الكلب، ومهزول الفصيل.

٣ ـ رمز: وهو لغة أن نشير إلى قريب منك خفية بشفة أو حاجب، كما قال:

رمزت إلي مخافةً من بعلها

من غير أن تبدي هناك كلامها

واصطلاحاً هو كناية قلّت وسائطها مع خفاء اللزوم؛ نحو: هو غليظ الكبد، كناية عن القسوة، إذ ذلك يتوقف على معرفة ما كان يعتقده العرب من أن الكبد موضع الإحساس والتأثر فيلزم من رقته اللين ومن غلظه القسوة.

٤ ـ إيماء وإشارة: وهي كناية قلّت وسائطها، مع وضوح الدلالة.

كقول أبي تمام يصف إبله مادحاً أبا سعيد:

أبين فما يزرن سوى كريمٍ　　　وحسبك أن يزرن أبا سعيدِ

وقول البحتري يمدح آل طلحة:

أوما رأيت المجد ألقى رحلهُ

في آل طلحة ثم لم يتحولِ

ومن لطيف ذلك وعجيبه قول بعضهم في رثاء البرامكة:

سألت الندى والجود ما لي أراكما

........؛ تبدَّلتما ذُلاً بعزٍ مؤيَّدِ

وما بال ركن المجد أمسى مُهدَّما

فقالا أُصبنا بابن يحيى محمدِ

فقلتُ: فهلاّ متما عند موته؛

فقد كنتما عبديه في كل مشهدِ

..؛ فقالا: أقمنا كي نُعزِّي بفقده

مسافة يومٍ ...؛ ثم نتلوه في غدِ

.....

ـ المبحث الرابع:

ـ في حُسن الكناية وقُبحها

الكناية تكون حسنة إن جمعت بين الفائدة ولطف الإشارة، وقبيحة إذا خلت مما ذكر.

كقول الشريف الرضي يرثي امرأة:

إن لم تكن نصلاً فغمد نصالِ

فهذا من رديء الكنايات، إذ هذا لا يفيد ما قصده من المعنى، بل ربما جرَّ إلى ما يقبح من تهمتها بالريبة .

ونحوه قول أبي الطيِّب:

إني على شغفي بما في خمرها

لأعف عما في سراويلاتها

قال ابن الأثير: فهذه كناية عن النزاهة والعفة، إلا أن الفجور أحسن منها، وما ذاك إلا من سوء تأليفها وقبح تركيبها، وقد أجاد الشريف فيما زلّت فيه قدم أبي الطيب فجاء به على وصف حسن وقالب عجيب حيث قال:

أحن إلى ما يضمن الخمر والحلى

وأصدف عما في ضمان المآزرِ

وقريب من بيت المتنبي قول الآخر:

وما نلت منها محرماً غير أنني

إذا هي بالت بُلت حيث تبولُ

.....



.....

ـ خاتمة

اتفقت كلمة البلغاء على:

١ ـ أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح ؛ لأن الانتقال فيهما من الملزوم إلى اللازم فهو كدعوى الشيء ببينة .

٢ ـ وعلى أن الاستعارة أبلغ من التشبيه ، ومن المجاز المرسل ، لما فيهما من دعوى الاتحاد ، وأن أبلغ أنواعها الاستعارة التمثيلية ، ثم المكنية ، لاشتمالها على المجاز العقلي الذي هو قرينتها .

٣ ـ وعلى أن الاستعارة سواء أكانت تمثيلية أم مكنية أم غيرها ، أبلغ من الكناية ؛ لأنها كالجامعة بين كناية واستعارة .

وليس معنى الأبلغية في كلا من هذه الأمور يفيد زيادة في المعنى نفسه لا يفيدها خلافه ، بل المراد زيادة التأكيد في الإثبات .

قال الإمام عبد القاهر:

فليست فضيلة قولنا رأيت أسداً على قولنا رأيت رَجُلاً لا يتميز عن الأسد في جرأته وشجاعته ، أن الأول أفاد زيادة في مساواته للأسد في الشجاعة لم يفدها الثاني ، بل هي أن الأول أفاد تأكيداً لإثبات تلك المساواة له لم يفده الثاني ، وسرُّ هذه المزية والفخامة أنك إذا قلت: رأيت أسداً كنت قد تلطفت لما أردت إثباته له من فرط الشجاعة حتى جعلتها كالشيء الذي يجب له الثبوت والحصول ، وكالأمر الذي نصب له دليل يقطع بوجوده ، وذلك أنه

إذا كان أسداً فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة، وكالمستحيل والممتنع أن يعرى عنها؛ وإذا صرحت بالتشبيه فقلت: رأيت رجُلاً كالأسد، كنت قد أثبتها إثبات الشيء يترجح بين أن يكون وألا يكون، ولم يكن من حديث الوجوب في شيء.

وليست فضيلة قولنا: جم الرماد على قولنا كثير القرى أن الأول أفاد زيادة لقراه لم يفدها الثاني، بل هي أن الأول أفاد تأكيد الإثبات كثرة القرى له لم يفده الثاني، وذلك أن كل عاقل يعلم أن إثبات الصفة بإثبات دليلها آكد، وأبلغ في الدعوة من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجاً غفلاً، وذلك أنك لا تدعي دليل الصفة إلا والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يشك فيه، ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط.

كذا في « دلائل الإعجاز » مع اختصار.

.....

ـ أسرار البلاغة في الكناية:

الكناية فنٌّ من التعبير توخاه العرب استكثاراً للألفاظ التي تؤدي ما يقصد من المعاني، وبها يتنوفون في الأساليب، ويزينون ضروب التعبير، ويكثرون من وجوه الدلالة، انظر إلى امرئ القيس تجده كنَّى عن المرأة ببيضة الخدر في قوله:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها
تمتعت من لهوٍ بها غير معجلِ

وإلى حميد بن ثور نراه كنى عنها بالسرحة في قوله:

أبى الله إلا أن سرحة مالكٍ؛

على كل أفنان العضاة تروقُ

فيا طيب ريَّاها وبرد خلالها

إذا حان من حامي النهار وديقُ

وإلى النَّبيِّ عليه السلام وقد كنَّى عنها بالقارورة في قوله لأنجشه وهو يحدو بنسائه: ((رفقاً بالقوارير)) .

وبها ينصبون الدليل على كل قضية ويقيمون البرهان على كل مدعى، انظر إلى المتنبي وهو يذكر وقيعة سيف الدولة بأعدائه:

فمساهم وبسطهم حريرٌ

وصبحهم وبسطهم ترابُ

تجده قد أراد أن يبين أنه قهرهم وأذلهم بعد أن كانوا أعزة، لكنه تلطف في التعبير ونصب الدليل على صحة دعواه، فأشار إلى عزتهم أولاً بافتراشهم بسط الحرير، ثم إلى ذلتهم بعد بافتراشهم بسط التراب .

وتأمل قول أبي تمام يمدح أبا سعيد بن يوسف الثغري ويذكر كرمه:

أبين فما يزرن سوى كريمٍ

وحسبك أن يزرن أبا سعيدِ

تره قد أبان كرم أبي سعيد بغاية الوضوح من حيث أبان أن إبله أبت إلا أن تزور الكرماء، ويكفيها أن تزور من بينهم أبا سعيد .

وليس بالخفي ما للكناية من فضيلة في إلباس المعقول ثوب المحسوس، أتراك تشاهد لطف التعبير ودقة التصوير إذا تأملت الكناية بحمالة الحطب عن النمامة التي تفسد ذات البين وتهيج الشر في قوله تعالى يصف امرأة أبي لهب: «وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ»، فإنك وأنت تقرؤها يخيل إليك أنها ممسكة حطبها بيديها، ومشعلة ناراً لتوقد العداوة والبغضاء بين قوم، وتؤلب بعضهم على بعض.

إلى ما فيها من حيلة بترك بعض ألفاظ إلى ما هو أجمل في القول وآنس للنفس، ألا ترى إليهم وهم يكنون عن الموت بقولهم: «فلان قد استوفى أكله» أو بقولهم: «لحق باللطيف الخبير»، وعن الصحراء بالمفازة وهي مهلكة.

إلى ما فيها من حُسن التلطف في اطراح الألفاظ المستهجنة كما جاء في القرآن الكريم من الكنايات التي تتعلق بالنساء كالنهي عن أخذ المهور مع ذكر السبب في قوله تعالى: «وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ»، وقوله تعالى: «فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ».

إلى أنها قد تكون طريقاً من طرق الإيجاز والاختصار كقوله تعالى كناية عن كثير من الأفعال: «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»، وقولهم كناية عن الجامع لكل شيء «هو سفينة نوح».

وأنك لترى فيها من العجب العجاب ومن غريب الصنعة ومن بديع السحر إذا كانت في باب الصناعات الخسيسة والأشياء الحقيرة بذكر منافعها، كما

قيل لحائك : ما صناعتك؟ ؛ قال : زينة الأحياء ، وجهاز الموتى .

وقال ابن باقلاني - بائع فول - :

أنا ابن الذي لا ينزل الدهر قدره
وإن نلزت يوماً فسوف تعودُ
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره
فمنهم قيامٌ حوله وقعودُ



٥- رَسَائِلُ البُلَغَاء



ـ المُنْتَخَبُ مِن كِتَابَات :

أَدِيبِ العَرَبِيَّةِ

مُصْطَفَى صَادِق الرَّافِعِيّ

(١٢٩٨ ـ ١٣٥٦ هـ = ١٨٨١ ـ ١٩٣٧ م)

ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ



.....

✿ ـ التَّعْرِيفُ بِالكَاتِب :

مُصْطَفَى صَادِق الرَّافِعِيّ

﴿ ١٢٩٨ ـ ١٣٥٦ هـ = ١٨٨١ ـ ١٩٣٧ م ﴾

.....

قَالَ الزِّرِكْلِيُّ فِي « الأَعْـلام » ؛ [جـ ٧/ ٢٣٥] :

✿ ـ مُصطفى صادق بن عبد الرزّاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعيّ :

عالمٌ بالأدب ؛ شاعرٌ ؛ من كبار الكُتَّاب .

أصله من طرابلس الشام ؛ ومولده في بهتيم بمنزل والد أمِّه ؛ ووفاته في طنطا بمصر .

أُصيبَ بصممٍ ؛ فكان يُكتب له ما يُراد مخاطبته به .

شعره نقيُّ الديباجة ؛ على جفافٍ في أكثره ؛ ونثره من الطراز الأول .

ـ له :

ـ « ديوان شعر » : ط : ثلاثة أجزاء .

ـ « تاريخ آداب العرب » : ط : جُزآن .

ثالثهما :

ـ « إعجاز القرآن والبلاغة النبويَّة » : ط .

ـ « تحت راية القُرآن » : ط .

ـ « رسائل الأحزان »: ط .

ـ « على السَّفُود »: ط: رَدٌّ على العقّاد .

ـ « وحي القلم »: ط: ثلاثة أجزاء .

ـ « ديوان النظرات »: ط .

ـ « السَّحاب الأحمر ... في فلسفة الحُبِّ والجمال »: ط .

ـ « حديث القمر »: ط .

ـ « المعركة »: ط: في الرَّدِّ على كتاب الدكتور طه حسين « في الشعر الجاهلي » .

ـ « المساكين »: ط .

ـ « أوراق الورد »: ط .

ولمحمد سعيد العُريان كتاب « حياة الرافعيّ »: ط .

ولمحمود أبي ريَّة « رسائل الرافعيّ »: ط: وهي رسائل خاصة؛ مما كان يبعث به إليه؛ اشتملت على كثيرٍ من آرائه في الأدب والسياسة ورجالهما .] أهـ .

.....

وقال الدكتور شوقي ضيف « ت ١٤٢٦ هـ » في كتابه « الأدب العربيّ المعاصر في مصر » ـ دار المعارف؛ ط الثالثة عشرة؛ [ص: ٢٤٢ ـ ٢٥١] ـ:

[٥ ـ مُصطفى صادق الرَّافعيّ ١٨٨٠ ـ ١٩٣٧م:

أ ـ حياته وآثاره:

وُلِدَ مصطفى صادق الرافعي في سنة ١٨٨٠ لأسرة لبنانية الأصل من

طرابلس الشام ، هاجر كثير من أفرادها في القرن الماضي إلى مصر ، واشتغلوا فيها بالقضاء الشرعي .

وكان والد مصطفى رئيساً للمحاكم الشرعية في كثير من أقاليمنا المصرية ، ويُسمَّى عبد الرزَّاق .

وقد عُيِّن أحد أفراد هذه الأسرة ـ وهو الشيخ عبد القادر الرافعي ـ مُفتياً بعد وفاة الشيخ محمد عبده ؛ إلا أن القدر لم يمهله طويلاً .

فالجو الذي تنفَّس فيه مصطفى كان جوًّاً إسلاميًّاً عربيًّاً ؛ وقد عُني به أبوه ؛ فحفَّظه القرآن ؛ ولقَّنه تعاليم الدين الحنيف ؛ ثم ألحقه في سنِّ الثانية عشرة بمدرسة دمنهور الابتدائية ؛ حيث كان يتولى عمله القضائي ؛ ونُقل إلى المنصورة فأتم مصطفى دراسته الابتدائية هناك ، وهو في السابعة عشرة من عمره ؛ وبمجرد فراغه من هذه الدراسة أصابته حُمَّى عنيفة ـ لعلها حُمَّى التيفويد ـ ؛ وشُفي منها ؛ إلا أنها خلَّفت وراءها حُبْسة في صوته ، ووقراً في أذنيه ، ولم يفد العلاج معه شيئاً ؛ بل لقد أخذ سمعه يضعف ؛ حتى انتهى إلى الصمم الخالص في سنِّ الثلاثين .

وكانت هذه الصدمة سبباً في أنه لم يتم تعلُّمه ؛ غير أنه عكف على الكتب ينهل منها ويفيد معتمداً على ذكائه .

وعُيِّن في إبريل سنة ١٨٩٩ كاتباً بمحكمة طلخا الشرعية ، ونُقل منها إلى محكمة إيتاي البارود ، ثم محكمة طنطا الشرعية ، فالأهلية ، وظل في هذه الوظيفة إلى وفاته .

ويقال : إن أواصر الصداقة انعقدت بينه وبين الكاظمي وهو لا يزال بطلخا ، ولعله هو الذي شجَّعه على نظم الشعر في باكورة حياته .

كما يقال : إنه عرف الحُبَّ في إيتاي البارود .

ونحن نلتقي به في مطالع القرن العشرين شاعراً ناضجاً من ذوق مدرسة البارودي ، وقد قرَّظه وأشاد بفضله حين نشر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٢ ، كما نوَّه به المنفلوطي ، وفي العام التالي نشر الجزء الثاني من هذا الديوان ، فقرَّظه البارودي ثانية ، وحيَّاه الشيخ محمد عبده راجياً أن يسدي في خدمة الإسلام ما أسداه حسَّان في خدمة الرسول عليه الصلاة والسلام .

ونشر الجزء الثالث من ديوانه سنة ١٩١٢ ، وناب حافظ إبراهيم عن البارودي في تقريظه .

وبجانب هذا الديوان نشر ديواناً ثانياً بعنوان « النظرات » سنة ١٩٠٨ ، كما نشر قصائد متفرقة في مجلتي « فتاة الشرق » و « أبولو » .

ويبدو في أشعاره جميعها تمسُّكه ـ على شاكلة مدرسة البارودي ـ بالصياغة القديمة .

وقد فسح للغزل في دواوينه ، كما فسح للتهاني والمراثي والمشاعر الوطنية والإسلامية وأحاسيس المرارة من حالة مصر الاجتماعية حينئذٍ ، ونراه دائماً يحاول أن يبعث شعور الثقة إلى بني وطنه ، كما نراه مُهتمَّاً بقضية المرأة العربية ؛ مُحذِّراً لها من المغالاة في تقليد الأوربيات اللائي لا يعصمهن دينٌ ولا عقيدة .

وقد عُني إلى ذلك بوصف الطبيعة ووصف بعض المخترعات الحديثة كالخيالة وآلة التصوير .

ولا نكاد نتقدم في العقد الثاني من هذا القرن حتى نراه يتجه بإطراد إلى النثر ، وتصادف أن رصدت الجامعة المصرية جائزة لكتاب في « أدبيات اللغة العربية » ، فعكف على الأدب العربي يدرسه ، ولم يلبث أن نشر الجزء الأول من كتابه « تاريخ آداب العرب » سنة ١٩١١ ؛ وهو يدل على إيمانه الشديد بهذه الآداب ، وأنها تعلّقت قلبه حتى الشغاف .

ودار العام ؛ فأصدر الجزء الثاني من هذا التاريخ ، وقصره على إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، وقد طبعه فيما بعد مُستقلاً باسم « إعجاز القرآن » ، وكتب سعد زغلول تقريظاً له شبَّه فيه أسلوب المؤلف بالتنزيل الحكيم ، وهو تشبيه يصور حقيقة كبيرة ؛ فإن الرافعي يتأثر في نثره العبارة القرآنية في بلاغتها وسُمُوها .

ويتراءى الرافعي منذ هذا التاريخ مالكاً لأزمَّة اللغة والبيان ، وكان أول ما جاشت به نفسه من النثر الفني كتابه « حديث القمر » الذي نشره في سنة ١٩١٢ بعد رحلة طاف بها لبنان ، وعرف شاعرة كان بينه وبينها حديثٌ عاطفيٌّ طويلٌ في الحُب ، ومن ثَمَّ كان الكتاب فصولاً في الحب والجمال والزواج والطبيعة ، تتخللها أشعار متفرقة ؛ وهو فيه يتفنن في معانيه وأساليبه تفنُّناً رائعاً .

ونتقدم معه إلى سنة ١٩١٧ ؛ فنراه يخرج كتابه « المساكين » معارضا به كتاب « البؤساء » لفيكتور هيجو ، وهو فصول شتى تصف بؤس البائسين وآلامهم ، وتعرض آراء مختلفة في الفقر والحظ والحب والجمال والخير والشر .

ونراه بعد ثورتنا في سنة ١٩١٩ يُعْنَى بأناشيدنا الوطنية ، ونشيده « اسلمي يا مصر » يدور على كل لسان ؛ ويهتم بقضية المرأة ؛ فيؤلف من أجلها كتابه « رسائل الأحزان » الذي نشره في سنة ١٩٢٤ ، ويزعم في مطلعه أنه رسائل صديق بعث بها إليه ، وهو يقص فيه حكاية حُبٍّ مُصوراً خواطره في العشق والزواج بقلمه البليغ .

وقد مضى ينشر في نفس السنة كتابه « السحاب الأحمر » يتحدث فيه عن فلسفة الغضب وحُمق الحُب وخبث المرأة .

وانطوت ست سنوات ؛ فعاد إلى هذا الموضوع ؛ ونشر « أوراق الورد » مصوراً آراءه في الحب والجمال .

والرافعي في هذه الكتب جميعها يفتنُّ في العبارة وفي توليد المعاني .

ونراه منذ احتدمت المعركة بين القديم والجديد في سنة ١٩٢٣ يحمل لواء المحافظين مُدافعاً بقوة عن مُثله العربية الإسلامية ، وقد عرضنا لهذه المعركة وموقفه منها في غير هذا الموضع ؛ إلا أنه ينبغي أن نعود فنشير إلى كتابه « تحت راية القرآن » أو « المعركة بين القديم والجديد » الذي نشره في سنة ١٩٢٦ عقب ظهور كتاب طه حسين « في الشعر الجاهلي » ؛ وفيه صوَّب

سهامه إلى كل ما في هذا الكتاب من آراء وأفكار .

وتحوّل إلى المُجدِّدين في الشعر ممثَّلين في عباس العقاد يرميهم بأقذع صور الهجاء في كتابه « على السَّفُّود » .

وظل بقية حياته ثابتاً للمجددين من الشعراء والكُتَّاب جميعاً ؛ ينقدهم نقداً مُرّاً ؛ كما ظل مؤمناً بالميراث العربي في لغته وآدابه ، وأن نهضة العرب لا تقوم إلا على أساس وطيد من الدين وعربيته الفصحى السليمة ، وكان يكتب في ذلك المقالات المختلفة في المجلات ، ودعاه أحمد حسن الزيات للإسهام في تحرير مجلة « الرسالة » ؛ فلبَّى الدعوة ؛ وأخذت مقالاته في الإسلام والعروبة تتوالى ؛ حتى وافاه القدر .

وقد جُمعت هذه المقالات وطُبعت في لجنة التأليف والترجمة والنشر باسم « وحي القلم » ؛ وهي في ثلاثة أجزاء .

ب ـ مقالات « وحي القلم » :

رأينا الرافعي ينشأ نشأة إسلامية عربية ، وهي نشأة تغلغلت أصداؤها في فؤاده ونمت مع الزمن ؛ فإذا هي تتحول إلى نثرٍ فنيٍّ بليغٍ ؛ يفيض بالإخلاص والطُهر ، والإحساس بآلام الجماعة وكوارثها ، والشعور الدقيق بمآثر العرب ودَوْرهم في التاريخ ، وبمعاني الإسلام ومُثُله الرفيعة ؛ وهو إلى ذلك يصف الحُبَّ ومعانيه ، والجمال وألوانه ، والطبيعة ومفاتنها وما أودع الله فيها من المعاني التي تبهج الإنسان ؛ وفي كل ذلك يغمس قلمه مُتأنياً مُترويًا ؛ فالكتابة

البيانية ليست شيئاً يسيراً ؛ بل هي شيء عسير ؛ لابُدَّ فيه من تأمل طويل ؛ تأمل في الفكرة واستنباط فيها وتوليد ؛ حتى تستحيل إلى موضوع متشعب كبير، وقد صوَّر ذلك في تقديمه للجزء الأول من « وحي القلم » ؛ فقال :

« لا وجود للمقالة البيانية إلا في المعاني التي اشتملت عليها ؛ يقيمها الكاتب على حدود، ويديرها على طريقة، مُصيباً بألفاظه مواقع الشعور، مُنيراً بها مكامن الخيال، آخذاً بوزن، تاركاً بوزن ؛ لتأخذ النفس كما تشاء وتترك .

ونقل حقائق الدنيا نقلاً صحيحاً إلى الكتابة أو الشعر ؛ هو انتزاعها من الحياة في أسلوب ؛ وإظهارها للحياة في أسلوب آخر يكون أوفى وأدق وأجمل ؛ لوضعه كل شيء في خاصٍّ معناه، وكشفه حقائق الدنيا كشفة تحت ظاهرها الملتبس .

وتلك هي الصناعة الفنية الكاملة ؛ تستدرك النقص فتتمه، وتتناول السر فتعلنه، وتلمس المقيد فتطلقه، وتأخذ المطلق فتحدُّه، وتكشف الجمال فتظهره، وترفع الحياة درجة في المعنى، وتجعل الكلام كأنه وجد لنفسه عقلاً يعيش به .

فالكاتب الحق لا يكتب ليكتب ؛ ولكنه أداة في يد القوة المصورة لهذا الوجود، تصور به شيئاً من أعمالها فنّاً من التصوير .

الحكمة الغامضة تريده على التفسير ؛ تفسير الحقيقة، والخطأ الظاهر يريده على التبيين ؛ تبيين الصواب، والفوضى المائجة تسأله الإقرار ؛ إقرار التناسب، وما وراء الحياة يتخذ من فكره صلة بالحياة، والدنيا كلها تنتقل فيه

مرحلة نفسية لتعلو به أو تنزل .

ومن ذلك لا يُخْلق الملهم أبداً إلا وفيه أعصابه الكهربائية ، وله في قلبه الرقيق مواضع مهيأة للاحتراق ؛ تنفذ إليها الأشعة الروحانية ، وتتساقط منها بالمعاني .

وإذا أُختير الكاتب لرسالة ما ؛ شعر بقوة تفرض نفسها عليه ؛ منها سناد رأيه ، ومنها إقامة برهانه ، ومنها جمال ما يأتي به ؛ فيكون إنساناً لأعماله وأعمالها جميعاً ، له بنفسه وجود ، وله بها وجود آخر ؛ ومن ثَمَّ يصبح عالماً بعناصره للخير أو الشر كما يُوجَّه ، ويُلْقَى فيه مثل السر الذي يلقى في الشجرة لإخراج ثمرها بعملٍ طبيعيٍّ يُرى سهلاً كل السهل حين يتم ؛ ولكنه صعب أي صعب حين يبدأ .

هذه القوة هي التي تجعل اللفظة المفردة في ذهنه معنى تامًّا ؛ وتحوِّل الجملة الصغيرة إلى قصة ، وتنتهي باللمحة السريعة إلى كشف عن حقيقة ؛ ولهذا ستبقى كل حقيقة من الحقائق الكبرى كالإيمان والجمال والحب والخير والحق ؛ سبتقى محتاجة في كل عصر إلى كتابة جديدة من أذهان جديدة .)) .

وهو يشير في أول كلامه إلى معاني المقالة البيانية وما تستلزم من الدقة حتى تؤثر في العاطفة والخيال ، ويقول : إنه لابُدَّ لصاحبها من أن تكون له بصيرة نافذة يزيح بها الأستار عن حقائق الدنيا الخارجية ؛ وبذلك ينكشف له عالمها الداخلي وما يموج به من أسرار ويلمع فيه من أفكار ؛ فيعيش فيه هذه

المعيشة التي تجعله يحمله إلينا بكل ما فيه من جمال وروعة .

والرافعي حقاً من كُتَّابنا القلائل الذين عاشوا معيشة داخلية في حقائق دنيانا ، متجاوزاً ظاهرها الحسي إلى قواها الروحية الباطنة ، وقد أعانه على ذلك صممه المبكر الذي جعله يحيا بين الناس وكأنه غريب عنهم ، ويتحدث إليهم وهو لا يسمعهم ؛ فكان طبيعياً أن يفضي إلى ذات نفسه ؛ وأن يعيش هذه المعيشة الداخلية التي عكف فيها على عقله ؛ وانطلق به متجولاً في باطن الحقائق الظاهرة ؛ مُسلِّطاً عليها من إشعاعاته العقلية ما جعل معانيها الخفيَّة تتألق أمام عينيه .

واقرأ له في « وحي القلم » أي مقالة ؛ فستراه يحُوِّل أي موضوع اجتماعي أو سياسي أو تاريخي ، وأي مشهد في الطبيعة أو في حياة الناس ، وأي خبر من أخبار العرب أو الإسلام ؛ إلى ما يشبه ينبوعاً لا تزال تتفجر منه المعاني الخفية التي تروع بدلالاتها ، وبما أخرجها فيها من صيغة عربية بديعة .

فتملُّكه لزمام اللغة لا يقل عن تملُّكه لزمام المعاني ، وبصره بجمال أساليبها لا يقل عن بصره بالقوى الكامنة في حقائق الأشياء .

ولمن يكُن يتقن لغة أجنبية إلا أطرافاً من الفرنسية ليس فيها غناء ؛ ولكنه وجد في موارده الداخلية ما يعوِّض هذا النقص ؛ بل ما جعله يتقدم بطرائف فكره كثيرين ممن تعمقوا الآداب الغربية وأفادوا من كنوزها المعنوية .

وحقّاً قد يجري الغموض والالتواء في جوانب من كتابته ، وهما طبيعيان لمثل هذا الكاتب الذي كان يسرف في التعمق والتغلغل في معانيه إسرافاً تنوء به

اللغة ؛ فلا تنهض بما يريد أحياناً ؛ غير أنها حين تواتيه يجتمع لتعبيره جلال الإدراك العقلي وجمال الأسلوب اللفظي ؛ إذ كان له ذوقٌ مُهذَّبٌ مُصفًّى ؛ وحسٌّ دقيقٌ مُرهفٌ ؛ وعقلٌ يقتدر على التجريد والتوليد والنفوذ إلى العلاقات والدلالات البعيدة .

وهو في مقالاته بـ « وحي القلم » يستلهم دائماً مُثله الإسلامية مُستضيئاً بها في كل ما يكتب، كما يستلهم مُثله العربية الرفيعة ؛ بحيث يمكن أن نلقبه « كاتب الإسلام والعروبة » ؛ واقرأ له مقالاته : « الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام » و « الإنسانية العُليا » و « الله أكبر » و « وحي الهجرة »، وغير ذلك من مقالات إسلامية ؛ فستراها حافلة بمعانٍ تملأ النفس إعجاباً .

وحين تراءت محنة فلسطين في الأُفق وقف يستصرخ المسلمين للذود عن هذا الوطن المُقدَّس وأهله من العرب أمام اليهود الجشعين ؛ داعياً إلى جهادهم وجهاد المستعمرين من ورائهم بأسلوبٍ ناريٍّ مُتأجِّجٍ، وقد جعل عنوان هذا الاستصراخ « أيُّها المسلمون » ؛ وفيه يقول :

« ابتلوهم باليهود يحملون في دمائهم حقيقتين ثابتتين من ذُلِّ الماضي وتشريد الحاضر ؛ ويحملون في قلوبهم نقمتين طاغيتين : إحداهما من ذهبهم ؛ والأخرى من رذائلهم ؛ ويخبئون في أدمغتهم فكرتين خبيثتين : أن يكون العرب أقلية ؛ ثم أن يكونوا بعد ذلك خدم اليهود !!.

في أنفسهم الحقد ؛ وفي خيالهم الجنون ؛ وفي عقولهم المكر ؛ وفي أيديهم الذهب الذي أصبح لئيماً لأنه في أيديهم !!.

يقول اليهود: إنهم شعب مضطهد في جميع بلاد العالم، ويزعمون أن من حقهم أن يعيشوا أحراراً في فلسطين؛ كأنها ليست من جميع بلاد العالم !!.
وقد صنعوا للإنجليز أسطولاً عظيماً لا يسبح في البحار؛ ولكن في الخزائن !!.
وأراد الإنجليز أن يطمئنوا في فلسطين إلى شعب لم يتعود قط أن يقول: أنا.
ولكن لماذا كنستكم كل أمة من أرضها بمنكسة أيها اليهود ؟!!؛ أجهلتم الإسلام ؟!!؛ الإسلام قوة كتلك التي توجد الأنياب والمخالب في كل أسد؛ قوة تخرج سلاحها بنفسها؛ لأن مخلوقها عزيز لم يوجد ليؤكل، ولم يخلق ليذل؛ قوة تجعل الصوت نفسه حين يزمجر؛ كأنه يعلن الأسدية العزيزة إلى الجهات الأربع؛ قوة وراءها قلب مشتعل كالبركان؛ تتحول فيه كل قطرة دم إلى شرارة دم؛ ولئن كانت الحوافر تهيئ مخلوقاتها ليركبها الراكب؛ إن المخالب والأنياب تهيئ مخلوقاتها لمعنى آخر؛ لو سُئلت: ما الإسلام في معناه الاجتماعي ؟؛ لسألت: كم عدد المسلمين ؟؛ فإن قيل: ثلثمائة مليون، قلت: فالإسلام هو الفكرة التي يجب أن يكون لها ثلاثمائة مليون قوة.
أيها المسلمون !! كونوا هناك؛ كونوا هناك مع إخوانكم بمعنى من المعاني.».

ويصرخ بنفس الصوت في شباب العرب ناعياً عليهم قعودهم عن كفاح المستعمرين وجهادهم !!، وانحصارهم في طعامهم وشرابهم ولذّاتهم !!؛ يستثير بذلك عزائمهم؛ حتى يضربوا عدوهم الضربة القاضية، وفي تضاعيف ذلك يقول:

« ألا إن المعركة بيننا وبين الاستعمار معركة نفسية ؛ إن لم يقتل فيها الهزل قُتل فيها الواجب ، والحقائق التي بيننا وبين هذا الاستعمار إنما تكون فيكم ، أنتم بحثها التحليلي ، تكذب أو تصدق .

يا شباب العرب !! لم يكن العسير يعسر على أسلافكم الأولين ؛ كأن في يدهم مفاتيح من العناصر يفتحون بها !! ؛ أتريدون معرفة السر ؟!! ؛ السر أنهم ارتفعوا فوق ضعف المخلوق ؛ فصاروا عملاً من أعمال الخالق ؛ غلبوا على الدنيا لما غلبوا في أنفسهم معنى الفقر ومعنى الخوف والمعنى الأرضي ، وعلّمهم الدين كيف يعيشون باللذات السماوية التي وضعت في كل قلب عظمته وكبرياءه ؛ واخترعهم الإيمان اختراعاً نفسيّاً ؛ علامته المُسجَّلة على كل منهم هذه الكلمة : لا يذل .

هكذا اخترع الدين إنسانه الكبير النفس الذي لا يقال فيه : انهزمت نفسه .

يا شباب العرب !! كانت حكمة العرب التي يعملون عليها :

(اطلب الموت تُوهَب لك الحياة)

والنفس إذا لم تخشَ الموت كانت غريزة الكفاح أول غرائزها تعمل .

وللكفاح غريزة تجعل الحياة كلها نصراً ؛ إذ لا تكون الفكرة معها إلا فكرة مقاتلة .

غريزة الكفاح يا شباب هي التي جعلت الأسد لا يُسمَّن كما تُسمَّن الشاة للذبح .

وإذا انكسرت يوماً فالحجر الصلد إذا تَرَضْرَضَتْ منه قطعة كانت دليلاً

يكشف للعين أن جميعه حجر صلد .

يا شباب العرب !! إن كلمة (حقّي) لا تحيا في السياسة إلا إذا وضع قائلها حياته فيها .

فالقوة القوة يا شباب !! القوة الفاضلة المتسامية التي تضع للأنصار في كلمة (نعم) معنى نعم ، القوة الصارمة النفّاذة التي تضع للأعداء في كلمة (لا) معنى لا .

يا شباب العرب !! اجعلوا رسالتكم : إما أن يحيا الشرق عزيزاً ؛ وإما أن تموتُوا .)) .

ودائماً ينفخ في روح الشباب المصري ؛ مُوقظاً فيه حميَّته لوطنه ؛ حتى ينقض كالأسد الكاسر على الإنجليز ويذيقهم وبال استعمارهم - إن كل مصري ينبغي أن يتحول شعلة آدمية تأتي عليهم كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ؛ إنه لم يبقَ لهم إلا لحظات وأنفاسها ؛ فقد اتقدت الشعل ؛ وسيرون عما قريب مسَّها وتحريقها ؛ ويومها يُولُّون على أعقابهم نادبين مولولين .

واقرأ له في ذلك مقالاته : ((أجنحة المدافع المصريَّة)) و ((الطماطم السياسي)) و ((المعنى السياسي في العيد)) ؛ يقول :

((ليس العيد إلا إشعار هذه الأُمَّة بأن فيها قوة تغيير الأيام ؛ لا إشعارها بأن الأيَّام تتغيَّر .

ألا ليت المنابر الإسلامية لا يخطب عليها إلا رجال فيهم أرواح المدافع ؛ لا

رجال في أيديهم سيوف من خشب .)) .

وتشغله في كثير من مقالاته قضية المرأة، ونراه يقدم لها النُّصْحَ دائماً بروح المسلم المحافظ على تقاليده الدينية؛ واسترعته حياتها الجديدة على شواطئ الإسكندرية صيفاً؛ فوصف هذه الحياة في مقالين بعنوان ((لحوم البحر)) و ((احذري))؛ أدارهما على أنشودتين لشيطان وملاك، لاعناً للرذيلة وداعياً إلى الفضيلة، ومُحَذِّراً المرأة من أن تُخدع عن نفسها وتتعرّى من ثيابها أمام الصقور الجائعة؛ فتجلب على نفسها العار الذي يزلزل كيان أسرتها زلزالاً عنيفاً !!.

ويُفسح في مقالاته لآلام البؤساء والمُشرَّدين وأسقامهم، ويئنُّ بصوت الإنسانية الرحيم؛ حتى لكأنه المُشرَّد أو البائس الذي يصفه، وتتدفق عليه أنّات البشرية وعبراتها من كل صوب؛ ومن خير ما يصور ذلك عنده مقالته ((أحلام في الشارع))؛ وفيها يصور بؤس طفل مُشرَّدٍ وأخته رآهما نائمين على عتبة ((بنك)) يفترشان الرخام البارد ويلتحفان السماء، فأنَّ وأعول في أنينه !!.

وبهذا الشعور الرقيق نراه يصف جمال الطبيعة في غير مقال؛ فيكسبها من روحه جمالاً فوق جمالها، ويزيدها بصناعته حُسناً فوق حسنها .

يقول في مقالة بعنوان ((الربيع)):

((في الربيع تظهر ألوان الأرض على الأرض، وتظهر ألوان النفس على

النفس، ويصنع الماء صنيعه في الطبيعة؛ فتخرج تهاويل النبات، ويصنع الدم صنيعه؛ فيخرج تهاويل الأحلام؛ ويكون الهواء كأنه من شفاه متحابة؛ يتنفس بعضها على بعض؛ ويعود كل شيء يلتمع لأن الحياة كلها ينبض فيها عرق النور؛ ويرجع كل حي يُغنِّي؛ لأن الحُبَّ يريد أن يرفع صوته.)).

ونراه في بعض مقالاته يُصوِّر مُثله الخاصة في الشعر، وأكبر الظن أنه قد اتضحت لنا شخصية الرافعي في مقالاته وأدبه بكل خصائصها الروحية والعقلية واللغوية؛ فقد كان يُؤمن بِمُثُل الإسلام والعروبة والوطنية، وكان يُحسُّ كل ما حوله من طبيعة وغير طبيعة؛ وقد استطاع أن يمتلك ناصية اللغة وأن يُصرِّف ألفاظها في يده كما يشاء؛ وأعانته على ذلك كله عُزلة ضربها الصَّمَم من حوله؛ فإذا هو يخلص لعالمه الباطني؛ يغوص فيه على المعاني الدقيقة فيبرزها؛ وكان لا يزال يتعمقها حتى يحدث فيها ضرباً من الفلسفة المنطقية؛ وكان ذلك من أهم الأسباب في غموضه والتوائه أحياناً.

والذي لا شك فيه أنه كان يكتب في حذر شديد؛ فهو لا يكتب كل ما يفد على ذهنه؛ بل مازال ينتخب ويختار؛ ينتخب المعاني ويختار الألفاظ محتاطاً في ذلك أشد الاحتياط؛ وكأنه لم يكن يريد أن يكون أديباً فحسب؛ بل كان يريد أن يكون أديباً مُمتازاً بفكره العميق وعبارته الدقيقة؛ ومن ثَمَّ آثر في أدبه ومقالاته الجهد العنيف والعناء الشاق؛ حتى يصبح حقاً من راضة المعاني وصاغة الكلام. ✤.



.....

۞ـ فَائِدَة :

جاء فى كتاب « المعارك الأدبيَّة » للأُستاذ أنور الجندى « ت ١٤٢٢هـ » ؛

[ص: ٧٣ـ ٨١]:

۞ـ تمصير اللُّغة العربيَّة :

۞ـ بين مُصطفى صادق الرافعيِّ ولطفي السيِّد

هذه معركة من أخطر المعارك التي واجهت اللغة العربية ، ومن أقدم المعارك الأدبية ؛ فقد حمل لطفي السيد عام ١٩١٣ في الجريدة لواء الدعوة إلى تمصير اللغة العربية ؛ فكتب أكثر من سبع مقالات في خلال شهري أبريل ومايو ١٩١٣ ؛ وكتب عدد من تلاميذه مقالات متعددة كـ : هيكل ، وطه حسين ، وغيرهما .

ولقد كانت مداخل البحث عند لطفي السيد بارعة دقيقة ؛ فهو لم يفاجئ القارئ في هذا الوقت المبكر بالحملة على اللغة العربية ، أو الدعوة إلى ترك الكتابة بها إلى العامية ؛ وإنما تسلل إلى ذلك بطريقة فيها كثير من المداورة ، وقد لخصنا هنا عبارته تلخيصاً أميناً حتى تبرز صورة التيار الذي جرى فيه القاضي وليم موير من قبل وقاسم أمين ووليم ولكوكس وسلامة موسى من بعد .

ولقد وقف عبد الرحمن البرقوقي ومصطفى صادق الرافعي لهذه الدعوة

موقفاً حماسيًّاً جريئاً ؛ حملا فيه لواء الاتهام ؛ مؤمنين بأن القضاء على اللغة قضاءٌ على مُقدَّسات الفكر العربي والإسلامي .

ولقد كان للغة العربية قضية طويلة عريضة ، ومعارك متعددة ، بين حماتها وخصومها ، وكان للدعوة التغريبية التي كانت تجتاح العالم العربي في فترة ما بين الحربين أثرها في محاولة خلق لغات إقليمية مصرية وسورية وعراقية ومغربية للقضاء على اللغة العربية وإدخالها إلى المتحف أسوة باللغة اللاتينية .

ولكن هذه المحاولات المتعددة فشلت وانتصرت اللغة العربية وبقيت .

ـ آراء لطفي السيِّد في تمصير اللغة العربيَّة :

١ـ لغتنا واسعة في القاموس ؛ ضيقة في الاستعمال ، مخصبة في المعاني والمسميات القديمة ؛ مجدبة في المعاني الجديدة والاصطلاحات العلمية ؛ قد انقطع رُقيها من قرون طويلة ؛ فوقفت عند الحد الذي وصلت إليه أيام النهضة العباسية ؛ فهي الآن لأننا هجرناها في المحادثة إلى لهجة غير مصرية ولحن غير مغتفر صارت تراكيبها غير مصقولة على الألسن ولا حية بالاستعمال .

٢ـ الأوتومبيل والبسكليت والجاكيته والبنطلون والجزمة والموضة ؛ كل هذه الأسماء ما ذنبها حتى تهجر في الكتابة إلى غيرها من الألفاظ التي نحاول انتحالها مع التكلف لنعبر بها عن هذه المسميات ؟!! ؛ إن هذه الأسماء

الأعجمية وأمثالها قد دخلت لغتنا دخولاً تاماً واستُعملت استعمالاً شائعاً بحيث لا نستطيع أن نضع لها ولغيرها من المسميات الجديدة أسماء جديدة لا يُعتدُّ بها ولا يستعملها إلا بعض الكُتَّاب ؛ إننا لو اخترعنا أسماء للمسميات الجديدة لنستعملها في الكتابة وحدها من غير أن تدخل في أحاديث العوام ولا في أحاديث الخاصة أنفسهم ؛ لكُنَّا عاملين بذلك على توسيع مسافة الفرق بين لغة الكتابة ولغة الكلام ؛ وذلك مؤخر للغة البيان والفصاحة للتقدم من جميع الوجوه .

ولا أُراني أعرف سبباً في الرغبة عن المألوف المشهور إلى ابتكار غيره إلا حُب الإغراب ؛ وإلا فما الذي ينفعنا من زيادة الأزمة اللغوية حرجاً وإدخال التعقيد على البيان العربي الموجود بالفعل والذي نستعمله نحن أبناء اللغة وأبناء العرب ؟!!

سيُقال : إننا في جيل إحياء اللغة بعد مواتها فعلينا أن ننحت من اللغة وعلى موازين اللغة أسماء للمسميات الجديدة حتى لا ندخل الغريب في لغتنا .

هذا كلام طيِّب ؛ ولكن لدينا لإحياء اللغة العربية وجعلها لغة العامة ، ينطقونها صحيحة معربة كما كان يفعل آباؤنا الأولون ؛ لدينا عقبات لا يسهل تخطيها ؛ فلو حاولنا التمسك بالكمال والتزمنا في إحياء اللغة هذا التخرُّج المُتعب ، وقسمنا مجهودنا بعضه لتصحيح بناء الكلمات التي فسد بناؤها على لسان العوام ، وبعضه لإصلاح الأسلوب العربي ، وبعضه لتعليم الإعراب وضبط أواخر الكلمات على قواعد اللغة ؛ لأضعنا مجهودنا الموزع

من غير أن تجيء فائدة كبرى ؛ وأضعنا الوقت في الاشتغال باللغة عن نتائج البيان ؛ وهي العلوم والمعارف ؛ ويكفينا أن نتمسك بشخصية لغتنا والمحافظة على الموجود منها إلى الآن في الاستعمال اليومي ونحيي قواعد الإعراب .

في لغتنا أسماء أعجمية كثيرةٌ جداًّ لم يُخِل وجودها بالفصاحة ولا بالبلاغة ؛ فإن بعضها قد وُجِدَ في القرآن وهو المعجز بفصاحته وبلاغته إلى الأبد .

بل لقد أخذ آباؤنا بعض الألفاظ الأعجمية واستعملوها مع وجود مرادفها في اللغة العربية ؛ ثم هجروا العربي وقصروا استعمالهم على الأعجمي .

واجبنا أن نطرح هذه المشاعر الساذجة ؛ مشاعر الامتعاض من استعارة الأسماء الأجنبية للغتنا .

لذلك نرفع النصيحة لزملائنا الكُتَّاب أن يتساهلوا في قبول المسميات الأوربية ويدخلوها في الاستعمال الكتابي كما أدخلها الجمهور في المخاطبة .

٣ـ الأسماء الجديدة ما لها ؟!! ؛ لو أخذناها « ذي ما هيه » فنيت في لغتنا واتبعت أوزانها وجرت عليها أحكام الإعراب ؛ فأصبحت عربية بالزمان .

ما لنا لا نعتبر لغتنا كالعلم نزيد عليها كل جديد بمقدار الحاجة ؟!! ؛ ما لنا لا نزيد على أسمائها أسماء المخترعات الحديثة في العلم وفي الفنون والصناعة والتجارة ؟!!

نحن نعمل ذلك بالفعل ولكننا نذكره بالقول ؛ فالذين يأبون علينا إدخال الضروري من الكلمات الأجنبية يكتبون بأيديهم : (التلغراف) و(التليفون) بغاية السهولة ، كما يكتبون (الورد) الذي هو ليس عربيّاً ؛ والأُمَّة سائرة على

هذا النمط من التطور ؛ فهي تعرف « الكمبيالة » ولا تعرف « السفتجة » ولا يقف في طريقها عائق ؛ غير أن خمسة أو ستة من الكُتَّاب هم الذين لا يريدون الاعتراف بهذه الحقيقة ؛ وتقف أقلامهم عند كتابة أسماء المخترعات الحديثة إذا لم يجدوا تسمية سعيدة !!.

اللغة ملك الأُمَّة ؛ وللكُتَّاب الحرية في الزيادة عليها بأساليب جديدة وألفاظ جديدة إذا قبلها الجمهور وراجت وأصبحت من لغة الأمة .

سيقولون : هذا المبدأ يدعو إلى الفوضى !! .

ربما كان ذلك ؛ ولكن الفوضى واقعة لا محالة في زمن الانتقال الشديد الذي نحن فيه ؛ ولا بأس بالفوضى إذا كانت لازمة لحال التطور وصارفة لنا عن هذا الجمود الذي نحن فيه .

سيقولون : وما الذي يمنع من تأليف المجمع اللغوي من اليوم ؟!!

نقول : إن كل عمل عام -لا تقتضيه حاجة الأمة اقتضاءً تامًّا ؛ إنما هو عملٌ صناعيٌّ عقيم النتيجة ؛ وقد تألف المجمع اللغوي ثلاث مرات ولم يفلح ؛ فكان فشله دليلاً على أنه غير ضروريٍّ لحياة الأمة ؛ أو على الأقل إن الأمة لا تراه ضرورياً لها الآن ؛ وإلا لحُكم له بالبقاء .

إن الخروج باللغة من جمودها إلى طور جديد لابُدَّ فيه من الفوضى الموصلة إلى الطور الراقي المتفق مع أطماع الأمة عن التقدم في كل شيء إلى الأمام .

لا حرج على الكاتب أو المترجم أن يستعمل من الألفاظ ما شاء لما شاء من المعاني ، وكلما توسَّع الكاتب في استعمال ألفاظ كثيرة كان ذلك إحياء بذلك

عامل من عوامل الجامعة الإسلامية ؛ والثاني أن تصحيح الألفاظ العامية المصرية واستعمالها في الكتابة معطل للغة العربية الفصحى .

إننا لسنا من أنصار هذه الجامعة المتخيلة بوصف كونها دينية ؛ لاقتناعنا بأن أساس الأعمال السياسية هو الوطنية وروابط المنفعة .

ما نقترحه ليس من شأنه أن يعطل اللغة العربية الفصحى ؛ بل يزيدها فصاحة ويسرع في تطورها ولا يبقى منها إلا استعمال ألفاظ لا حاجة لنا بها ولا مانع يمنع من استعمالها في الشعر عند الوزن .

.....

ـ الرَّدُّ على لُطفي السيِّد :

١ـ رَدُّ عبد الرحمن البرقوقي صاحب مجلة البيان :

ليس من يُنكر على الأستاذ الكبير أحمد لطفي السيد مدير الجريدة الغرَّاء عبقريته ونبوغه وأنه من الأفذاذ المعدودين ؛ وقد يعرف قُرَّاء البيان ما أثارته براعته الجبَّارة منذ ثلاثة أشهر حول مسألة اللغة ؛ والأخذ والرد الذي دار بينه وبين معارضيه ؛ والشجار الذي استطار بين الفريقين وامتد ؛ ومع ذلك انتهى إلى حيث ابتدأ ؛ شأن كل مسألة يتنازعها ؛ والمستقبل وحده هو الكفيل بفصل الخطاب وحل الإشكال فيها .

أما المسألة ؛ فمنها ما يدور حول الأسلوب الكتابيِّ ؛ وهل الرأي أن يكون أسلوبنا كأسلوب العرب الأولين ؛ أسلوب الشعر الجاهلي والقرآن والحديث ؛ أو أن نكتب بأسلوب مصبوغ باللون الأُمِّيِّ ؛ فيكتب المصريون

بلغة مصرية يشترك في فهمها خاصة المصريين وعامتهم ؟

هذا أحد شطري المسألة .

وشطرها الآخر يدور حول المُفردات التي يتألف منها الأسلوب ؛ وهذا يتشعب إلى مسألتين خلافيتين:

- أولاهما: هل نضع للمسميات الحديثة أسماء عربية في مبادئها وأوزانها ؛ أو ننقل أسماء هذه المسميات من لغتنا الأجنبية بعد تهذيبها وجعلها بحيث لا تناكر الأوزان العربية ؟

وقد رأيت أن من واجب « البيان » الذي رصد نفسه للغة العربية وأدبها أن يخوض في هذا الموضع الهام مع الخائضين ؛ وهذه كلمة صديقنا النابغ الأديب السيِّد مصطفى صادق الرافعيّ:

- تمصير اللغة

رد على لطفي السيِّد

بقلم مُصطفى صادق الرافعيٌ

نُريد بهذا التمصير ما ذهبت إليه أوهام من الفضلاء يرون أن تكون هذه اللغة التي استحفظوا عليها مصرية، بعد أن كانت مُضرية ؛ وأن تطرد لهم مع النيل بعدد الترع عداد القرى حتى ترسل الكلمة من الكلام فلا يجهلها في مصر جاهل، ويصدر الكتاب من الكتب فيجري من أفهام القوم في طريقة واحدة ويأخذ منهم مأخذاً معروفاً غير متباين بعضه من بعض ولا ملتو على فئة دُون فئة .

ومن ثم يُزيِّن لهم الرأي أنه لا يبقى في هذا الجم الغفير من علمائنا وكُتَّابنا وأدبائنا من لا يعرف أين يضع يده من ألفاظ اللغة ومستحدثاتها إذا هو كتب أو مصَّر عن لغة أجنبية .

ولا نقول عرب ؛ فإن هذه بالطبع غير ما نحن فيه ؛ بل يأخذ من تحت كل لسان، ويلقف عن كل شقة، ولا يبعد في التناول إلى مضطرب واسع، ولا يمضي حيث يمضي إلا مخففاً عن هذه القواعد وتلك الضوابط العربية ؛ إذ تتهاون يومئذٍ العدوتان : هذه العامية وهذه الفصحى ؛ وتصلحان بينهما صُلحاً أن لا ترفع إحداهما في وجه الأخرى قلماً ولا لساناً .

وعلى أن تُبيح كلتاهما للثانية حرية الانتفاع بما يشبه حرية التجارة إلا في المواد المضرة التي يُعبِّر عنها دعاة السياسة اللغوية بالألفاظ العامة المبتذلة والألفاظ العربية الغريبة، ثم على أن لا تحفل إحداهما ما تركت الأخرى سوى ذلك فتستمر العامية على ما هي وتذهب الفصحى على وجهها .

إنما تلك آراء كان يتعلق عليها بعض فتياننا إفراطاً في الحميَّة ؛ ومُبالغةً في الحفيظة لمصر ؛ وأملاً مما يكبر في صدورهم ؛ على ما ترى من تهافتها وضعف تصريفها ؛ فكان ذلك عذر العقلاء إذا مروا بها لماماً وتروحوا بالإعراض عنها سلاماً ؛ حتى تناولها الأستاذ مدير الجريدة ؛ فحذفها وسوَّاها وأخرج منها طائفة من الرأي تصلح أن تسمى عند المارضة رأياً ؛ فقال بالإصلاح بين العامية والفصحى على طريقة تجعل هذه تغتمر تلك وتُحيلها إليها .

إن مجمل هذا الرأي ومستجمعه أن الأستاذ يرى « أخذ أسماء المستحدثات

من اللغة اليومية » وإمرارها على الأوراق العربية بقدر الإمكان ؛ فإن لم يكن لها ثمت أسماء ؛ فمن معاجم اللغة وكتب العلم ؛ إن هذه عنده دون اللغة اليومية ؛ فإن لم يصب ذلك في هذه أيضاً وضع لها الواضع ما شاء، وإن استعمال مفردات اللغة وتراكيبها إحياء للغة الكلام وإلباسها لباس الفصاحة .

هذا هو مُحصَّل رأي الأستاذ ؛ فإن طال عليك ذلك السر ويرمت به جملة ؛ فإن لك أن تدمجه في كلمتين ؛ ذلك أن الأستاذ يرى « تمصير اللغة » ؛ لأننا إذا تابعناه فإنما نلمس كل ما أشار إليه من العامية المصرية وحدها ، ونعطي هذه العامية سعة أنفسنا وبذل أقلامنا فنلبسها الفصيح ونخلط منهما عملاً صالحاً وآخر سيِّئاً .

ولعل هذا الرأي أن يشيع من ناحيتنا ويطمئن في كل أمة لها عربية فتأخذ مأخذها في عاميتها وتنزع إلى ما تذعن إليه ؛ فإذا أمكن أن يتفق ذلك وأن تتوافى عليه الأمم ؛ كان لعمري أسرع في فناء العربية ؛ وجدا عليها شؤم هذا الرأي ما لا يجدو تألب الأعداء لو استأصلوا أهلها وبلغ منها ما لا يبلغه الفاتحون ولو ملكوا تلك الأرض كلها !! ؛ ثم نحن نتسامح في استعمال المفردات والتراكيب العامية وسينقاد لذلك من بعدنا ، ثم من بعدهم إلى أجيال بعيدة ويتراخى بعضنا عن بعض ؛ فيوشك أن يأتي يوم تكون فيه تلك اللغة الفصحى ضرباً من اللغات الأثرية في كتابها الكريم ؛ لأننا لا ننظر في الترخص منه الآن من كلمات معدودة صدرت بها « قرارات الأُمَّة » أن لا

تزال على وجه الدهر عامية ؛ ولكننا ننظر إلى الأصل في قاعدة التسامح والترخيص ؛ فإذا ثبتناه وأخذ به غيرنا ولم يكن عندنا لذلك نكير؛ فما أشبه ما أن تكون كالقاعدة الاستعمارية التي تبتدئ بالتسامح للمستعمرة والغزاة في أخذ الشيء القليل ثم ينتهي بالتسامح في كل شيء !! .

ـ لا نفهم كيف يكون إحياء العربية باستعمال العامية ؟!! ؛ وكيف نروض لغة القرآن التي تأبى إلا أن تتقيد بها اللهجات الأخرى كما محت من قبل لغات الغرب جميعها على فصاحتها وقوة الفطنة في أهلها وردتها إلى لغة واحدة هي القرشية ؟!! ؛ ثم نرضى من جهة أخرى هذه اللهجات العامية التي تأبى أن تتقيد بشيء ؟!!

ـ إذا حاولنا مذهب الإصلاح العاميّ ؛ فليت شعري أي لهجة نأخذ وأي لهجة في مصر هي غير مصرية فننبذها ؟!!

ـ نحن لا نماري في وجوب الإصلاح اللغوي ؛ ووجوب أن يكون للغة في هذه النهضة مجمع يحوطها ويضع لها ولو على الأقوال كمصلحة الكنس والرش ؛ ولا نقول إن هذه اللغة كاملة في مفرداتها .

إنه لا يُقيِّضنا من اللغة شيء وهي على ما هي من أحكام الأوضاع والتراكيب والاتساع للمفردات ؛ ولو أقبلت كأعناق السيل ؛ ولكن يقتضي هذه اللغة رجال يعملون ويحسنون إذا عملوا .

على أنه إن يكن في رأي التمصير خير فليس يقوم خيره بشؤمه ، وهب أن أمراً من ذلك كائن ، وأننا أجرينا التراكيب العامية في الفصيح ، أقحمنا

مفردات القوم في اللغة، ومكّنا للعامة على ما يتوهمون من مقاليد الكلام وأتبعناه مقادتهم؛ فما أجداه ذلك عنهم؛ وماذا يرد على الأُمّة ؟!!
لا سبيل لتمصير العربية واعتبار هذه المصرية أصلاً لغويّاً مُجمعاً عليه إلا بتمصير الدين الإسلامي الذي يقوم على هذه العربية !! ؛ فإن بعض ذلك سببٌ طبيعيٌ إلى بعضه؛ فمن كشف لنا عن الوجه الذي يكون به الدين مصريّاً وطنيّاً بأسباب ذلك ونتائجه قُلنا له: أخطأنا وأصبت ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ . ✂ .



.....

✿ - فَائِدَة :

وجاء في [ص : ٢٠٥- ٢١٢] من كتاب « المعارك الأدبيَّة » :

✿ - معارك الأسلوب والمضمون :

✿ - الأُسْلُوب وَالمَضْمُون

بين الرَّافعيِّ وسلامة مُوسى وطه حُسين

.....

كانت معركة « المضمون » في الأدب من أبرز معارك الأدب بين معسكر المحافظين والمجددين ، وقد تمثلت هذه المعركة في عدة مساجلات ، بدأت بهذه المساجلة عام ١٩٢٥ في الهلال عندما كتب سلامة موسى عن أديب الفقاقيع يقصد أدب مصطفى صادق الرافعي ؛ وقد دخل الرافعي المعركة وأعلن وجهة نظر ، ثم كتب طه مهاجماً للرافعي ؛ ولكن الرافعي لم يلبث أن تحول عن أسلوبه التقليدي إلى أسلوب وسط فيه محاسن الأسلوب القديم مع العناية بالمضمون .

.....

✿ - أدب الفقاقيع

سلامة موسى

أُدباء الصنعة يكتبون وكل همهم محصور في تأليف استعارة خلابة أو مجاز جميل أو كتابة بارعة أو غير ذلك من الفقاقيع ، فإذا أراد أحدهم أن يؤلف

كتاباً أو يضع مقالة لم يعن أقل عناية بالموضوع الذي يكتب فيه، وإنما يعمد إلى الفقاقيع فيؤلف منها عبارات خلابة فيتوبل بها إنشاءه أو يرصها رصاً ؛ وكثيراً ما يعجز أمثاله عن تأليف عبارة من إنشائهم الخاص .

وهكذا يعيش كُتّاب الصنعة هذه الأيام بما خلّفه لهم الأقدمون يتداولون الصيغ القديمة في الأداء ويجترونها اجتراراً كما تجتر البهيمة طعامها طوال حياتهم، أو يقضون وقتهم في العبث واللهو بتأليف السجعات والاستعارات والتشبيهات، ولست أنكر أن لهذه الأشياء جمالاً ؛ ولكنه جمال الفقاقيع والزَّبَد الذي يذهب جُفاءً عندما تسطو عليه أشعة الشمس أو تهفو به الريح .

كُتّاب الصنعة يكرهون الفلسفة والعلوم ؛ وقد قالها أحدهم ـ المنفلوطي ـ ؛ وربما كان أقلهم صنعة : « ما دخلت الفلسفة أيّاً كان نوعها على عمل من أعمال الفطرة إلا أفسدته . » .

وهذه نزعة خطيرة نطلب أن يعمد رجال الذهن في جميع البلاد العربية إلى وقفها بكل الوسائل ؛ يجب أن نحبب تلاميذنا في الفلسفة والعلوم ونكرههم في فقاقيع الاستعارات والكتابات .

وهذا كاتب يضع كتاباً على الحب والجمال ـ يقصد كتاب مصطفى صادق الرافعي « السحاب الأحمر » ـ ويبدأ الفصل الأول منه بوصف فقاعة هي نضاب قلم مصنوع من زجاج ويحتوي على مداد أحمر ويباع بالقاهرة بنصف قرش ؛ فيكتب عن هذا النضاب عدة صفحات ويستوحي منه

التأملات والخواطر في الحب والجمال ؛ فهو كاتب صنعة لا يبالي إلا برنين ألفاظه وخلابة استعاراته ؛ وهذا لعمري هو اللهو واللعب ؛ فإن للأدب غاية ؛ وغايته هي صلاح الناس وهديهم وكشف حقائق هذا الكون والتمتع بجمال هذه الحقائق .

.....

✪ ـ المذهب القديم والمذهب الجديد

سلامة موسى

في مصر وسوريا طبقة من الأدباء لها عيون من خلف رؤوسها ؛ فإذا نظرت لم تر سوى الماضي ، ثم هي مع ذلك لا ترى كل الماضي ، وهي لو استطاعت أن تفعل ذلك لكان لها من ذلك بصيرة بالحاضر والمستقبل .

وأجل ؛ لو كانت هذه الطبقة تنظر إلى الماضي خلال تلسكوب العلوم الحديثة لاستطاعت أن تقرأ لغة الطبيعة وتدرك أن روح العالم هي روح نشوء وتطور .

تقول هذه الطبقة : إن الأديب لا مندوحة له إذا أراد أن يكون أديباً حصيفاً أن يقلد العرب ويحتذي كُتَّابهم في أساليبهم ومراميهم .

ومن هذه الطبقة ؛ بل وفي رأسها نضع الأستاذ مصطفى صادق الرافعي والأستاذ الأمير شكيب أرسلان .

ومن المستطاع أن يحلل الإنسان هذه « الوطنية الأدبية » ؛ وأن يردها إلى أصولها في ذلك العقل الباطن الذي يخلط بين الدين والقومية والأدب

العربي ، فالخروج عن المألوف في الأدب العربي يوهم أفراد هذه الطبقة بالخروج على الدين والقومية العربية .

الصنعة دون الفن ، وإن الفن هو الجوهر وهي العرض ؛ ونحن الآن بقوة ما ورثناه عن العرب كثيراً ما نعنى بالصنعة ونهمل الفن ؛ فنتعلق بالقشور ونترك اللُّب .

الرافعي يدافع عن المذهب القديم ويقول بأفضلية الأساليب العربية القديمة على أساليبنا الراهنة ؛ هو أيضاً يجيد الصنعة أيما إجادة ؛ ولكنه لا يعنى بالفن ؛ فإذا كتب اتسقت عباراته وانتظمت ألفاظه فأتى بالعجب ؛ ولكن الحقيقة ـ أي الجمال ـ لا تشغله في نظمه أو نثره ؛ هو لا يكاد يؤمن بالعلم ؛ بل لا تجد له أثراً في جميع كتاباته .

.....

✪ ـ دفاعٌ عن المذهب القديم في الأدب الرَّافِعِيُّ

زعم الأستاذ المُفكِّر سلامة موسى أن ما نقول به : من اقتداء العرب في أساليبهم ، والارتياض بكلامهم ، والحرص على لغتهم ، وأن يكون الكاتب في هذه اللغة حسن البيان ، رشيق العرض ، رائع الخلابة ، يثبت في ألفاظه ، وينظر في أعطاف كلامه ، ويفتن في أساليبه ؛ كل هذا وما إليه من مذهبٌ قديمٌ و« وطنية أدبية » ترجع العلة فيها إلى ذلك العقل الباطن الذي يخلط بين الدين والقومية والأدب العربي .

ثم قال : إن أهل المذهب القديم يهملون العلم لأن العلوم تتعارض ومعتقدات العرب .

والظاهر أنه يعنى بالعرب المسلمين لا غيرهم .

فالمذهب القديم إذن هو أن تكون اللغة لا تزال لغة العرب في أصولها وفروعها ، وأن تكون هذه الأسفار القديمة التي تحويها لا تزال حيَّة تنزل من كل زمن منزلة أمة من العرب العظماء ، وأن يكون الدين العربي لا يزال هو كأنما نزل به الوحي أمس ؛ لا يفتننا فيه علم ولا رأي ، وأن يأتي الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين ؛ إذ لا يزال منها شيء كالأساس والبناء لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامها معاً .

العلة في الحقيقة لا ترجع إلى مذهب قديم أو جديد ؛ بل إلى الضعف في لغة والقوة في أخرى ؛ وأن صاحب المذهب الجديد أخذ بالحزم في واحدة وبالتضييع في الثانية ؛ وأكثر من الإقبال على شيء دون الآخر ؛ فتعلق به وأمضى أمره عليه وحسنت نيته فيه واستمكنت فصارت إلى نوع من المعصية للأدب الأجنبي وأهله .

فلما تعطل الزمن وأصبح الأدب صحفيًّاً ، وآلت العربية وآدابها إلى لفيفة في أوراق مدرسية ، وانزوى ذلك العلم المستطيل واستحكمت المكاتب له كالقبور المملوءة بالتوابيت ، وفشت العصبية بيننا للأجنبي ؛ رجع الأمر على مقدار ذلك في صغر الشأن وضعف المنزلة ؛ واحتاج أهل هذا القليل من العربية إلى أن يعتبروه كُلاً بنفسه لا جُزءاً من كله ؛ فكان لذلك مذهباً ؛ وكان

مذهباً جديداً .

فإنك واجد في أهل سنة ١٩٢٣ ـ يقصد جبران خليل جبران ـ من يقول في هذه اللغة : « لك مذهبك ولي مذهبي ؛ ولك لغتك ولي لغتي » ؛ فمتى كنت صاحب اللغة وواصفها ومنزل أصولها ومخرج فروعها وضابط قواعدها ومطلق شواذها ؟!! ؛ من سلّم لك بهذا يُسلّم لك حق التصرف ــ كما يتصرف المالك في ملكه ـ ؛ وحتى يكون لك من هذا حق الإيجاد ومن الإيجاد ما تسميه أنت مذهبك ولغتك ؛ لأهون عليك أن تولد ولادة جديدة فيكون لك عمر جديد تبتدئ فيه الأدب على حقه من قوة التحصيل وتستأنف دراسة اللغة بما يجعلك شيئاً فيها ـ من أن تلد مذهباً جديداً أو تبتدع لغة تسميها لغتك ـ ؛ فإنك عمر واحد بين ملايين من الأعمار في عصور متطاولة وأن ما تحدثه إلى خطأ لا يبقى على أنه صواب ولا ينفي أبداً إلا كما ينفي العلة على أنها علة فلا يقاس عليها أمر الصحيح ولا يحكم بها فيمن لم يعتل .

إن أرادوا بالمذهب الجديد أن يكتب الكاتب في العربية منصرفاً إلى المعنى تاركاً اللغة وشأنها متعسفاً فيها ، آخذاً ما يتفق كما يتفق وما يجري على قلمه يجري .

إن أرادوا بهذا وأشباهه المذهب الأدبي الجديد ؛ قُلنا : لا ؛ ثم لا ؛ ثم لا ـ ثلاث مرّات ـ .

ثم أي خير لأدبنا وعلومنا وكُتبنا أن نحرص على الأصل الصحيح القوي

الذي في أيدينا ونحتمل فيه ضعف الضعفاء ونصبر على مدافعتهم عن إفساده حتى ينشأ جيل أقوى من جيل وتخرج أمة خيراً من أمة، أم ندع الإصلاح للفساد ونتراخى في القوة حتى تحول ضعفاً ؟!!

إن هذه العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم، وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصحاته إلا من لا حفل به من زنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق .

ثم إن فصاحة القُرآن يجب أن تبقى مفهومة ولا يدنو الفهم منها إلا بالمران والمزاولة ودرس الأساليب الفصحى والاحتذاء عليها .

.....

✿ ـ الخصومة بين القديم والجديد في الأدب

طه حُسين

الحق أن ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة الهلال، وأن أبطال هذه الخصومة أكثر من الأستاذين سلامة موسى ومصطفى الرافعي ؛ إن مصدر هذه الخصومة إنما هي صحيفة الأدب في السياسة حول رسالة « أسلوب في العتب » ؛ ذهب فيها الرافعي مذهب المتكلفين من بعض الكُتّاب القدماء ؛ ثم إن المعركة تحولت إلى معارك ثلاث :

١ ـ بين طه حسين والرافعي : السياسة .

٢ ـ بين السكاكيني وشكيب أرسلان : السياسة .

٣ ـ بين الرافعي وسلامة موسى : الهلال .

للأستاذ الرافعي في فصله هذا آراء محتاجة إلى شيء من المناقشة ؛ ومنها ما كان يحتاج إلى شيء من المراجعة قبل أن ينشر ويعلن إلى الناس ؛ انظر إليه مثلاً يزعم أن المذهب الجديد في الأدب ليس في حقيقة الأمر إلا نتيجة لضعف في اللغة والأدب العربي وقوة في اللغة والأدب الأجنبي ؛ وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديد إنما هم قوم ضيَّعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم وأخذوا بنصيب موفور في لغات الإفرنج وآدابهم !!.

نعتقد أن الأستاذ الرافعي يسرف في هذا الحكم ؛ ولعل مصدر إسرافه في هذا الحكم ـ إن صحَّت نظريته ـ أنه أخطأ فهم ما يكتب أنصار المذاهب الغربية ؛ وهو إنما أخطأ الفهم ؛ لأنه أخطأ الذوق ؛ أو هو إنما أخطأ الذوق ؛ لأنه أخطأ الفهم .

ولكن الأستاذ الرافعي معذور على كل حال ؛ فما كان له أن يحكم فيحسن الحكم دون أن يفهم ويذوق ؛ وهو قد يخطئه الفهم والذوق أحياناً فتتخطئه الإصابة في الحكم .

ونظن أن للأستاذ الرافعي حظّاً من الإنصاف ؛ وأنه يرى هنا أن بعض أنصار المذهب الجديد أو الذين يسمون أنصار المذهب الجديد قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا بأس به ؛ وأن قوتهم في اللغة الأجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم في اللغة العربية وآدابها .

إذن فانتصار هؤلاء لمذهب جديد ليس ضعفاً ؛ وليس اعتذاراً لأنفسهم ؛ وليس تعصباً للأدب الأجنبي الذي تفوقوا فيه .

نسمح لأنفسنا بأن نزعم أن لنا في هذه اللغة التي نتكلمها ونتخذها أداة للفهم والإفهام حظاً يجعلها ملكاً لنا، ويجعل من الحق علينا أن نضيف إليها ونزيد فيها كلما دعت إلى ذلك الحاجة، أو قضت ضرورة الفهم والإفهام، أو كلما دعا إليه الظرف الفني؛ لا يقيدنا في ذلك إلا قواعد اللغة العامة التي تفسد اللغة إذا تجاوزناها.

ولولا هذا؛ ولولا أن اللغة ملك لأبنائها يضيفون إليها ويدخلون فيها؛ لما نمت اللغة وعاشت، ولما استطاعت أن تفي بحاجات أهلها التي تتجدد وتتنوع.

والرافعي يسرف في سوء الظن بأوربا وأمريكا، وفي سوء الحكم عليهما؛ ولعل مصدر ذلك أنه لا يقرأ لغة أوربا وأمريكا ولا يفهمها ولا يذوقها؛ فهو يخطئ في الحكم على أوربا وأمريكا.

والرافعي كغيره من أنصار المذهب القديم مشفق كل الإشفاق على القرآن الكريم وعلى الإسلام أن يصيبهما من المذهب الجديد شر أو ينالهما ضيم. نُهوِّن على الأستاذ ونُهدِّئ من روعه؛ فليس هناك ما يدعو إلى هذا الإشفاق. ﴾.



المنتخب

من كتابات أديب العربية
مصطفى صادق الرافعى



ـ المُنْتَقَى مِن كِتَاب:

أوراق الورد

مصطفى صادق الرافعى

قَرَأَهُ وَضَبَطَ نَصَّهُ

مُحَمَّد مَحْمُود السَّيِّد أَحْمَد دَخْرُوج



.....

✪ - فَاتِحَة

.....

إنـه ليس معي إلا ظلالها ؛ ولكنها ظلالٌ حيَّةٌ تروح وتجيء في ذاكرتي ؛ وكل ما كان ومضى هو في هذه الظلال الحيَّة كائنٌ لايفنى .

وكما يرى الشاعر المُلهم كلام الطبيعة بأسره مُترجماً إلى لغة عينيه ؛ أصبحتُ أراها في هجرها طبيعة حُسْنٍ فاتنٍ مُترجمةً بجُملتها إلى لُغة فكري !!.

كان لها في نفسي مظهر الجمال ؛ ومعه حماقة الرجاء وجنونه ؛ ثم خضوعي لها خضوعاً لا ينفعني !!... ؛ فبدَّلني الهجرُ منها مظهر الجلال ؛ ومعه وقار اليأس وعقله ... ؛ ثم خضوعها لخيالى خضوعاً لا يضُرُّها .

وما أُريد من الحُبِّ إلا الفن ؛ فإن جاء من الهجر فنٌّ فهو الحُب .

كُلّما ابتعدت في صدِّها خطوتين ؛ رجع إليَّ صوابي خطوة .

لقد أصبحتُ أرى ألين العطف في أقسى الهجر !! ؛ ولن أرضى بالأمر الذي ليس بالرضا ؛ ولن يحسُن عندي مالا يحسُن ؛ ولن أطلب الحُبَّ إلا في عصيان الحُب ؛ أُريدها غضبى ؛ فهذا جمالٌ يُلائم طبيعتي الشديدة ؛ وَحُبٌّ يناسب كبريائي ؛ ودع جُرحي يترشَّش دَمَاً ؛ فهذه لَعَمْرِي قوة الجسم الذي ينبت لمر العضل وشوك المخلب ؛ وما هي بقُوَّةٍ فيك إن لم تقو أول شيءٍ على الألم .

أُريدها لا تعرفني ولا أعرفها ؛ لا من شيءٍ إلا لأنها تعرفني وأعرفها

... ؛ تتكلم ساكتةً وأرُدُّ عليها بسكوتي !!... ؛ صمتٌ ضائعٌ كالعبث !!... ؛ ولكن له في القلبين عملُ كلامٍ طويل !!.

مصطفى صادق الرافعى



.....

✿ ـ تَصْدِير

.....

ـ مُحَمَّد سَعِيد العُرْيَان

.....

كانت قصة حُب ...

ثم انتهت كما ينتهى كُلُّ حُبٍّ بين اثنين تكون الفلسفة والكبرياء بعض عناصر وجوده ؛ وافترق الحبيبان على غير ميعادٍ ؛ وفي نفس كُلٍّ منهما حديثٌ يَهِمُ أن يفيض به ...

وفعل الفراق بالرافعي ما فعل !!... ؛ فأنشأ كتابيه «رسائل الأحزان» و«السحاب الأحمر» يصف فيهما من حاله ومن خبره وما كان بينه وبين صاحبته ؛ فلمَّا استفرغ ما كان في نفسه من خواطر الحُبِّ المُتكبِّر ؛ وَنَفَّسَ عن غيظه بما ذكر من معاني البُغض والهجر والقطيعة ؛ ليخدع بذلك نفسه عمَّا تجد من آلام الفراق ويثأر لكبريائه ـ هدأت ثائرته بعد عُنْفُوان ؛ وفاءت إليه نفسه ؛ واعتدلت مقادير الأشياء في عينيه ؛ فعاد إلى حالةٍ بين الغضب والرضا ؛ وبين الحُبِّ والسُّلْوَان ؛ فاستراح إلى اليأس لولا أَثَارَةٍ من الحنين تنزع به إلى الماضي ؛ وبقيَّةٍ من الشوق واللهفة على ما كان ؛ وفرغت أيَّامه من الحادثة لتمتلئ من بعد بالشِّعر والحكمة والبيان .

ومضت سبع سنين والحياة تذهب به مذاهبها ؛ والذِّكرى تغشاه في خلوته

وتُداعبه في أحلامه ؛ والأماني التي بعثرتها الكبرياء بَدَدَاً في أودية النسيان تتخايل له في شُكُولٍ وألوان ؛ وخواطره من وراء ذلك تعمل ؛ ونفسه الشاعرة تُحسُّ وتشعر وتنفعل بما يتعاقبُ عليها من الرُّؤى والأحلام ؛ حتى اجتمع له ما اجتمع من الخواطر في « أوراق الورد » .



« أوراق الورد » هو طائفةٌ من الخواطر المنثورة فى فلسفة الجمالِ والحُبِّ ؛ أنشأهُ الرافعيُّ ليصف حالةً من حالاتهِ ؛ ويُثبت تاريخاً من تاريخهِ فى فترةٍ من العمر لم يكن يرى لنفسهِ من قبلها تاريخاً ولا من بعد .

.....

ويقول الرافعي إنه جمع في « أوراق الورد » رسائلها ورسائله ؛ أما رسائله فنعم ؛ ولكن على باب المجاز ؛ وأما رسائلها فلا أدرى أين موضعها من الكتاب ؟!! ؛ إلا رسالة واحدة وجُزازات من كُتُبٍ وَنُتَفاً من حديثها وحديثه . بلى ؛ إن فى « أوراق الورد » طائفة من رسائله إليها ؛ ولكنها رسائل لم تذهب إليها مع البريد ؛ بل هى من الرسائل التي كان يُناجيها بها في خلوته ويتحدث بها إلى نفسه ؛ أو يبعث بها إلى خيالها فى غَفْوَةِ المُنَى ؛ ويسترسلُ بها إلى طيفها جلوة الأحلام ؛ إلا رسالتين أو ثلاثاً مما في « أوراق الورد » ... ؛ فلما أتمَّ تأليفها وعقد عقدتها ؛ بعث بها إليها في كتابٍ مطبوعٍ بعد سبع سنين من تاريخ الفراق !!.



ولكن « أوراق الورد » ليس كُلّهُ من وحي حبيبته « فُلانة » ؛ وليست كل رسائله في الكتاب إليها ؛ فهناك « فُلانة » أُخرى : هناك صاحبة « حديث القمر » ؛ تلك التي عرفها في رَبْوَةِ لُبنان منذ تسع عشرة سنة ؛ وهنا هذه ... ؛ هما اثنتان لا واحدة : تلك يستمد من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة معاني الحُبّ التي تمل النفس بأفراح الحياة ؛ وهذه يستوحيها معاني الكبرياء والصد والقطيعة ؛ وذكريات الحُبّ الذى أشرق فى خواطره بالشّعْرِ وأفعم قلبه بالألم .

لقد مضت سبع سنين مُنْذُ أن فارق صاحبتهُ « فُلانة » ؛ كان قلبه فى أثنائها خالصاً لها ؛ ولكنّ فكرهُ كان يدُورُ على معانى الشّعْرِ يلتمسُهُ من هُنَا وهُناك ؛ فلمَّا اجتمع لهُ ما أراد ؛ ضَمَّ « أوراق الورد » إلى أشواكهِ ؛ وأخرجها كتاباً للفنّ أوّلاً ؛ ثُمَّ لها من بعد .

هو كتابٌ ليس كُلّهُ من نبضات قلبهِ الذى كان يعشقُها ؛ ولكن فيه إلى جانب ذلك فكرُ المُفَكّرِ وعقلُ الأديبِ وحيلةُ الفنّان .

بلى ؛ إنّه كان يُحِبُّها حُبّاً لا يتسع القلبُ لأن يشرُك فيه غيرها ؛ فكان (قلبه) لها من دُون النساءِ جميعاً ؛ ولكنّ الذكريات كانت تتوزّع (فكره) ؛ فتُوحى إليه من هُنا ومن هُنالك ؛ ومما يستجِدُّ على خواطره من بعد معانى الحُبّ والبُغض والوُدّ والقطيعة .

هو كتابٌ يُصوِّرُ نفسهُ وخواطرهُ فى الحُب ؛ ثُمَّ يُصوِّرُ فَنَّهُ وبيانهُ فى لُغة الحُب ؛ ثم لا يُصوِّرُ شيئاً من بعد مما كان بينهُ وبين صاحبتهِ على وجهه وحقيقتهِ إلاَّ أن يتدبَّر قارئه ويستأنى ليستخلص معنىً من معنىً على صبرٍ ومُعاناةٍ فى البحثِ والاستقراء .

فأيما رسالة فيها اللهفة والحنين ؛ وفيها التذلُّل والاستعطاف ؛ وفيها تصنُّع الغضب ودعوى الكبرياء ؛ وفيها المُنَى الحالمة تتواثبُ بين السُّطُور فى خِفَّةِ الفراشة الطائرة ؛ وفيها ما فيها من معنى تُحاولُ أن تُمسكهُ فيفلت ـ فهى فصلٌ يُؤدِّى أداءهُ فى قصَّة هذا الحُبِّ العجيب .

وأيما رسالةٍ تصف ما كان فى خلوة نفسٍ إلى نفسٍ ؛ وتقُصُّ فى لُغة الماضى حديث قلبٍ إلى قلب ؛ وتكشف عن سِرِّ الابتسامةِ ومعنى النَّظرة ؛ وتتحدَّث عن جمال الطبيعة وفلسفة الكون ـ فهى ذكرى من الماضى البعيد ؛ كان حُبّاً فى الدَّمِ ؛ فصار حديثاً فى الفكر ؛ ثُمَّ استتبع شيءٌ شيئاً .

وما قرأت من قولٍ مُزَوَّق ؛ وبيانٍ مُنَمَّق ؛ ومعنىً يلدُ معنى ؛ وفكرة تستجرُّ فكرة ؛ وعبارة تتوكأ على عبارة ـ فهو من أداء الفنِّ وولادة الفِكْر .

ولقد تجد رسالة كُلّها حنينٌ ولهفةٌ ؛ أو حادثةٌ وذكرى ؛ أو فَنٌّ من الفن .

ولقد تجد كذلك رسالةً غيرها تجمع هذه الألوان الثلاثة فى قرنٍ ـ ففيها قلبٌ ينبض ؛ وذكرى تعود ؛ وبيانٌ مُرَصَّع .

فإذا عَرِفَ القارىءُ هذه الألوان الثلاثة ؛ وميَّز بعضها من بعض ـ عَرِفَ الكِتاب ؛ وَعَرِفَ صاحبه ؛ وخرج منهُ بشىءٍ .



يبدأ «أوراق الورد» بِمُقدِّمةٍ بليغةٍ في الأدب؛ يتحدَّث المؤلف فيها عن تاريخ رسائل الحُبِّ فى العربيَّة؛ بأسلوب هو أسلوبه؛ وإحاطة هي إحاطته؛ وسعة اطلاع لا تُعرف لغيره؛ وهذه المُقدِّمة وحدها هى بابٌ طريفٌ من أبواب الأدب العربيِّ؛ تُذكِّر قارئها ذلك النهج البارع الذي نهجه الرافعيُّ العالمُ المُؤرِّخ في كتابه «تاريخ آداب العرب»؛ فكان به من أوَّل من كتب فى تاريخ الأدب وآخر من كتب.

وتأتى بعد هذا الفصل مُقدِّمة الرسائل؛ وفيها سبب تسمية الكتاب؛ ثم يمضي في هذه المُقدِّمة يتحدَّث عن حُبِّهِ؛ وآلامه في الحُبِّ؛ ورأيه في الحُب؛ وشىء مما كان بينه وبين صاحبته؛ ثم يتحدَّث عن نهجهِ فى هذه الرسائل؛ وما أراد بها؛ وما أوحاها إليهِ؛ ثم تأتى بعد ذلك فُصُولُ الكتاب مُتتابعة - على ما أوضحتُ طريقها من قبل -: فيها حنين العاشق المهجُور؛ وفيها مُنْيَةُ المُتَمَنِّى؛ وفيها ذكريات السَّالِي؛ وفيها فنُّ الأدبِ وشعر الشَّاعر؛ وفيها من رسائلها ومن حديثها.



من أراد «أوراق الورد» على أنه قصة حُبٍّ في رسائل؛ لم يجد شيئاً.

ومن أراده رسائل وجوابها في معنىً خاصٍّ؛ لم يجد شيئاً.

ومن أراده تسليةً وإزجاءً للفراغ ؛ لم يجد شيئاً .

ومن أراده نموذجاً من الرسائل يحتذيه فى رسائله من يُحِب ؛ لم يجد شيئاً .

ومن أراده « قصة قلب » ينبض بمعانيه على حاليه في الرضا والغضب ؛ ويتحدث بأمانيه عن حاليه في الحُبِّ والسُّلوان ـ وجد كل شئ .



وهو فى الفنِّ فنٌّ وحدهُ ؛ ليس لهُ فى بيانهِ ومعانيه ضربٌ مما أنشأ الكُتَّابُ وأنشد الشُّعراءُ فى معانى الحُب ؛ على أنَّهُ ـ بأسلُوبهِ العنيف ؛ وبيانه العالى ؛ وفكرته السَّامية فى الحُب ـ لا يعرف قُرَّاءهُ فى العربيَّة [مثله] ؛ وكم قارئٍ استهواهُ عُنوانهُ وموضوعه ؛ فتناولهُ بشوقٍ ولهفةٍ ؛ فما هو إلاَّ أن يمضى فيه صفحات قليلة حتَّى تُسلمهُ يُمناهُ إلى يُسراه إلى الزاوية المهجورة من مكتبته ؛ وهيهات أن يعود إليه !!... ؛ وكم قارئٍ كان لا يعرفُ الرافعىَّ الشاعر الثائر العنيف فى حُبِّهِ وبُغضه وكبريائه ؛ فلمَّا قرأ « أوراق الورد » عرفه فاستخلصهُ لنفسهِ ؛ فما يعرفه فى الأدباء إلاَّ أنَّهُ مؤلِّف « أوراق الورد » .

ليتَ شعرى!!... ؛ أفى العربيَّة كُلِّها شاعرٌ يستطيعُ أن ينظم ورقةً واحدةً من « أوراق الورد » ؟!! ؛ أو يجمع معانيها فى قصيدة ؟!!... ؛ أين يكونُ هذا الشاعر؟!! ؛ وأين قُرَّاؤهُ يوم يكون ؟!!.

أرأيت إلى المنجم الذى يمتد فى الأرض ويتغلغل بعروق الذهب ؟... ؛ إنَّهُ

كنز ؛ ولكن من ذا يصبر على المُعاناة فى استخراجه والبُلوغ ؟!!! ؛ إلاَّ أن يكون صاحب أيدٍ وقُوَّة ؟!!!... ؛ إنَّهُ كنزٌ يطلبهُ الجميع!!... ؛ ولكنَّك لن تجد فى الجميع من يقدر على استخلاصه من بين الصُّخُور المُتراكبة عليه وحواليه من طبقات الأرض - إلاَّ الرجُل الواحد المحظوظ الذى يكون معهُ الصبر !!.

إنَّ « أوراق الورد » منجمٌ من المعانى الذهبيَّة ؛ لو عَرِفَهُ المُتأدِّبُون من شبابنا لوضعوا يدهم على أثمن كنزٍ فى العربيَّة فى معانى الحُبِّ والجمال ؛ يكون لهم غذاءً ومادَّةً فى الشِّعْرِ والبيان .

وكان الرافعىُّ - رَحِمَهُ الله - يعتزُّ بـ « أوراق الورد » اعتزازه بأنفس ما أنتج فى أدب الإنشاء ؛ ويُباهى ويفتخر ؛ وما أحسبهُ تعزَّى عن صاحبته بقليلٍ إذ تعزَّى بما لقىَ من النَّجاحِ والتوفيق فى إنشاء « أوراق الورد » .

وكما تجد الأُمُّ سلوتها في ولدها العزيز عن الزوج الحبيب الذي طواه الموت - وجد الرافعيُّ العزاء في أطفال معانيه عن مُطلقته العنيدة !!.

لقد فارقها !!... ؛ ولكنَّه احتواها في كتاب !!.

إنَّ الأُمَّ لا تنسى زوجها الحبيب إذا فارقها وخلَّف بين يديها بُضعةً منه ؛ ولكنها تجد العزاء عنه بشيءٍ منه ؛ وإنَّ قلبها ليخفق بذكراهُ فى عينى هذا الحبيب الصغير ... ؛ وكذلك لم ينس الرافعىُّ ؛ ولكنهُ وجد السَّلوى !!.

لقد أفلتت من يدهِ ؛ ولكنَّها خلَّفت ذكراها معه ؛ ذكرى حَيَّة ناطقة تتمثَّل معانى وكلمات فى كتابٍ يقرؤهُ كُلَّما لَجَّ به الحنين ؛ فكأنَّهُ منها بمسمعٍ ومشهدٍ قريب !!.

يرحمه الله !! ؛ لقد مات ؛ ولكن قلبه مازال حيًّا ينبض ؛ يتحدَّث عن آلامه وأشواقه في قلب كل مُحِبٍّ يقرأ كتابه ؛ فيجد فيه صورةً من قلبه وعواطفه وآمالـه !!.

ـ يَرْحَمُهُ الله ـ

محمد سعيد العريان



ـ المُنْتَخَبُ مِن كِتَاب:

«أوراق الـورد»



.....

✿ - زُجَاجَةُ عِطْر

.....

وأهدى إليها مرَّةً زُجاجةً من العطر الثمين وكتب معها:

يا زُجاجة العطر !! ؛ اذهبي إليها !! ؛ وتعطَّري بمسِّ يديها !! ؛ وكوني رسالة قلبي لديها !!.

وها أنذا أنثر القُبُلات على جوانبك ؛ فمتى لمستك فضعي قُبلتي على بَنَانِهَا ؛ وألقيها خفيةً ظاهرةً في مثل حُنُوِّ نظرتها وحنانها ؛ وألمسيها من تلك القُبُلات معاني أفراحها في قلبي ومعاني أشجانها !!.

وها أنذا أُصافحك ؛ فمتى أخذتك في يدها ؛ فكوني لمسة الأشواق !!.

وها أنذا أَضُمُّكِ إلى قلبي ؛ فمتى فتحتكِ فانثري عليها في معاني العطر لمساتِ العِنَاق !!.



إنها الحبيبة يا زُجاجة العطر !! ؛ وما أنت كسواك من كُلِّ زُجاجةٍ مُلِئَت سائلاً !! ؛ ولا هي كسواها من كُلِّ امرأةٍ مُلِئت حُسناً !! ؛ وكما افتنَّت الصناعة في إبداعك واستخراجك ؛ افتنَّت الحياة في جمالها وفتنتها !! ؛ حتى لأحسب أسرار الحياة في غيرها من النساء تعمل بطبيعةٍ وقانون ؛ وفيها وحدها تعمل بفنٍّ وظرف !!.

وأنت سَبيكة عطر ؛ كل موضع منك يأرَجُ ويتوهج ؛ وهي سبيكة جمال ؛ كل موضع فيها يستبي ويتصبى !!.

وما ظهرت معانيك إلا أفعمت الهواء من حولك بالشذا ؛ ولا ظهرت معانيها إلاّ أفعمت القلوب من حولها بالحُب !!.

وكلتاكما لا يَمَسُّ أحدٌ منهما إلا تلبَّس بها ؛ فلا يستطيع أن يخلص منها !! ؛ ولا يستوي لهُ أن يخلُصَ منها !! .

أنت عندي أجمل أنثى في الطيب من بنات الزَّهر !! ؛ وهي عندي أجمل أنثى في الحُبِّ من بنات آدم !!.

.....

قُولي لها يا زُجاجة العطر !! : إنك خرجت من أزهارٍ كأنها شُعَلٌ نباتيَّةٌ ؛ وكانت في الرياض على فروعها كأنه تجسَّمت من أشعة الشمس والقمر ؛ فلما ابتعتُكِ وصرت في يدي ؛ خرجتِ من شُعَلٍ غراميَّةٍ ؛ وأصبحت كأنما تجسَّمت من إشواقي وتحيَّاتي ولمسات فكري ؛ ولذلك أهديتك !!.

وقُولي لها !! : إن شوق الأرواح العاشقة يحتاج دائماً إلى تعبيرٍ جميلٍ كجمالها !! ؛ بليغٍ كبلاغتها !! ؛ ينفذ إلى قلب الحبيب بقُوَّة الحياة سواء رَضِيَ أو لم يرض !! ؛ وهذا الشوق النافذ كان الأصل الذي من أجله خُلِقَ العطر في الطبيعة !! ؛ فحينما تسكب الجميلة قطرةً من الطيب على جسمها ؛ تنسكب في هذا الجسم أشواقٌ وأشواقٌ من حيث لا تدري ولا تدري !! ؛ ولذلك بعثتك !!.

وقُولي لها !! : إنك اتساقٌ بين الجمال والحُبِّ ؛ فحين تُهدَي زُجاجة العطر من مُحِبٍّ إلى حبيبته ؛ فإنما هو يهدي إليها الوسيلة التي تخلق حول جسمها الجميل الفاتن جوَّ قلبه العاشق المفتون !! ؛ ولو تجسَّم هذا المعنى حينئذٍ فتمثَّلَ فنظره ناظر ؛ لرآها هى مُحاطةً بشخصٍ أثيريٍّ ذائبٍ من الهوى واللوعة يفور حولها في الجوِّ ويسطع !!.

ولذلك يا زُجاجة العطر أرسلتك !!.

.....

أيُّها العطر !! ؛ كانت أزهارك فكرة في فنِّ الحُسْنِ توثبت وطافت زمناً على مظاهر الكون الجميلة ؛ كي تعود آخراً فتكون من فَنِّ الحُبِّ ؛ وفي ذلك مازجت الماء العذب ؛ ولامست أضواء القمر والنُّجُوم ؛ وخالطت أشعة الشمس ؛ واغتسلت بمائة فجرٍ مُنْذُ غرسها إلى إزهارها ؛ لتصلح بعد ذلك أن يَمَسَّ عطرها جسم الحبيبة ؛ ويكون رسالة حُبِّي إليها !!.

أيُّها العطر !! ؛ لقد خرجت من أزهارٍ جميلةٍ ؛ وستعلم حين تسكبك هى على جسمها الفاتن أنك رجعت إلى أجمل أزهارك !! ؛ وأنك كالمؤمنين تركوا الدُّنيا ولكنَّهم نالوا الجنَّة ونعيمها !!.



.....

✿ ـ القَمَر

.....

وكانت تأنس بضوء القمر ؛ ويُعجبها نوره على الحديقة خاصّـة ؛ فسألته أن يُناجي هذا « الجميل » في رسالةٍ ؛ فقال : حُبّاً وكرامةً « للقمر » .

وكتب :

إني لأراك أيُّها القمر مُنْذُ عَلِقْتُ معاني ما أرى ؛ ولكني لم أعرف أنك أنت كما أنت إلاّ بعد أن وضع الحُبُّ فيها بينك وبين قلبي وجه من أهواها ؛ كما يُوضع التفسير إلى جانب كلمةٍ دقيقةٍ !!.

عندئذٍ وصلتك قرابة الجمال بوجهها ؛ فاتّصل بك شُعُوري ؛ وَبتُّ على بُعْدِكَ في أفلاك السماء تسبح أيضاً في دائرة قلبي !! ؛ واستويت مُتّسقاً كأنَّ عملك لي أن تُتمَّ فَنَّ جمالها بإظهارها أجمل منك !! ؛ وأمسيت عندي ولك مثلها شكل السِّرِّ المُبهم المُحيط بالنفس المعشوقة : يدخل كل جمال في تفسيره ولا يكمل تفسيره أبداً !!.

ومن شِبْهِكَ بوجهها أزهر الضوء فيك ما يزهر اللحم والدَّم فيها ؛ فتكاد أشعتك تقطف منها القُبلة ؛ ويكاد جوُّك يسّاقط من نواحيه تنهُّدات خافته ؛ وتكاد تكون مثلها يا قمر مخلوقاً من الزهر والنَّدى وأنفاس الفجر !!.

.....

أما قبل حُبِّها ؛ فكنت اراك أيُّها القمر بنظراتٍ لا تحمل أفكاراً .

كُنْتَ جميلاً ؛ ولكن جمال ورق الزهر الأبيض ؛ وكنت في رقعتك المضيئة تشبه النهار مطويًّا بعضه على بعضٍ حتى يرجع في قدر المنديل ؛ وكنت ساطعاً في هذه الزرقاء ؛ ولكن سطوع المصباح الكهربائيِّ على منارةٍ قائمةٍ في ماء البحر ؛ وكنت زينة السماء ؛ ولكن كما تُناط مرآةٌ صغيرةٌ من البلور إلى حائطٍ فتشبه من صفائها موجة ضوء أُمسكت وَوُضِعَت في إطارٍ مُعلّقٍ .

وكنت يا قمر !!... ؛ كنت ملء الوجود ... ؛ ولكنك ضائعٌ في فكري !!.

.....

وأما بعد حُبِّهَا ؛ فأمسيت أراك أيُّها القمر ولست إلا طابع الله على أسرار الليل في صورة وجهٍ فاتنٍ !! ؛ كما أنَّ كُلَّ وجهٍ معشوقٍ هو طابع الله على أسرار القلب الذي يُحِبُّه !!.

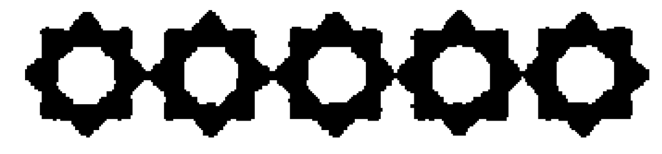
فأنتَ جميلٌ جمال الجسم البَضِّ العارى ؛ تكاد تُشبه صدر الحبيبة كشفت أعلاه ؛ فظهر فى بريق الفضَّةِ المجلوَّة !!.

فأنت فاتنٌ ؛ تُحاكي في ضوئك وجهها ؛ لولا أنك بلا تعبير .

وانت ساطعٌ بين النُّجُوم ؛ ولو تجسَّمت صُورةٌ من أجمل ضحكاتِ ثغر معشوقٍ لكانتك ؛ ولو تجسَّمت القُبُلات المُنتشرة حول هذا الثغر لكانتها !!.

وأنت زينة السماء ؛ ولكنَّ السماء منك كمرآةٍ سحريَّةٍ أُطْلِعَت فيها حُوريَّةٌ من حُور الجَنَّة ؛ فأمسكت خيال وجهها في لُجَّةٍ من النُّور ؛ فأنت خيال وجهها !! .

وأنت يا قمر !!... ؛ أنت ملء الوجود ... ؛ ولكنك أيضا ملء فَنِّ الحُب !!.



أتذكر أيُّها القمر إذ طلعت لنا في تلك الحديقة ؛ وتفيَّأتَ بنورك عليها ؛ فغمرت أرضها وسماءها برُوح الخُلد ؛ حتى وقع في وهمنا أنَّك وصلتها من سحر أشعتك بطرفٍ من أطراف الجنَّة فهي ناحيةٌ منها ؟!!

أتذكر وقد رأيتك ثمة قريباً من الحبيبة تصُبُّ عليها النُّور حتى خُيِّلَ إلى أنها إحدى الحُور العين مُتكئةً في جنَّتها على رفرفٍ خُضرٍ وقد وقف لخدمتها قمر ؟!!

أتذكر وقد لمستَ فكرى بضوئك لمسة نُورٍ ؛ فأظهرتها لى كأنها فى جمالها الطاهر شكلٌ دينىٌّ وُضِعَ ليكون مثالاً لعبادة القلب الإنسانىِّ ؟!!

أتذكر إذ نزلت علينا بآيات سحرك ؛ فخيَّلت لي أن العالم قد تحوَّل فيها هي إلى صورةٍ جميلةٍ مرئيَّةٍ أمست لي وحدي ؛ فملكت العالم كُلَّهُ في ساعةٍ من حيث لم أملك إلاَّ الحُب ؟!!

أتذكر ساعة جئتها بها من فوق الزمن وكان فيها للحديقة جوٌّ من زهرٍ ؛ وجوٌّ من قمر ؛ وجوٌّ من امراةٍ أجمل من القمر الزَّهر ؟!!



أتُرى يا قلبي كان في الوجود الذي حولنا أُنُوثةٌ وذُكُورةٌ ؛ فهو بالقمر تحت الليل يُعبِّر عن نفسه تعبيراً نسائيَّاً في منتهى الرِّقَّة ؛ لأنه قويٌّ شديدٌ ؛ وفي غاية التفتُّر ؛ لأنه مشبوبٌ مُتضرِّمٌ ؛ وفي كمال الدَّلال ؛ لأنه في كمال

الإغراء ؛ وفي أقصى الحياء ؛ لأنه يبعث بهذا الحياء فيما حوله أقصى الجرأة ؟!!
تعبيرُ امرأةٍ معشوقةٍ جميلةٍ ترف بأندائها وليس فيها إلاَّ صفات !!
وبالشمس على النهار يُعبِّرُ الوجود عن نفسه تعبير رَجُلٍ مقدامٍ ليس فيه غير القُوَّة والحركة والاندفاع !!
تعبير رَجُلٍ جبَّارٍ يحمل عزائمه التي يحترق بها ؛ وليس فيه إلاَّ صفات النَّار . (١) .

أترى يا قلبي كأن مدينة الحياة في النهار بصراعها وهمومها تحتاج إلى قفر طبيعي يفر إليه أهل القلوب الرقيقة بضع ساعات ، فلذلك يخلق لهم القمر صحراء واسعة من الضوء يجدون فيها بعد تلك المادية الجياشة المصطخبة روحانية الكون وروح العزلة وسكينة الضمير ويدو فيها كل ما يقع عليه النور كأنه حي ساكن بفكر..

أتُرى ياقلبي كأنَّ مدينة الحياة فى النَّهار بصراعها وهُمُومها تحتاجُ إلى قفرٍ طبيعىٍّ يفِرُّ إليهِ أهلُ القُلُوب الرقيقة بضع ساعات ؛ فلذلك يخلُقُ لهُم القمرُ صحراء واسعة من الضوء يجدُون فيها بعد تلك الماديَّة الجيَّاشة المُصطخبة

---

(١) ـ قال الرافعيُّ فى حاشيتهِ : هذا رأي لنا لم نجده لأحدٍ ؛ فكأنَّ من المرأة مُظلمةٌ أبداً كليالي المحاق ؛ ومنها مُضيئةٌ ولكن على تفاوتٍ باختلاف الأسباب ؛ ومنها ليلة البدر ؛ وهي الحبيبة عند مُحِبِّها ؛ كلها جمالٌ ووحيٌ وضوءٌ ورِقَّةٌ وسحرٌ .

روحانيَّة الكون وروح العُزلة وسكينة الضمير ؛ ويبدُو فيها كُل ما يقع عليهِ النُّور كأنَّهُ حيٌّ ساكنٌ يُفكِّر ؟!!

أتُرى ياقلبي كأنَّ ضوء القمر صنع صنعةً بخصائصها ليبعث في القلوب معاني القلوب الروحية من الفكر والحُب ؛ كما صنع نور الشمس ليبعث في الأجسام قواها ومعانيها الماديَّة من الحياة والدَّم ؟!!

أتُرى يا قلبي كأنَّ هذا القمر إنما يُلقي النُّور على الحُلم الرُّوحانيِّ اللذيذ الغامض الذي يحلم به كُلُّ عاشقٍ من أوَّل درسٍ في الحُب ؛ ساعة تُرسل الحبيبة إلى قلبه رسالةً عنها ؛ ولا يحلم بمثله في غير العُشَّاق إلاَّ أعظم الفلاسفة ؛ وفي آخر دُرُوس فلسفته ؛ وبعد أن تكون الليالي الطويلة قد أطلعت في سماء عُمره قمر الشيخوخة من شعره الأبيض ؟!!

أتُرى يا قلبي كأنَّ هذا القمر فى الحُبِّ ((تلسكوب)) يُكبِّرُ نُوره العواطف حين تبث فى ضوئهِ ؛ فلا يَطَّلِعُ على حبيبن أبداً إلاَّ كَبَّرَ أحدهما فى عين الآخر ؟!!

أتُرى يا قلبي أنَّهُ ليس فى الحُبِّ إلاَّ عواطفٌ مُكبَّرةٌ يُثيرُها دائماً وجه الحبيب ؛ فلابُدَّ أن يكون دائماً وجه الحبيب طالعة فيه رُوح القمر ؟!!

أتُرى يا قلبي ؟!!... ؛آه !!... ؛ أتُرى ؟!!



.....

✪ ـ لِمَاذَا ؟!! لِمَاذَا ؟!!

.....

وكتب إليها : (١)

قرأت كتابك وهو أسطر قليلة ؛ ولكنها إما ساحرة أو مسحورة !! ؛ فلقد خُيِّلَ إليَّ أنها تنتهي ؛ إذ كُنْتُ فيها كأني أطارد معنىً فاراً مذعوراً لا تُمسكه الألفاظ فلا يبرح فوق السُّطُور !! ؛ إذا بلغ آخرها وثب إلى أوَّلها ؛ فإذا كان في أوَّلها عاد إلى آخرها ؛ دواليك بدءاً وعوداً !! ؛ ويتلجلج مثل ذلك في صدري فلا ينتهي حتى ينتهي عنه !!.

تقولين يا حبيبتي : أيُّ شيءٍ عندك هو جديد فيَّ ؟!! ؛ ولماذا لا تراني رُؤيتك غيري ؟!! ؛ وكيف بعدت في نظرك المسافة بين وجه امرأةٍ ووجه امرأةٍ أخرى ؟!! ؛ وهل في وجوه النِّساء طريقٌ مُتشعِّبةٌ تذهب برَجُلٍ يميناً وتلوي بغيره شمالاً ؟!! ؛ وتتوافى إلى غايةٍ وتتفرَّق عن غايةٍ ؟!! ؛ ثم ما الذي جعلني عندك لُغزاً لا تفسير له ؛ وجعل النساء من دُوني واضحات مُفسَّرات كألفاظ الحياة الجارية في العادة والواقع ؛ المبذولة بمعانيها لمداولة الأخذ والعطاء ؛ على حين تزعم أني كالعبارة العقليَّة التي يضرب فيها الظنُّ على وُجُوهٍ شتَّى ؛

---

(١) ـ قال الرافعيُّ فى حاشيته : من ظُرفها أنَّهُ لقيها بعد هذه الرسالة ؛ فابتدرتهُ ضاحكةً وقالت : هل أحضرت معك لماذا ؟!!

وأنّي كما تقول: كلمةٌ يسِرُّهَا ؟!!

لا أكاد افهم يا صديقي معنى « كلمةٌ يسِرُّهَا » ؟!! ؛ ولا معنى قولك الذي قُلته لي: إنَّ الحُبَّ فيك أنت كتعتيق الخمر: يُضيف إليها الوقت كُلَّ يومٍ أسراراً وقُوىً وخيالاً وعملاً وسُطوةً ورِقَّةً ؛ وأراه في سواك كتعتيق الماء ؟!! لماذا ؟!! ؛ لماذا ليس عندي جواب كلامك إنما هو عندك ؛ إذ تجاوز قدر معرفتي يا صديقي !! ؛ فلماذا ؟!! ؛ لماذا ؟!!



« وأما قبل » ... يا صديقتي ؛ فلا أزال أقول لك ما قُلته: إن من النِّساء في مُقابلة أشعة النُّفُوس معاني ؛ فمعنى كحائط ؛ ومعنى كمرآة ؛ وواحدة تمسخ ظلاً طامساً أراني فيها تحت الشُّعاع كأنّي ظِلٌّ ممدودٌ على التُّراب ؛ والأخرى تبرق وتتلألأ وأراني فيها سويّاً كاملاً كأنما خُلِقْتُ في ضوئها !!.

ومن النساء في مُقابلة أهواء القلوب معان ؛ فمعنى كالقفر ؛ ومعنى كالحديقة ؛ وواحدة يكون وجودها حول فراغها ؛ والأخرى وجودها القلب فهو حولها !!.

« لِمَاذَا ؟!! لِمَاذَا ؟!! » ؛ لأن الإنسان غامضٌ وتفسيره ليس فيه ؛ ولابُدَّ من تفسيره وإلاّ كان كل شيءٍ عبثاً ؛ إنَّ الوجود كُلَّهُ مُفسِّرٌ للطفل تفسيراً صغيراً مثله في حُبِّ أُمِّه وحنانها ؛ وقد يكون ثدى الأُمِّ مثالاً مُصغَّراً من الكون كالمثال المُصغَّرِ من كُرةِ الأرض فى تعليم الجُغرافيا ؛ بل الأُمُّ تفسيرٌ على قدر

العقل لرحمة الأُلوهيَّة نفسها .

وكذلك تبدأ الحياة من أوَّل أنفاسها بالحُب ؛ ولعلَّ أوَّل قُبلةٍ على وجه الطفل من أُمِّه ساعة ينفصل منها ؛ إنما هي استقبال الحُبِّ لهذا الإنسان الجديد ومَسِّهِ من شفتي أُمِّه بالطابع الذي لو قُرئ نقشه لكان هكــذا : أنت وحدك .

فإذا كَبِرَ الوليد فلابُدَّ من تغييرٍ في أُسلُوب التفسير حالاً بعد حال ؛ ولا يزال كذلك تُغيِّرُه الأشياء والحوادث حتى يبلغ أسلوب الفلسفة العُليا إذا انتهى إلى العشق ؛ وحينئذٍ تكون قبلة الحبيبة إنما هي استقبال الحُبِّ لهذا الإنسان المُتجدِّد ومسِّهِ من شفتي حبيبته بالطابع الذي لو قُرئ نقشه لكــان هكذا : « أنا وحدي » .

لذلك أنت يا حبيبتي الفلسفة العُليا ؛ وأنت « كلمةٌ بسرِّها » ؛ أما غيرك من النِّساء فجمالها عندي : جمال الشكل ؛ لا جمال السِّر .

ومن ثَمَّ فهي مُفسَّرةٌ واضحةٌ ؛ إذ لا يرى قلبي فيها ما يعسُر فهمه ؛ ولا ما يبحث عن تفسيره ؛ ولا ما يُفسِّر لي شيئاً من المعاني .

ومن ذلك فليس الجمال المعشوق إلاَّ انطواء الجميل على أسرارٍ مُبهمةٍ ؛ وبذلك فكُلُّ نظرٍ في المرأة لا يرجع إلاَّ بزيادة الوضوح فيما يعلو منها وما ينزل ؛ على حين كل ما في الحبيبة يزيد على تكرار النظر غُمُوضاً كأنه شيءٌ جديد !! ؛ ودائماً شيءٌ جديد !! ؛ ويأبى جمالها أن يُفسَّر !! ؛ إذا كان تفسير الشيء إنما هو إضافته إلى ما فرغت النفس منه ؛ وبهذا وبذاك فما دام الحُبُّ

قائماً ؛ فكُلُّ ما فى الحبيبة من تكوينها وأوضاع جسمها وشمائلها ومعانيها إنما هو « مُضاعفات » للمرض بها .

« ولماذا ؟!! لماذا ؟!! » ؛ لأنَّ الحُبَّ يُريدُ أن يُثبتَ أنَّهُ الحُب ؛ وأنَّهُ تحقيق كُلِّ إنسانٍ روحانيته فى غيره ؛ ليشعُر بما هو أسمى من شعُوره الإنسانىِّ ؛ وأنَّهُ امتلاءُ حياةٍ بحياةٍ لتُدرك معنى الكمال ؛ فلا يكونُ الحُبُّ إلاَّ كمالُ الوجود الإنسانىِّ لشخصٍ ما فى وقتٍ ما بمعنىً ما .

ومتى حقَّقت الرُّوحُ وجُودها فى رُوحٍ محبوبةٍ ؛ وامتلأت حياةٌ بحياةٍ ؛ صار لها عالمها الخاص بها ؛ وعادت قوانين عالمنا هذا لغواً هُناك ؛ وارتفع الحُبُّ عن أن يكون صِلَةً أو اعتباراً ـ كما يقع بين الناسِ فى الوجُود الإنسانىِّ الذى يسع الخلق جميعاً ـ إلى أن يصير حقيقة وحياة يعملان بقوانينهما فى الوجود القلبىِّ الذى لا يسع إلاَّ اثنين من الخلق .



إنَّ جمالك أيتها الحبيبة ليس جمالك كما تظنين ؛ وإلا فقد شركتك الحِسَانُ فيه ـ لكنه بكلمةٍ واحدةٍ : « فنٌّ قلبي أنا !! » .

والحياة التي تفيض عليك تملؤك وتملؤني معاً ؛ ولذلك فكُلُّ معنىً منكِ له معنىً آخرُ فيَّ !!.



.....

✿ ـ وَالسَّلامُ عَلَيْهَا

.....

« وهذه كانت آخر رسائله في حُبِّ صاحبته تلك »

أحببتها جميلة لأوجد بها الجمال في معانيَّ وذوقي ؛ ورقيقة لأسيل منها بالرقَّة في عواطفي ونزعاتي ؛ وظريفة لأزيد بها في نفسي طبيعة مرحٍ وابتهاج ؛ ومتوازنة لتُدخل في طباعي الانسجام والوزن وصحَّة التقدير ؛ وناعمة لتخلص بروحي من خشونة الضرورات القاسية في الحياة ؛ ومُتفتِّرة لأُلقي من تفتُّرها على بعض أيَّامي فتنقلب حبيبة بما تمنع وتصد ؛ ورشيقة لتهب خيالي سِرَّ التوثُّب والحركة ؛ وجذَّابة لأجد بها المغناطيس الذي يجذبني في الإنسانيَّة إلى مصدري الأعلى .

وأحببتها وهي بجُملتها فنٌّ وجمالٌ ووحيٌ لأرجع وأنا بجُملتي حُسْنٌ وانفعالٌ وإدراك .

وَكُنْتُ كأنما أضرب من الحياة في قفرٍ من المعاني الجافية لا أتوسَّم نُضرةً ؛ ولا أتهدَّي إلى حقيقةٍ جميلةٍ ؛ فأرسلتها الحقائق السَّامية التي تعشقها نفسي تقول في جمالها : تعالي إلينا من هُنا : إن الطريق من هاتين العينين !!.



لا أقول إنه قد وقف نمو الكلمة السِّحريَّة التي تزداد وتعظُم بتجدُّد الأيَّام ؛

إذ كُلُّ يومٍ في الحُبِّ هو دائماً أول حُب .

ولا أقول إنَّ ذلك الاسم الجميل قد أُنزل عن عرش الفكرة التي كانت تملكه الوجود لأنها أملكته القلب .

ولا أقول عن الذِّكرى قد سُلِّطَ عليها النِّسيان فصفاهها من حوادثها وأيَّامها .

ولا أقول إن ما كان في النفس جُنُوناً وعقلاً من معاني الحُبِّ قد رجع في النِّسيان كالكلمة المكتوبة على ورقةٍ ؛ حُبِسَ في الورقة معناها إلى أن يُوجد من يقرؤه فيُخرجه .

ولا أقول إنها قد بطلت القُوَّة المُتضاعفة من الجمالِ وكانت تجعل كل ما يُؤلم من الناس يُؤلم منها هي أضعافاً ؛ وكل ما يَسُرُّ من الناس يَسُرُّ منها هي أضعافاً ؛ كأنَّ الذي هو إنسانيٌّ في الخلق ليس إنسانيًّا فيها .

ولا أقول إنه قد اختفى من ذلك الوجه برهانه الذي كان يقوم بسحره السَّاحر دليلاً مُقحماً في كُلِّ قضايا الحبيبة المتناقضة ؛ فلا تتوافى وهي متناقضة إلاَّ على نتيجةٍ واحدةٍ هي أنها حبيبة ؛ مهما تأت أو تدع فليس بشيءٍ منها على هوان .

ولا أقول إنه ليس بين ما تُعجب به وما تزدريه إلاَّ رجعة خُطوةٍ مُنقلبةٍ ؛ وأنها هي قد خطتها فليست هي بعد .

ولا أقول إنَّ روضة الحُبِّ قد انتهت إلى أيَّامها المُقشعرَّة التي تظهر فيها كل أشجارها حاملةً من اليُبْسِ والتجرُّد إعلان آخر الفصل .

ولكنـي أقـول !!... وَالسَّلامُ عَلَيْهَا !!.



.....

ـ المُنْتَخَبُ مِن مَقَالات:

وَحى القَلَم !!



.....

۞ ـ وَرَقَـةُ وَرْد

.....

وضعنا كتابنا « أوراق الورد » في نوعٍ من الترسُّل لم يكُن منه شيءٌ في الأدب العربيِّ على الطريقة التي كتبناه بها ؛ في المعاني التي أفردناه لها ؛ وهو رسائلُ غراميَّةٌ تطارحها شاعرٌ فيلسوفٌ وشاعرةٌ فيلسوفةٌ ـ على ما بيَّناه في مُقدِّمة الكتاب ـ .

وكانت قد ضاعت « ورقة ورد » ؛ وهي رسالة كتبها العاشق إلى صديق له ؛ يصف من أمره وأمر صاحبته ؛ ويُصوِّر له فيها سحر الحُبِّ كما لمسه وكما تركه .

وقد عثُرنا عليها بعد طبع الكتاب ؛ فرأينا ألا ننفرد بها ؛ وهي هذه :

« كانت لها نفس شاعرة ؛ من هذه النُّفوس العجيبة التي تأخذ الضدين بمعنى واحد أحياناً ؛ فيسُرُّها مرَّةً أن تحُزنها وتستدعي غضبها ؛ ويحُزنها مرَّةً أن تسُرَّها وتبلغ رضاها ؛ كأن ليس في السرور ولا في الحزن معانٍ من الأشياء ؛ ولكن من نفسها ومشيئتها !!.

وكان خيالها مشبوباً ؛ يلقي في كل شيءٍ لمعان النور وانطفاءه ؛ فالدنيا في خيالها كالسماء التي ألبسها الليل ؛ مُلئت بأشيائها مبعثرة مضيئة خافتة كالنُّجُوم !!.

ولها شعورٌ دقيقٌ ؛ يجعلها أحياناً من بلاغة حِسِّها وإرهافه كأن فيها أكثر من عقلها ؛ ويجعلها في بعض الأحيان من دقّة هذا الحسِّ واهتياجه كأنها بغير عقل !!.

وهي ترى أسمى الفكر في بعض أحوالها ألا يكون لها فكر ؛ فتترك من أمورها أشياء للمصادفة ؛ كأنها واثقة أن الحظ بعض عُشّاقها !!.

على أن لها ثلاثة أنواع من الذكاء ـ في عقلها ؛ وروحها ؛ وجسمها : فالذكاء في عقلها فهم ؛ وفي روحها فتنة ؛ وفي جسمها خلاعة !!.

وكنت أراها مرحة مستطارة مما تطرب وتتفاءل ؛ حتى لأحسبها تود أن يخرج الكون من قوانينه ويطيش ؛ ثم أراها بعد متضورة مهمومة تحزن وتتشاءم ؛ حتى لأظنها ستزيد الكون همّاً ليس فيه !!.

وكانت على كل أحوالها المتنافرة جميلة ظريفة ؛ قد تمت لها الصورة التي تخلق الحُب ؛ والأسرار التي تبعث الفتنة ؛ والسِّحر الذي يميز روحها بشخصيتها الفاتنة كما تتميز هي بوجهها الفاتن !!.

وكان حُبِّي إيَّاها حريقاً من الحُب ؛ فمثِّلْ لعينيك جسماً تناول جلده مسٌّ من لهب ؛ فتسلَّع هذا الجلد هنا وهناك من سَلْخِ النار ؛ وظهر فيه من آثار الحروق لهبٌ يابسٌ أحمرٌ كأنه عروقٌ من الجمر انتشرت في هذا الجسم !!.

إنك إن تمثَّلت هذا الوصف ثم نقلته من الجلد إلى الدم ؛ كان هو حريق ذلك الحُبِّ في دمي !!.

والحب ـ إن كان حُبّاً ـ لم يكن إلا عذاباً ؛ فما هو إلا تقديم البُرهان من

العاشق على قوة فعل الحقيقة التي في المعشوق ؛ ليس حال منه في عذابه ؛ إلا وهي دليلٌ على شيءٍ منها في جبروتها !!.

ولقد أيقنتُ أن الغرام إنما هو جنون شخصية المحب بشخصية محبوبه ؛ فيسقط العالم وأحكامه ومذاهبه مما بين الشخصيتين ؛ وينتفي الواقع الذي يجري الناس عليه ؛ وتعود الحقائق لا تأتي من شيءٍ في هذه الدنيا إلا بعد أن تمر على المحبوب لتجيء منه ؛ ويصبح هذا الكون العظيم كأنه إطارٌ في عين مجنونٍ لا يحمل شيئاً إلا الصورة التي جُنَّ بها !!.

وتالله لكأن قانون الطبيعة يقضي ألا تحب المرأة رجلاً يسمى رجلاً ؛ وألا تكون جديرة بمحبها ؛ إلا إذا جرت بينهما أهوال من الغرام تتركها معه كأنها مأخوذة في الحرب ؛ تلك الأهوال يمثلها الحيوان المتوحش عملاً جسميًّاً بالقتال على الأنثى ؛ ثم ترق في الإنسان المتحضر فيمثلها عملاً قلبيًّاً بالحُب .

أحببتها جهد الهوى حتى لا مزيد فيه ولا مطمع في مزيد !! ؛ ولكن أسرار فتنتها استمرت تتعدد فتدفعني أن يكون حُبِّي أشدَّ من هذا ؛ ولا أعرف كيف يمكن في الحُبِّ أشد من هذا !!

ولقد كُنْتُ في استغاثتي بها من الحُبِّ كالذي رأى نفسه في طريق السيل ففرَّ إلى ربوة عالية ؛ في رأسها عقل لهذا السيل الأحمق ؛ أو كالذي فاجأه البركان بجنونه وغلظته فهرب في رقة الماء وحلمه ؛ ولا سيل ولا بركان إلا حُرقتي بالهوى وارتماضي من الحُب !!

أما والله ؛ إنه ليس العاشق هو العاشق ؛ ولكن هي الطبيعة ؛ هي الطبيعة في

العاشق .

هي الطبيعة ـ بجبروتها ؛ وعسفها ؛ وتعنُّتها ـ إذا استراح الناس جميعاً قالت للعاشق : إلا أنت !!

إذا عقل الناس جميعاً قالت في العاشق : إلا هذا !!

إذا برأت جراح الحياة كلها قالت : إلا جرح الحُب !!

إذا تشابهت الهموم كالدمعة والدمعة ؛ قالت : إلا هم العشق !!

إذا تغيَّر الناس في الحالة بعد الحالة ؛ قالت في الحبيب : إلا هو !!

إذا انكشف سرُّ كل شيء ؛ قالت : إلا المعشوق ؛ إلا هذا المُحجَّب بأسرار القلب !!

ولما رأيتها أول مرة ؛ ولمسني الحُبُّ لمسة ساحرٍ ؛ جلست إليها أتأملها وأحتسي من جمالها ذلك الضياء المُسْكِر ؛ الذي تُعربد له الرُّوح عربدة كلها وقار ظاهر ؛ فرأيتني يومئذٍ في حالة كغشية الوحي ؛ فوقها الآدمية ساكنة ؛ وتحتها تيَّار الملائكة يعُبُّ ويجري !!

وكنت أُلَقَّى خواطر كثيرة ؛ جعلتْ كل شيء منها ومما حولها يتكلم في نفسي ؛ كأن الحياة قد فاضت وازدحمت في ذلك الموضع تجلس فيه ؛ فما شيء يمر به إلا مسته فجعلته حيَّاً يرتعش ؛ حتى الكلمات !!

وشعرتُ أول ما شعرت أن الهواء الذي تتنفس فيه يرق رقَّة نسيم السَّحَر ؛ كأنما المخدع فيها فحسب وجهها نور الفجر !!

وأحسست في المكان قوة عجيبة في قدرتها على الجذب ؛ جعلتني مُبعثراً حول

هذه الفتَّانة ؛ كأنها محدودة بي من كل جهة !!

وخُيِّل إليَّ أن النواميس الطبيعية قد اختلَّت في جسمي إما بزيادة وإما بنقص ؛ فأنا لذلك أعظُم أمامها مرة ؛ وأصغُر مرة !!

وظننت أن هذه الجميلة إنْ هي إلا صورة من الوجود النسائي الشَّاذ ؛ وقع فيها تنقيحٌ إلهيٌّ لتظهر للدنيا كيف كان جمال حواء في الجنَّة !!

ورأيت هذا الحُسن الفاتن يشعرني بأنه فوق الحُسن ؛ لأنه فيها هي ؛ وأنه فوق الجمال والنُّضرة والمرح ؛ لأن الله وضعه في هذا السرور الحيِّ المخلوق امرأة !!

والتمستُ في محاسنها عيباً ؛ فبعد الجهد قُلْتُ مع الشاعر :

إِذَا عِبْتُهَا شَبَّهْتُهَا البَدْرَ طَالِعًا !!

ورأيتها تضحك الضحك المُستحي ؛ فيخرج من فمها الجميل كأنما هو شاعر [مُحَافِظٌ] تجرَّأ على قانون !!

وتبسُّم ابتسامات تقول كل منها للجالسين : انظروها !! انظروها !!

ويغمرها ضحك العين والوجه والفم ؛ وضحك الجسم أيضاً باهتزازه وترجرُجه في حركات كأنما يبسم بعضها ويقهقه بعضها !!

وتلقي نظرات جعل الله معها ذلك الإغضاء وذلك الحياء ليضع شيئاً من الوقاية في هذه القوة النسويَّة ؛ قوة تدمير القلب !!

وهي على ذلك مُتسامية في جمالها حتى لا يتكلم جسمها في وساوس النفس كلام اللحم والدم ؛ وكأنه جسمٌ ملائكيٌّ ليس له إلا الجلال طوعاً أو كرهاً !!

جسمٌ كالمعبد ؛ لا يعرف من جاءه أنه جاءه إلا ليبتهل ويخشع !!
وتطالعك من حيث تأملت فكرة الحياة المنسجمة على هذا الجسم ؛ تطلب منك الفهم وهي لا تُفهَم أبداً ؛ أي : تريد الفهم الذي لا ينتهي ؛ أي : تطلب الحُبَّ الذي لا ينقطع !!
وهي أبداً في زينة حسنها كأنها عروس في معرض جَلوتها ؛ غير أن للعروس ساعة ؛ ولها هي كل ساعة !!
أما طَرْفُها ؛ فيكاد يصيح تحت النظرات : أنا خائفٌ !! أنا خائفٌ !!
ووجهها تتغالب عليه الرزانة والخفّة ؛ لتقرأ فيه العين عقلها وقلبها !!
وهي مثل الشِّعر ؛ تُطرب القلب بالألم يوجد في بعض السرور ؛ وبالسرور الذي يُحسُّ في بعض الألم !!
وهي مثل الخمر ؛ تحسب الشيطان مترقرقاً فيها بكل إغرائه !!
وكلما تناولتْ أمامي شيئاً أو صنعت شيئاً خلقتْ معه شيئاً ؛ أشياؤها لا تزيد بها الطبيعة ؛ ولكن تزيد بها النفس !!

فَيَا كَبِداً طَارَت صُدُوعَاً مِنَ الأَسَى !!

ورأيتُني يومئذٍ في حالة كغشية الوحي ؛ فوقها الآدمية ساكنة ؛ وتحتها تيَّار الملائكة يعُبُّ ويجري !!
يا سحر الحب !! تركتني أرى وجهها من بعد هو الوجه الذي تضحك به الدنيا ؛ وتعبس وتتغيَّظ وتتحامق أيضاً !!
وجعلتني أرى الابتسامة الجميلة هي أقوى حكومة في الأرض !!

وجعلتني يا سحر الحُبِّ !! وجعلتني يا سحر الحُبِّ مجنوناً !!



.....

✿ ـ الطَّائِشَة

ـ ١ ـ

.....

قال صاحبها وهو يحدِّثني من حديثها:

كانت فتاة متعلمة ؛ حلوة المنظر ؛ حلوة الكلام ؛ رقيقة العاطفة ؛ مرهفة الحس ؛ في لسانها بيان ؛ ولوجهها بيان غير الذي في لسانها ؛ تعرف فيه الكلام الذي لا تتكلم به !!

ولها طبعٌ شديد الطرب للحياة ؛ مسترسلٌ في مرحه ؛ خفيفٌ طيَّاش ؛ لو أثقلتَه بجبلٍ لخفَّ بالجبل ؛ تحسبها دائماً سكرى تتمايل من طربها ؛ كأن أفكارها المرحة هي في رأسها أفكارٌ وفي دمها خمر !!

وكان هذا الطبع السَّكران بالشباب والجمال والطرب يعمل عملين متناقضين ـ فهو دلالٌ مُتراجعٌ مُنهزم ؛ وهو أيضاً جرأةٌ مُندفعةٌ مُتهجِّمة !!

وهزيمة الدلال في المرأة إن هي إلا عملٌ حربيٌّ ؛ مُضمرةٌ فيه الكرَّة والهجوم ؛ وكثيراً ما تُرَى فيها النظرة ذات المعنيين نظرة واحدة ؛ بها تؤنبك المرأة على جراءتك معها ؛ وبها أيضاً تَعذلك على أنك لست معها أجرأ مما أنت !!

قُلْتُ : ويحك يا هذا !! أتعرف ما تقول ؟!!

قال : فمن يعرف ما يقول إذا أنا لم أعرف ؟!! ؛ لقد أحببت خمس عشرة فتاة ؛ بل هُنَّ أحببْنَني وفرَّغن قلوبهن لي ؛ ما اعتزَّت عليَّ منهن واحدة ؛

وقد ذهبن بي مذهباً ؛ ولكني ذهبت بهنَّ خمسة عشر !!

قُلْتُ : فلا ريب أنك تحمل الوسام الإبليسي الأول من رُتبة الجمرة !! ؛ فكيف استهام بك خمس عشرة فتاة ؟!! ؛ أجاهلات هن ؟!! ؛ أعمياوات هن ؟!!

قال : بل متعلمات مبصرات يرين ويدركن ؛ ولا تخطئ واحدة منهن في فهم أن رجلاً وامرأة قصة حُب ؛ وما خمس عشرة فتاة ؟!! ؛ وما عشرون وثلاثون من فتيات هذا الزمن الحائر البائر ؛ الذي كسَد فيه الزواج ؛ ورق فيه الدين ؛ وسقط الحياء ؛ والتهبت العاطفة ؛ وانتشر اللهو ؛ وكثرت فنون الإغراء ؛ واصطلح فيه إبليس والعلم يعملان معاً ؛ وأُطلقت الحرية للمرأة ؛ وتوسعت المدارس فيما تُقدِّم للفتيات ؛ وأظهرت من الحفاوة بهنَّ أمراً مُفرطاً حتى أخذن منها ربع العلم ؟!!

قلت : وثلاثة أرباع العلم الباقية ؟!!

قال : يأخذنها مع الروايات والسينما .

علم المدارس ؛ ما علم المدارس ؟!! ؛ إنهن لا يصنعن به شيئاً إلا شهادات هي مكافأة الحفظ وإجازة النسيان من بعد ؛ أما علم السينما والروايات فيصنعن به تاريخهن ؛ ورُبَّ منظر يشهده في السينما ألف فتاة بمرة واحدة ؛ فإذا استقر في وعيهن ؛ وطافت به الخواطر والأحلام ؛ سلبهن القرار والوقار فمثَّلْنَه ألف مرة بألف طريقة في ألف حادثة !!

يظنون أننا في زمن إزاحة العقبات النسائية واحدة بعد واحدة ؛ من حرية المرأة وعلمها ؛ أما أنا فأرى حرية المرأة وعلمها لا يوجدان إلا العقبات النسائية

عقبة بعد عقبة ؛ وقد كان عيب الجاهلة المقصورة في دارها أن الرجل يحتال عليها ؛ فصار عيب المتعلمة المفتوح لها الباب أنها هي تحتال على الرجل ؛ فمرة بإبداع الحيلة عليه ؛ ومرة بتلقينه الحيلة عليها ؛ والغريب في أمر هذا العلم أنه هو الذي جعل الفتاة تبدأ الطريق المجهول بجهل !!

قلت : وما الطريق المجهول ؟!!

قال : الطريق المجهول هو الرجل ؛ وإطلاق الحرية للفتاة أطلق ثلاث حريات : حرية الفتاة ؛ وحرية الحُب ؛ والأخرى حرية الزواج ؛ ولما انطلق ثلاثتهن معاً ؛ تغير ثلاثتهن جميعاً إلى فساد واختلال !!

أما الفتاة ؛ فكانت في الأكثر للزواج ؛ فعادت للزواج في الأقل وفي الأكثر للهو والغزل ؛ وكان لها في النفوس وقار الأم وحرمة الزوجة ؛ فاجترأ عليها الشبان اجتراءهم على الخليعة والساقطة ؛ وكانت مقصورة لا تُنال بعيب ولا يتوجه عليها ذم ؛ فمشت إلى عيوبها بقدميها ؛ ومشت إليها العيوب بأقدام كثيرة ؛ وكانت بجملتها امرأة واحدة ؛ فعادت مما ترى وتعرف وتكابد كأن جسمها امرأة ؛ وقلبها امرأة أخرى ؛ وأعصابها امرأة ثالثة !!

وأما الحُب ؛ فكان حُبّاً تتعرف به الرجولة إلى الأنوثة في قيود وشروط ؛ فلما صار حُرّاً بين الرجولة والأنوثة ؛ انقلب حيلة تغترُّ بها إحداهما الأخرى ؛ ومتى صار الأمر إلى قانون الحيلة ؛ فقد خرج من قانون الشرف ؛ ويرجع هذا الشرف نفسه كما نراه ؛ ليس إلا كلمة يحتال بها !!

وأما الزواج ؛ فلما صار حُرّاً جاء الفتاة بشبه الزوج لا بالزوج ؛ وضعُفت منزلته ؛ وقل اتفاقه ؛ وطال ارتقاب الفتيات له ؛ فضعف أثره في النفس المؤنثة ؛ وكانت من قبل لفظتا « الشاب ؛ والزوج » شيئاً واحداً عند الفتاة وبمعنى واحد ؛ فأصبحتا كلمتين متميزتين ؛ في إحداهما القوة والكثرة والسهولة ؛ وفي الأخرى الضعف والقلة والتعذر ؛ فالكل شبان وقليل منهم الأزواج ؛ وبهذا أصبح تأثير الشباب على الفتاة أقوى من تأثير الشرف ؛ وعاد يقنعها منه أخس برهاناته ؛ لا بأنه هو مقنع ؛ ولكن بأنها هي مُهيَّأة للاقتناع !!

وفي تلك الأحوال لا يكون الرجل إلا مُغفَّلاً في رأي المرأة ؛ إذا هو أحبها ولم يكن محُتالاً حيلة مثله على مثلها ؛ ويظل في رأيها مُغفَّلاً حتى يخدعها ويستزلها ؛ فإذا فعل كان عندها نذلاً لأنه فعل ؛ وهذه حرية رابعة في لغة المرأة الحُرَّة والزواج الحُرّ والحُبِّ الحُر !!

وانظر ـ بعيشك ـ ما فعلت الحرية بكلمة « التقاليد » ؛ وكيف أصبحت هذه الكلمة السامية من مبذوء الكلام ومكروهه حتى صارت غير طبيعية في هذه الحضارة ؛ ثم كيف أحالتها فجعلتها في هذا العصر أشهر كلمة في الألسنة ؛ يُتهكّم بها على الدين والشرف وقانون العُرف الاجتماعيِّ في خوف المَعَرَّة والدنيئة والتصاون من الرذائل والمبالاة بالفضائل ؛ فكل ذلك « تقاليد » .

وقد أخذت الفتيات المتعلمات هذه الكلمة بمعانيها تلك ؛ وأجرينها في اعتبارهن مكروهة وحشيَّة ؛ وأضفن إليها من المعاني حواشي أخرى ؛ حتى

ليكاد الأب والأم يكونان عند أكثر المتعلمات من « التقاليد » ؛ أهي كلمة أبدعتها الحرية ؟!! ؛ أم أبدعها جهل العصر وحماقته وفجوره وإلحاده ؟!! ؛ أهي كلمة تعلقها الفتيات المتعلمات لأنها لغة من اللغة ؛ أم لأنها من لغة ما يحببن ؟!!

« تقاليد » ؟!! ؛ فما هي المرأة بدون التقاليد ؟!! ؛ إنها البلاد الجميلة بغير جيش ؛ إنها الكنز المخبوء معرضاً لأعين اللصوص ؛ تحوطه الغفلة لا المُراقبة !!

هب الناس جميعاً شرفاء متعففين متصاونين ؛ فإن معنى كلمة « كنز » متى تُركت له الحرية وأُغفل من تقاليد الحراسة ؛ أوجدت حريته هذه بنفسها معنى كلمة « لص » !!

قال صاحبنا : أما الفتاة المُحرَّرة من « التقاليد » كما عرفتُها ؛ فهي هذه التي أقص عليك قصتها ؛ وهي التي جعلتني أعتقد أن لكل فتاة رُشدين ـ يثبت أحدهما بالسن ؛ ويثبت الآخر بالزواج .

ولو أن عانساً ماتت في سنِّ الخمسين أو الستين لوجب أن يقال : إنها ماتت نصف قاصر !! ؛ ولعل هذا من حكمة الشريعة في اعتبار المرأة نصف الرجل ؛ إذ تمام شرفها الاجتماعيِّ أن يكون الرجل مضموماً إليها في نظام الاجتماع وقوانينه ؛ فالزوج على هذا هو تمام رُشْدِ الفتاة بالغةً ما بلغت .

وأساس المرأة في الطبيعة أساسٌ بدنيٌّ لا عقليٌّ ؛ ومن هذا كانت هي المصنع الذي تُصنع فيه الحياة ؛ وكانت دائماً ناقصة لا تتم إلا بالآخر الذي أساسه في

الطبيعة شأن عقله وشأن قوته .

واعتبرْ ذلك بالمرأة تدرس وتتعلم وتنبُغ ؛ فلو أنك ذهبت تمدحها بوُفور عقلها وذكائها ؛ وتُقرِّظها بنبوغها وعبقريتها ؛ ثم رأتك لم تلق كلمة ولا إشارة ولا نظرة على جسمها ومحاسنها ؛ لتحول عندها كل مدحك ذمّاً ؛ وكل ثنائك سُخرية ؛ فإن النبوغ ههنا في أعصاب امرأة تريد أن تعرف مع أسرار الكون أسرار كونها هي ؛ هذا الكون البدنيُّ الفاتن ؛ أو الذي تزعمه هي فاتناً ؛ أو الذي لا ترضاه ولا ترضى أن تكون صاحبته إلا إذا وجدت من يزعم لها أنه كونٌ فاتنٌ بديعٌ ؛ مُزيَّنٌ بشمسه وقمره وطبيعته المتنضرة التي تجعل مسَّه مسَّ ورق الزهر .

مثل هذه إنما يكون الثناء عندها حينما يكون أقله باللسان العلميِّ ولغته ؛ وأكثره بالنظر الفنيِّ ولغته ؛ وهذا على أنها عالمة الجنس ونابغته ؛ ودليل شذوذه العقلي ؛ والواحدة التي تجيء كالفلتة المفردة بين الملايين من النساء ؛ فكيف بمن دونها ؛ وكيف بالنساء فيما هُنَّ نساء به ؟!!

دع جماعة من العلماء يمتحنون هذا الذي بيَّنت لك ؛ فيأتون بامرأة جميلة نابغة ؛ فيضعونها بين رجال لا تسمع من جميعهم إلا : ما أعقلها !! ؛ ما أعقلها !! ؛ ما أعقلها !! ؛ ولا ترى في عيني كل منهم من أنواع النظر وفنونه إلا نظر التلميذ لمعلمة في سنِّ جدته ؛ فهذه لن تكون بعد قريب إلا في حالة من اثنتين : إما أن يخرج عقلها من رأسها ؛ أو !!... ؛ أو تخرج في وجهها لحية !! ((ما أعقلها !!)) كلمة حسنة عند النساء لا يأبينها ولا يذممنها ؛ غير أن الكلمة

البليغة العبقرية الساحرة ؛ هي عندهن كلمة أخرى ؛ هي : « ما أجملها !! » ؛ إن تلك تشبه الخُبز القَفَار لا شيء معه على الخِوَان ؛ أما هذه فهي المائدة مزينة كاملة بطعامها وشرابها وأزهارها وفكاهتها وضحكها أيضاً .

وكأن العقل الإنساني قد غضب لمهانة كلمته وما عرَّها به النساء ؛ فأراد أن يثبت أنه عقل ؛ فاستطاع بحيلته العجيبة أن يجعل لكلمة : « ما أعقلها !! » كل الشأن والخطر ؛ وكل البلاغة والسحر ؛ عند !!... ؛ عند الطفلة ... ؛ تفرح الطفلة أشد الفرح إذا قيل : « ما أعقلها !! »

فقلت لمحدثي : كأنك صادق يا فتى !! لقد جلست أنا ذات يوم إلى امرأة أديبة لها ظرف وجمال ؛ وجاءت كبريائي فجلست معنا ؛ وكانت « التقاليد » كالحاشية لي ؛ فعلمت بعد أنها قالت لصاحبة لها : « لا أدري كيف استطاع أن ينسى جسمي وأنا إلى جانبه ؟!! ؛ أُذكِّره أني إلى جانبه !! لكأنما كانت لقلبه أبواب يفتح ما شاء منها ويغلق !! » .

قال محدثي : فهذا هذا ؛ إن إحساس المرأة بالعالم وما فيه من حقائق الجمال والسرور ؛ إنما هو في إحساسها بالرجل الذي اختارته لقلبها ؛ أو تهم أن تختاره ؛ أو تود أن تختاره ؛ ثم إحساسها بعد ذلك بالصور الأخرى من رجُلها في أولادها .

وحياة المرأة لا أسرار فيها البتة ؛ حتى إذا دخلها الرجل عرفت بذلك أن فيها أسراراً ؛ وتبيَّنت أن هذا الجسم الآخر هو فلسفة لجسمها وعقلها .

قال : وقد جلست مرة مع صاحبة القصة وأنا مغضب أو كالمغضب ؛ ثم

تلاحينا وطال بيننا التلاحي ؛ فقالت لي : أنت بجانبي وأنا أسأل : أين أنت ؟!!
فإنك لست كلك الذي بجانبي !!

قال : ومذهبي في الحُب : الكبرياء ؛ كما قلت أنت ؛ غير أنها الكبرياء التي تدرك المرأة منها أني قويٌّ لا أني مُتكبِّرٌ ؛ كبرياء الرجل إما مهيب مرح يملك أفراح قلبها ؛ وإما حزين مهيب يملك أحزان هذا القلب .

إن المرأة لا تحب إلا رجلاً يكون أول الحُسن فيه حُسن فهمها له ؛ وأول القوة فيه قوة إعجابها به ؛ وأول الكبرياء فيه كبرياءها هي بِحُبِّه وكبرياءها بأنه رجل ؛ هذا هو الذي يجتمع فيه للمرأة اثنان : إنسانها الظريف ؛ ووحشها الظريف !!

قلت : لقد بعُدنا عن القصة ؛ فما كان خبر صاحبتك تلك ؟!!

قال : كانت صاحبتي تلك تعلم أني متزوج ؛ ولكن إحدى صديقاتها أنبأتها بكبريائي في الحب ؛ ووصفتني لها صفة الإحساس لا وصف الكلام ؛ فكأنما تنبّهت فيها طبيعة زَهْو الفتاة بأنها فتاة ؛ وغريزة افتتان الأنثى بأن تكون فاتنة ؛ فرأت في إخضاعي لجمالها عملاً تعمله بجمالها .

ومتى كانت الفتاة مستخفة « بالتقاليد » كهذه الأديبة المتعلمة ؛ رأيت كلمة « الزوج » لفظاً على رجل كلفظ الحب عليه ؛ فهما سواء عندها في المعنى ؛ ولا يختلفان إلا في « التقاليد » .

وعرضت لي كما يعرض المصارع للمصارع ؛ إذ كانت من الفتيات المغرورات ؛ اللواتي يحسبن أن في قوتهن العلمية تيّاراً زاخراً لنهرنا

الاجتماعي الراكد ؛ فتاة تخرَّجت في مدرسة أو كلية ؛ أو جاءت من أوروبا بالعالمية ؛ أفتدري أية معجزة مصرية في هذا تباهي بها مصر ؟!!

إن المعجزة أن هذه الفتاة صارت مدرسة ؛ أو مفتشة ؛ أو ناظرة في وزارة المعارف ؛ أو مؤلفة كتب وروايات ؛ أو محررة في صحيفة من الصحف .

ولا يصغُرَنَّ عندك شأن هذه المعجزة ؛ فهي ـ والله ـ معجزة ما دام يتحقق بها خروج الفتاة من حكم الطبيعة عليها ؛ وبقاؤها في الاجتماع المصري امرأة بلا تأنيث ؛ أو انقلابها فيه رجلاً بلا تذكير !!

وكيف لا يكون من المعجزات أن تأليف رواية قد أغنى عن تأليف أُسرة ؛ وأن فتاة تعيش وتموت وما ولدت للأمة إلا مقالات ؟!!

فقلت : يا صاحبي !! دع هؤلاء ؛ وخذ الآن في حديث الطائشة الخارجة على التقاليد ؛ وقد قلت : إنها عرضت لك كما يعرض المصارع للمصارع .

قال : عرضت لي تريد أن تصرِّفني كيف شاءت ؛ فنبوت في يدها ؛ فزادت إلى رغبتها إصرارها على هذه الرغبة ؛ فالتويتُ عليها ؛ فزادت إليهما خشية اليأس والخيبة ؛ فتعسرت معها ؛ فزادت إلى هذه كلها ثورة كبريائها ؛ فلم أتسهل ؛ فانتهت من كل ذلك بعد الرغبة الخيالية التي هي أول العبث والدلال ؛ إلى الرغبة الحقيقية التي هي أول الحب والهوى ؛ رغبة تعذيبي بها لأنها متعذبة بي .

ثم ردَّتها الطبيعة صاغرة إلى حقائقها السلبية ؛ فإذا الكبرياء فيها إنما كانت خضوعاً يتراءى بالعصيان ؛ وإذا الرغبة في تعذيب الرجل إنما كانت التماساً

لأن تنعم به ؛ وإذا الإصرار على إخضاع الرجل وإذلاله إنما كان إصراراً على تجرئته ودفعه أن يستبد ويملك ؛ وردَّتها الطبيعة إلى هذه الحقيقة النسوية الصريحة التي بُنيت المرأة عليها ـ شاءت أم أبت ـ ؛ وهي أن تعاني وتصبر على ما تُعاني !!

أما أنا ؛ فأحببتها حُبًّا عقليًّا ؛ وكان هذا يشتد عليها ؛ لأنه إشفاق لا حُب ؛ وكانت إذا سألتني عن أمر ترتاب فيه ؛ قالت : أجبني بلسان الصدق لا بلسان الشفقة ؛ وكانت تقول : إن في عينيها بكاء لا تستطيع أن تزيله مع الدمع ؛ وسيقتلها هذا البكاء الذي لا يبكى ؛ وقد اتخذت لها في دارها خلوة سمَّتها : « محراب الدمع !! » ؛ قالت : لأنها تبكي فيها بكاء صلاة وحُب ؛ لا بكاء حُبٍّ فقط !!

ثم طاشت الطيشة الكُبرى !!

قلت : وما الطيشة الكُبرى ؟!!

قال : إنها كتبت إليَّ هذه الرسالة :

« عزيزي رغم أنفي !!

لقد أذللتني بشيئين : أحدهما أنك لم تذل لي ؛ وجعلتني - على تعليمي - أشد جهلاً من الجاهلة ؛ وقد نسيت أن المرأة المتعلمة تعرف ثم تعرف مرتين : تعرف كيف تخطئ إذا وجب أن تخطئ ؛ وهذه هي المعرفة الأولى ؛ أما المعرفة الثانية فتوهمها أنت ؛ فكأني قلتُها لك . » .

« اعلم - يا عزيزي رغم أنفي - أني إذا لم أكن عزيزتك رغم أنفك ؛ فسأتي

ما يجعلك سَلَفاً ومَثَلاً ؛ وستكتب الصحف عنك أول حادث يقع في مصر عن أول رجل اختطفته فتاة !!)).

((وبعد ؛ فقد أرسلت رُوحي تعانق روحك ؛ فهل تشعر بها ؟!!)).

قال : فوجمتُ ساعة وتبيَّنت لي خفَّتها ؛ وظهر لي سَفَاهها وطيشها ؛ فأسرعت إليها فجئتها فأجدها كالقاضي في محكمته ؛ لا عقل له إلا عقل الحكم القانوني الذي لا يتغير ؛ ولا إنسان فيه إلا الإنسان المقيد بمادة كذا إذا حدث كذا ؛ والمادة كذا حين يكون وصف الجرم كذا !!

فقلت لها : أهذا هو العلم الذي تعلمتِهِ ؟!! ؛ ألا يكون علم المرأة خليقاً أن يجعل صاحبته ذات عقلين إذا كانت الجاهلة بعقل واحد ؟!!

قالت : العلم ؟!!

قلت : نعم !! ؛ العلم !!

قالت : يا حبيبي !! إن هذا العلم هو الذي وضع المسدس في يد المرأة الأوروبية لعاشقها أو معشوقها !! ؛ ثم أطرقت قليلاً وتنهدت وقالت : والعلم هو الذي جعل الفتاة هناك تتزوج بإرشاد الرواية التي تقرؤها ولو انقلب الزواج رواية ؛ والعلم هو الذي كشف حجاب الفتاة عن وجهها ؛ ثم عاد فكشف حياء وجهها ؛ وأوجب عليها أن تواجه حقائق الجنس الآخر وتعرفها معرفة علمية ؛ والعلم هو الذي جعل خطأ المرأة الجنسي معفوّاً عنه مادام في سبيل مواجهة الحقائق لا في سبيل الهرب منها ؛ والعلم هو الذي جعل المرأة مساوية للرجل ؛ وأكَّد لها أن واحداً وواحداً هما واحد وكلاهما

أول ؛ والعلم هو الذي عرّى أجسام الرجال والنساء ببرهان أشعة الشمس ؛ والعلم - يا عزيزي - هو العلم الذي محا من العالم لفظة « أمس » لا يعرفها وإن كانت فيها الأديان والتقاليد .

قال صاحبها : فقلت لها : كأن العلم إفساد للمرأة !! وكأنه تعليم معرّاتها ونقائصها ؛ لا تعليم فضائلها ومحاسنها !!

قالت : لا ؛ ولكن عقل المرأة هو عقل أنثى دائماً ؛ ودائماً عقل أنثى ؛ وفي رأسها دائماً جو قلبها ؛ وجو قلبها دائماً في رأسها ؛ فإذا لم تكن مدرستها متممة لدارها وما في دارها ؛ تممت فيها الشارع وما في الشارع .

العلم للمرأة ؛ ولكن بشرط أن يكون الأب وهيبة الأب أمراً مُقرّراً في العلم ؛ والأخ وطاعة الأخ حقيقة من حقائق العلم ؛ والزوج وسيادة الزوج شيئاً ثابتاً في العلم ؛ والاجتماع وزواجره الدينية والاجتماعية قضايا لا ينسخها العلم ؛ بهذا وحده يكون النساء في كل أمة مصانع علمية للفضيلة والكمال والإنسانية ؛ ويبدأ تاريخ الطفل بأسباب الرجولة التامة ؛ لأنه يبدأ من المرأة التامة .

أما بغير هذا الشرط ؛ فالمرأة الفلاّحة في حجرها طفل قَذِر ؛ هي خير للأمة من أكبر أديبة تخرج ذرية من الكتب .

انظر يا عزيزي برغم أنفي !! هذه رسالة جاءتني اليوم من صديقتي فلانة الأديبة الـ ... فاسمع قولها :

« وأنا أعيش اليوم في الجمال ؛ لأني أعيش في بعض خفايا الحبيب » .

« وفي الحياة موت حلو لذيذ ؛ عرفت ذلك حينما نسيت نفسي على صدره القوي ؛ وحينما نسيت على صدره القوي صدري » .

أسمعت يا عزيزي ؟!!! ؛ إن كنت لَمَّا تعلم أن هذا هو علم أكثر الفتيات المتعلمات حين يكسد الزواج ؛ فاعلمه ؛ ومتى عمي الشعب والحكومة هذا العمى ؛ فإن حرية المرأة لا تكون أبداً إلا حرية الفكرة المُحَرَّمة !!

قلت لصاحبنا : ثم ماذا ؟!!!

قال : ثم هذا !!

ودسَّ يده في جيبه ؛ فأخرج أوراقاً كتب فيها رواية صغيرة أسماها :

« الطَّائِشَة !! »



.....

✿ ـ الطَّائِشَة
ـ ٢ ـ

.....

وهذا مُحصَّل رواية « الطائشة » ؛ نقلناه من خط الكاتب على مساق ما دوَّنه في أوراقه ؛ وعلى سرده الذي قصَّ به الخبـر ؛ وقد أعطانا من البُرهان ما نطمئن إليه أن هذه « الطائشة » هي من تأليف الحياة لا من تأليفه ؛ وأنه لم يخترع منها حادثة ؛ ولم يأتفك حديثاً ؛ ولم يزدها بفضيلة ؛ ولم يتنقصها بمعرَّة ؛ ثم أشهد على قوله كتب صاحبته الأديبة المستهترة التي لا تبالي ما قالت ولا ما قيل فيها ؛ وهذه الكتب رسائل : منها الموجز ومنها المستفيض ؛ وهي بجملتها تنزل من الرواية منزلة الشروح المفننة ؛ وتنزل الرواية منها منزلة اللُّمَع المقتضبة ؛ وكل ذلك يشبه بعضه بعضاً ؛ فكل ذلك بعضه شاهدٌ على بعضٍ .

ـ قال كاتب « الطائشة »:

كنت رَجُلاً غَزِلاً ولم أكن فاسقاً ؛ ولست كهؤلاء الشُّبَّان أُصيبوا في إيمانهم بالله فأُصيبوا في إيمانهم بكل فضيلة ؛ وذهبوا يحققون المدنيَّة ؛ فحققوا كل شيء إلا المدنيَّة !!.

ترى أحدهم شريفاً يأنف أن يكون لصَّاً وأن يُسمَّى لصَّاً ؛ ثم لا يعمل إلا عمل اللص في استلاب العفاف وسرقة الفتيات من تاريخهن الاجتماعي !! ؛

وتراه نَجِداً يستنكف أن يكون في أوصاف قاطع الطريق ؛ ثم يأبى إلا أن يقطع الطريق في حياة العذارى وشرف النساء !!.

أكثر أولئك الشُّبّان المتعلمين يعرضون للفتيات المتعلمات بوجوه مصقولة تحتمل شيئين : الحُب ؛ والصَّفْع ؛ ولكن أكثر هؤلاء المتعلمات يضعن القُبلة في مكان الصفعة ؛ إذ كان العلم قد حلَّل الغريزة التي فيهن فعادت بقايا لا تستمسك ؛ وبصَّرهن بأشياء تزيد قوة الحياة فيهن خطراً ؛ وتوحي إليهن وحيها من حيث يشعرن ولا يشعرن ؛ وصوَّر في أوهامهن صوراً محت الصور التي كانت في عقائدهن ؛ وأخرجهن من السلب الطبيعي الذي حماهن الله به ؛ فلهن العفة والحياء ؛ ولكن ليس لهن ذلك العقل الغريزي الذي يجيء من الحياء والعفة ؛ وكثيرات منهن يخشين العار وسمته الاجتماعية ولكن خشية فقهاء الحِيَل الشرعية ؛ قد أرصدوا لكل وجهٍ من التحريم وجهاً من التحليل ؛ فأصبح امتناع الإثم هو ألا تكون إليه حاجة .

والعقل الذي به التفكير يكون أحياناً غير العقل الذي به العمل ؛ ففي بعض الجاهلات يكون عقل الحياء والعفة والشرف والدين غريزة كغرائز الوحش ؛ هي الفكرة وهي العمل جميعاً ؛ وهي أبداً الفكرة والعمل جميعاً لا تتغير ولا تتبدَّل ؛ ولا يقع فيها التنقيح الشعري ولا الفلسفي ؛ وما غريزة الوحش إلا إيمانه بمن خلقه وحشاً ؛ وكذلك غريزة الشرف في الأُنثى هي عندي حقيقة إيمانها بمن خلقها أنثى .

وشرف المرأة رأس مال للمرأة ؛ ومن ذلك كان له في أوهام العلم اشتراكية

بحسبه تنظر فيه نظرها وتزيغ زيغها وتقضي حكمها ؛ وأكثر من عرفت من المتعلمين والمتعلمات قد انتهوا بطبيعتهم العلمية إلى الرضى بهذه الاشتراكية وإلى التسامح في كثير؛ وإلى وضع الاعتذار فيما لا يقبل عُذراً ؛ ومن ههنا كان بعض الجاهلات كالحصن المغلق في قمة الجبل الوعر ؛ وكان بعض المتعلمات دون الحصن ؛ ودون القمة ؛ ودون الجبل ؛ حتى تنزل إلى السهل فتراهنَّ ثمة .

لقد غفلت الحكومات عن معنى الدين وحقيقته ؛ فلو عرفت لعرفت أن الإنسانية لا تقوم إلا بالدين والعلم كليهما ؛ فإن في الرجل إنساناً عامًّا ونوعاً خاصًّا مُذكَّراً ؛ وفي المرأة إنساناً عامًّا كذلك ونوعاً خاصًّا مُؤنثاً .

والدين وحده هو الذي يصلح النوع بتحقيق الفضيلة وتقرير الغاية الأخلاقية ؛ وهو الذي يُحاجز بين الغريزتين ؛ وهو الذي يضع القوة الروحية في طبيعة المتعلم ؛ فإن كانت طبيعة التعليم قوية ؛ كانت الروحية زيادة في القوة ؛ وإن كانت ضعيفة كما هي الحال في هذه المدنيَّة ؛ لم تجمع الروحية على المتعلم ضعفين ؛ يبتلي كلاهما الآخر ويزيده .

فلان وفلان تعلقًا فتاتين جاهلة ومتعلمة ؛ وكلتاهما قد صدَّت صاحبها وامتنعت منه ؛ فأما الجاهلة فيقول « فلانها » : إنها كالوحش !! ؛ وإن صدودها ليس صدوداً وحسب ؛ بل هو ثورة من فضيلتها وإيمانها ؛ فيها المعنى الحربي مُجاهداً مُتحفِّزاً للقتل .

وأما المتعلمة فيقول « فلانها » : إنها ككل امرأة ؛ وإن صدودها ثورة ؛ ولكن

من دلالها ؛ تُرضي به أول ما تُرضي وآخر ما تُرضي كبرياء الجمال فيها لا الإيمان ولا الفضيلة ؛ فكأنها إيحاء للطامع أن يزيد طمعاً أو يزيد احتيالاً .

وفلان هذا يقول لي : إن ضعفاء الإيمان من الشبان المتعلمين - وأكثرهم ضعفاء الإيمان - لو حققتَ أمرهم وبلوت سرائرهم ؛ لتبينت أنهم جميعاً لا يرون قلب الفتاة المتعلمة إلا كالدار الخالية كُتب عليها : « للإيجار » !!

- يقول كاتب « الطائشة » :

أما أنا ؛ فقد صحَّ عندي أن سياسة أكثر المتعلمات هي سياسة فتح العين حَذَراً من الشبان جميعاً ؛ وإغماض العين لواحدٍ .

وهذا الواحد هو البلاء كله على الفتاة ؛ فإنها بطبيعتها تتقيد ولا تنفصل إلا مكرهة ؛ وهو بطبيعته قيده لذته ؛ فيتصل وينفصل ؛ غير أنها لابُدَّ لها من هذا الواحد ؛ ففكرها المتعلم يوحي إليها بالحياة لا يجعل في ذلك موضعاً للنكير عندها ؛ والحياة نصف معانيها النفسية في الصديق ؛ فالأنوثة بغيره مُظلمة في حياتها ؛ راكدة في طباعها ؛ ثقيلة على نفسها ؛ مادام « الشعاع » لا يلمسها .

والدين يأبى أن يكون ذلك الصديق إلا الزوج في شروطه وعهوده ؛ كيلا تتقيد المرأة إلا بمن يتقيد بها ؛ والعلم لا يأبى أن يكون الصديق هو الحُب ؛ والفنُّ يوجب أن يكون هو الحُب ؛ وليس في الحب شروط ولا عهود ؛ إلا وسائل تُختلق لوقتها ؛ وأكثرها من الكذب والنفاق والخديعة ؛ ولفظ الحب نفسه لصٌّ لُغويٌّ خبيث ؛ يسرق المعاني التي ليست له وينفق مما يسرق .

وليس من امرأة يخدعها عاشق إلا انكشف لها حُبُّهُ كما ينكشف اللص حين

يُمسَك .

ـ يقول كاتب « الطائشة »:

تلك فلسفة لابُدَّ منها في التوطئة للكتابة عن « عزيزتي رغم أنفي » ؛ ومن كانت مثلها في أفكارها واستدلالها وحُججها وطريقتها ؛ كان خليقاً بمن يكتب قصتها أن يجعل القصة من أولها مُسلَّحة .

لقد تكارهت على بعض ما أرادت مني مادام الحب « رغم أنفي » ؛ وما دامت السياسة أن أُداريها وأتبع محبَّتها ؛ غير أني صارحتها بكلمة شمسية تلمع تحت الشمس : أنها الصداقة لا الحُب ؛ وإنما هو اللهو البريء لا غيره ؛ وأن ذلك جهدٌ ما أنا قويٌ عليه وفيٌّ به .

قالت : فليكن ؛ ولكن صداقة أعلى قليلاً من الصداقة ؛ ولو من هذا الحب المتكبر الذي لا يصدق كيلا يكذب .

إن هذا النوع من الحب يطيش بعقل المرأة ؛ ولكنه هو أول ما يستهيمها ويعجبها ويُورثها التياع الحنين والشوق .

كتبت لي : «أنا لا أتألم في هواك بالألم ؛ ولكن بأشياء منك أقلها الألم ؛ ولا أحزن بالحزن ؛ ولكن بهموم بعضها الحزن » .

« إنك صنعت لي بكاء ودموعاً وتنهدات ؛ وجعلت لي ظلاماً منك ونوراً منك يا نهاري وليلي !! ؛ تُرى ما اسم هذا النوع من الصداقة ؟!!

اسمه الحب ؟!!؛ لا

اسمه الكبرياء ؟!!؛ لا

اسمه الحنان ؟!! ؛ لا

اسمه حُبُّك أنت ؛ أنت أيها الغامض المتقلب !! ؛ ألا ترى ألفاظي تبكي ؟!! ؛ ألا تسمع قلبي يصرخ ؟!! ؛ بأي عدلك أو بأي عدل الناس تريد أن أحيا في عالم شمسه باردة ؟!!

هذا قتل !! هذا قتل !! » .

فكتبت إليها : « إن لم يكن هذا جنوناً ؛ فإنه لقريبٌ منه !! » .

فردَّت على هذه الرسالة :

« أتكاتبني بأسلوب التلغراف ؟!! ؛ لو أهديت إليَّ عِقْداً من الزمرد حباته بعدد هذه الكلمات لكنت بخيلاً ؛ فكيف وهي ألفاظ ؟!! ؛ إني لأبكي في غمضة واحدة بدموع أكثر عدداً من كلماتك ؛ وهي دموع من آلامي وأحزاني ؛ وتلك ألفاظ من لهوك وعبثك !! » .

« ما كان ضرَّك لو كتبت لي بضعة أسطر تنسخها من تلغرافات روتر ؛ ما دمت تسخر مني ؟!! ؛ أأنت الشباب وأنا الكهولة ؟!! ؛ فليس لك بالطبيعة إلا الانصراف عنِّي ؛ وليس لي بالطبيعة إلا الحنين إليك ؟!! » .

لا أدري كيف أحببتُها ؟!! ؛ ولا كيف دعتني إليها نفسي ؟!! ؛ ولكن الذي أعلمه أني تخادعت لها وقلت : إن المستحيل هو منع الشر ؛ والممكن هو تخفيفه ؛ ثم أقبلت أرثي لها ؛ وأُخفِّف عنها ؛ وأقبلت هي تضاعف لي مكرها وخديعتها ؛ وكان الأمر بيننا كما قالت :

« في الحُبِّ والحرب لا يكون الهجوم هجوماً وفيه رفقٌ أو تراجع » .

إن المرأة وحدها هي التي تعرف كيف تقاتل بالصبر والأناة ؛ ولا يشبهها في ذلك إلا دُهاة المُستبدِّين !!

سألتني أن أُهدي إليها رسمي ؛ فاعتللت عليها بأن قلت لها : إن هذا الرسم سيكون تحت عينيك أنت رسم حبيب ؛ ولكنه تحت الأعين الأخرى سيكون رسم مُتَّهم .

وظننتني أبلغت في الحُجَّة وقطعتها عني ؛ فجاءتني من الغد بالرَّدِّ المُفحم ؛ جاءتني بإحدى صديقاتها لتظهر في الرسم إلى جانبي كأنني من ذوي قرابتها ؛ فيكون الرسم رسم صديقتها ؛ ويكون مهدى منها لا مني ؛ وكأنني فيه حاشية جاءت من عمة أو خالة !!

وأصررت على الإباء ؛ ونافرتني القول في ذلك ؛ ترد عليَّ وأرد عليها ؛ وتغاضبنا ؛ وانكسرت حُزناً وذهبت باكية ؛ ثم تسبَّبت إلى رضاي فرضيت .

حدثتني أن صديقتها فلانة الأديبة استطاعت أن تستزير صاحبها فلاناً في مخدعِها !! ؛ في دارها !! ؛ بين أهلها !! ؛ منتصف الليل !!

قلت : وكيف كان ذلك ؟!!

قالت : إنها تحمل شهادة ؛ وهي تلتمس عملاً وقد طال عليها ؛ فزعمت لذويها أنها عثرت في كتاب كذا على رُقية من رُقى السحر ؛ فتريد أن تتعاطى تجربتها بعد نصف الليل إذا مُحق القمر ؛ وأنها ستطلق البخور وتبقى تحت ضبابته إلى الفجر تُهمهم بالأسماء والكلمات !!

ثم إنها اتعدت وصاحبها ليوم ؛ وأجافت باب دارها ولم تغلقه ؛ وأطلقت البخور في مِجْمَر كبير أثار عاصفة من الدخان المعط ؛ وجعل مخدعها كمخدع عروس من ملكات التاريخ القديم ؛ وبقي صاحبها تحت الضبابة يُهمهم وتهمهم ؛ ثم خرج في أغباش السَّحَر !!

هكذا قالت !! ؛ وما أدري أهو خبر عن تلك الصديقة وفلانها ؛ أم هو اقتراح عليَّ أنا من « فلانتي » لأكون لها عفريت الضبابة ؟!!

لم يخفَ عليها أن لَدْعة حُبِّها وقعت في قلبي !! ؛ وأن صبرها قد غلب كبريائي !! ؛ وأن كثرة التلاقي بين رجل وامرأة يطمع أحدهما في الآخر ؛ لابُدَّ أن ينقل روايتهما إلى فصلها الثاني ؛ ويجعل في التأليف شيئاً منتظراً بطبيعة السياق !!

وإلحاح امرأة على رجل قد خلبها وجفا عن صلتها ؛ إنما هو تعرضها للتعقيد الذي في طبيعته الإنسانية ؛ فإن هي صابرته وأمعنت ؛ فقلما يدعها هذا التعقيد من حل لمعضلتها .

وبمثل هذه العجيبة كان تعقيداً ؛ وكان غير مفهوم ولا واضح !! ؛ وقد ينقلب فيه أشد البغض إلى أشد الحب ؛ وقد تعمل فيه حالة من حالات النفس ما لا يعمل السحر ؛ وكذلك يقع للرجل إذا أحب المرأة فَنَبَت عن مودَّته ؛ فعرض للتعقيد الذي في طبيعتها ؛ وأمعن وثبت وصابر .

رأت الجمرة الأولى في قلبي فأضرمت فيه الثانية ؛ حين جاءتني اليوم بكتاب زعمت أن فلاناً أرسله إليها يطارحها الهوى ويبثُّها وَلَهَ الحنين والتياع

الحُب !!

ويقول لها في هذا الكتاب:

« أنا لم أشرب خمراً قط ؛ ولكني لا أراني أنظر إلى مفاتنك ومحاسنك إلا وفي عيني الخمر ؛ وفي عقلي السُّكر ؛ وفي قلبي العربدة !!

جعلتِ لي - ويحك !! - نظرة سكّير فيها نسيان الدنيا ؛ وما في الدنيا ما عدا الزُّجاجة !! » .

ويختمه بهذه العبارة:

« آه !! لو استطعت أن أجعل كلامي في نفسك ناعماً ؛ ساحراً ؛ مُسكراً ؛ مثل كلام الشفة للشفة حين تُقبّلها !! ».

عند هذا وقع الشيء المنتظر في الفصل الثاني من الرواية ؛ وخُتم هذا الفصل بأول قُبلة على شفتي « الممثلة » !!

قالت : هذه القُبلة كانت « غلطة مطبعية » ؛ ومضت تسميها كذلك ؛ واستمرت المطبعة تغلط !!

وما علمت إلا من بعد أن ذلك الكتاب الذي استوقدت به غيرتي إنما كان من عملها ومكرها !!

وجاءتني اليوم بآبدةٍ من أوابدها !! ؛ قالت :

أنت رجعيٌّ محُافظٌ على التقاليد !!

قلت : لأني أرى هذه التقاليد كالصباح الذي يتكرر في كل يوم ؛ وهو في كل يوم ضياء ونور .

قالت: أو كالمساء الذي يتكرر؛ وهو في كل يوم ظلام وسَوَاد !!
قلت: ليس هذا إليَّ ولا إليك؛ بل الحُكم فيه للنفع أو الضرر.
قالت: بل هو إلى الحياة؛ والحياة اليوم عِلْمية أوروبية؛ والزمن حَثِيث في تقدمه؛ وأصحاب « التقاليد » جامدون في موضعهم قد فاتهم الزمن؛ ولذلك يسمونهم « متأخرين »؛ أما علمت أن الفضيلة قد أصبحت في أوروبا زيّاً قديماً؛ فأخذ المقص يعمل في تهذيبها؛ يقطع من هنا ويشق من هنا ؟!!
اسمع أيها « المتأخر »؛ وتأمل هذا البرهان الأوروبي العصري:
أخبرتني صديقتي « فلانة » حاملة شهادة: أنها كانت في القطار بين الإسكندرية والقاهرة؛ وكانت معها فتاة من جيرتها تحمل الشهادة الابتدائية ـ فجمعهما السفر بشابٍّ وسيمٍ ظريفٍ يشارك في الأدب؛ غير أنه رجعيٌّ « متأخر »؛ وصديقتي تعرف من كل شيء شيئاً؛ وتأخذ من كل فنٍّ بطرف؛ فجرى الحديث بينهما مجراه؛ وتركت الصديقة نفسها لدواعيها؛ وانطلقت على سَجِيَّتها الظريفة؛ ووضعت فنَّ لسانها في الكلام؛ فجعلت فيه روح التقبيل !!
ولم تبلغ إلى القاهرة حتى كانت قد سحرت ذلك « المتأخر » ووقعت من نفسه؛ ودفعته إلى الزمن الذي هو فيه؛ فلما همَّت بوداعه سألهما: أين تذهبان ؟
فأغضَتْ صاحبة الشهادة الابتدائية؛ وأطرقت حياءً؛ ورأت في السؤال تهمة

وريبة ؛ فأنَّبتها الصديقة وأيقظتها من حيائها !! ؛ وقالت لها : ألا تزالين شرقية متأخرة ؟!! ؛ إن لم يسعدنا الحظ أن تكون لنا حرية المرأة الأوروبية في المجتمع وفي أنفسنا ؛ أفلا يسعنا أن تكون لنا هذه الحرية ولو في أنفسنا ؟!!

ثم ردَّت على الشاب فأنبأته بمكانها وعنوانها ؛ فأطمعه ردُّها ؛ فسألها أن تتنزَّه معه في بعض الحدائق ؛ فأبت صاحبة الابتدائية ولجَّت عمايتها الشرقية المتأخرة ؛ ورأت في ذلك مسقطة لها ؛ فلَوَت إلى دارها وتركتهما إنساناً وإنساناً لا فتى وفتاة !! ؛ وتنزها معاً ؛ وعرف الشاب الرجعيُّ الحُب !! ؛ والخمر التي هي تحية الحُب !!

ولم تستطع الفتاة الماكرة أن ترجع إلى دارها وهي سكرى كما زعمت للشاب ؛ فأوت إلى فندق ؛ وخُتمت روايتهما بإعراض من الشاب ؛ أجابت هي عليه بقولها : ألا زلت « متأخراً » ؟!!

ـ قالت « الطائشة » :

نعم يا عزيزي« المتأخر » ؛ إن مذهب المرأة الحُرَّة في الفرق بين الزوج وغير الزوج ـ أن الأول رجُلٌ ثابت ؛ والآخر رجل طارئ ؛ والثابت ثابت معها بحقه هو ؛ والطارئ طارئ عليها بحقها هي ؛ فإن كانت حُرَّة فلها حقها .

قال كاتب الطائشة :

وهنا !! هنا !! هنا !! كاد الشيطان يرفع الستار عن فصل ثالث في هذه الرواية !!... رواية « الطائشة »!!

نقول نحن : وإلى هنا ينتهي نصف الرواية ؛ أما النصف الآخر فيكاد يكون

قصة أُخرى اسمها !!...: «الطائش والطائشة »!!.



.....

✿ - دُمُوعٌ مِن رَسَائِلِ الطَّائِشَة

-١-

.....

ورسائل هذه الطائشة إلى صاحبها - تُقرأ في ظاهرها على أنها رسائل حُب ؛ قد كُتِبَت في الفنون التي يترسَّل بها العُشَّاق ؛ ولكن وراء كلامها كلاماً آخر ؛ تُقرأ به على أنها تاريخ نفس ملتاعة لا تزال شعلة النار فيها تتنمَّى وترتفع ؛ وقد فدحتها بظلمها الحياة إذ حصرتها في فنٍّ واحدٍ لا يتغيَّر ؛ وأوقعتها تحت شرطٍ واحدٍ لا يتحقق ؛ وصَرَّفتها بفكرةٍ واحدةٍ لا تزال تخيب .

وأشد سجون الحياة فكرة خائبة يُسجن الحيُّ فيها ؛ لا هو مستطيع أن يدعها ؛ ولا هو قادرٌ أن يحققها ؛ فهذا يمتد شقاؤه ما يمتد ولا يزال كأنه على أوله لا يتقدم إلى نهاية ؛ ويتألم ما يتألم ولا تزال تشعره الحياة أن كل ما فات من العذاب إنما هو بَدْءُ العذاب .

والسعادة في جُملتها وتفصيلها أن يكون لك فكر غير مقيد بمعنى تتألم منه ؛ ولا بمعنى تخاف منه ؛ ولا بمعنى تحذر منه ؛ والشقاء في تفصيله وجملته انحباس الفكر في معاني الألم والخوف والاضطراب .

وقد اخترنا من رسائل « الطائشة » هذه الرسالة المصورة التي يبرق شعاعها وتكاد تقوم مدة بإزاء نفسها كالمرآة بإزاء الوجه ؛ وهي فيها عذبة الكلام من

أنها مُرَّة الشعور، متسقة الفكر من أنها مختلة القلب؛ مُسدَّدة المنطق من أنها طائشة النفس؛ تلك إحدى عجائب الحب !! ؛ كلما كان قَفْرًا مُمحلاً اخضرَّت فيه البلاغة وتفنَّنت والتفَّت؛ وعلى قلة المُتعة من لذاته تزيد فيه المتعة من أوصافه؛ ولكأن هذا الحب طبيعة غريبة تُرْوَى بالنار فتخصب عليها وتتفتق بمعانيها؛ كما تروى الأرض بالماء فتخصب وتتغطى بنباتها؛ فإن رَوِيَ الحب من لذاته وبرد عليها؛ لم ينبت من البلاغة إلا أخفها وزناً وأقلها معاني؛ كأول ما يبدو النبات حين يتفطر الثرى عنه؛ تراه فتحسبه على الأرض مَسْحَة لون أخضر؛ أو لم ينبت إلا القليل القليل كالتَّعَاشِيب في الأرض السَّبِخَة.

إن قصة الحب كالرواية التمثيلية ـ أبلغ ما فيها وأحسنه وأعجبه ما كان قبل «العُقْدة»؛ فإذا انحلَّت هذه العقدة فأنت في بقايا مفسرة مشروحة تريد أن تنتهي؛ ولا تحتمل من الفن إلا ذلك القليل الذي بينها وبين النهاية.

ـ وهذه هي رسالة الطائشة إلى صاحبها:

.....

«ماذا أكتب لك غير ألفاظ حقيقتي وحقيقتك ؟!!

يُخيَّل إليَّ أن ألفاظ خضوعي وتضرُّعي متى انتهت إليك انقلبت إلى ألفاظ شجار ونزاع !!

أيُّ عدلٍ أن تلمسك حياتي لمسة الزهرة الناعمة بأطراف البَنَان؛ وتقذفني أنت قذف الحجر بملء اليد الصلبة متمطية فيها قوة الجسم ؟!!

جعلتَني في الحب كآلة خاضعة تُدَار فتدور؛ ثم عبثتَ بها فصارت متمردة تُوقّف ولا تقف؛ والنهاية - لا ريب فيها - اختلال أو تحطيم !!

وجعلت لي عالماً؛ أما ليله فأنت والظلام والبكاء؛ وأما نهاره فأنت والضياء والأمل الخائب !!

هذا هو عالمي: أنتَ !! أنتَ !!

سمائي كأنها رقعة أطبقت عليها كل غيوم السماء؛ وأرضي كأنها بقعة اجتمعت فيها كل زلازل الأرض !! لأنك غَيْمَة في حياتي؛ وزلزلة في أيامي !!

يا بُعْدَ ما بين الدنيا التي حولي؛ وبين الدنيا التي في قلبي !!

ما يجمل منك أن تُلزمني لوم خطأ أنت المخطئ فيه !!

سلني عن حُبِّي أُجبك عن نكبتي !!؛ وسلني عن نكبتي أجبك عن حُبِّي !!

كان ينبغي أن تكون لي الكبرياء في الحب؛ ولكن ماذا أصنع وأنت منصرف عني ؟!!؛ ويلاه من هذا الانصراف الذي يجعل كبريائي رضىً مني بأن تنسى !! فتنسى.

ليس لي من وسيلة تعطفك إلا هذا الحب الشديد الذي هو يصدك؛ فكأن الأسباب مقلوبة معي منذ انقلبتَ أنت.

ويُخَيَّل إليَّ من طغيان آلامي أن كل ذي حزن فعندني أنا تمام حزنه !!

ويُخَيَّل إلي أني أفصح من نطق بآه !!

عذابي عذاب الصادق الذي لا يعرف الكذب أبداً أبداً؛ بالكاذب الذي لا

يعرف الصدق أبداً أبداً !!

كم يقول الرجال في النساء ؛ وكم يصفونهن بالكيد والغدر والمكر ؛ فهل جئت أنت لتعاقب الجنس كله فيَّ أنا وحدي ؟!!

ما لكلامي يتقطع كأنما هو أيضاً مُختنق ؟!!

لشدَّ ما أتمنى أن أشتري انتصاري ؛ ولكن انتصاري عليك هو عندي أن تنتصر أنت .

إن المرأة تطلب الحرية وتُلِحُّ في طلبها ؛ ولكن الحياة تنتهي بها إلى يقين لا شك فيه ـ هو أن ألطف أنواع حريتها في ألطف أنواع استعبادها !!

حتى في خيالي أرى لكَ هيئة الآمر الناهي أيها القاسي !! ؛ لا أحب منك هذا ؛ ولكن لا يعجبني منك إلا هذا !!

ويزيدك رفعة في عيني أنك تحاول قط أن تزيد رفعة في عين .

فالمرأة لا تحب الرجل الذي يعمل على أن يلفتها دائماً ليرفع من شأنه عندها .

إن الطبيعة قد جعلت الأنوثة « في الإنسان » هي التي تلفت إلى نفسها بالتصنع والتزيد ؛ وعرض ما فيها وتكلف ما ليس فيها ؛ فإن يصنع الرجل صنيعها فما هو في شيء إلا تزيين احتقاره !!

التزيد في الأنوثة زيادة في الأنثى عند الرجل ؛ ولكن التزيد في الرجولة نقص في الرجل عند الأنثى !!

ارفع صوتك بكلماتي تسمع فيها اثنين : صوتك !! وقلبي !!

ليست هي كلماتي لديك أكثر مما هو أعمالك لدي .

وليس هو حُبِّي لك أكبر مما هو ظلمك لي !!

ما أشد تَعْسي إذا كنتُ أخاطب منك نائماً يسمع أحلامه ولا يسمعني !!

ما أتعس من تُبكيه الحياة بكاءها المفاجئ على ميِّت لا يرجع ؛ أو بكاءها المألوف على حبيبٍ لا يُنَال !!

ولكن ؛ فلأصبر ولأصبر على الأيام التي لا طعم لها ؛ لأن فيها الحبيب الذي لا وفاء له !!

إنَّ المصاب بالعمى اللونيِّ يرى الأحمر أخضر ؛ والمصاب بعمى الحب يرى الشخص القَفْر كله أزهاراً .

عمىً مُركَّبٌ أن تكون أزهاراً من الأوهام ولها مع ذلك رائحة تعبق !!

وعمىً في الزمن أيضاً أن ينظر إلى الساعة الأولى من ساعات الحب ؛ فيرى الأيام كلها في حكم هذه الساعة !!

وعمىً في الدم أن يشعر بالحبيب يوماً ؛ فلا يزال من بعدها يحيي خياله ويغذِّيه أكثر مما يحيي جسم صاحبه !!

وعمىً في العقل أن يجعل وجه إنسان واحد كوجه النهار على الدنيا ؛ تظهر الأشياء في لونه ؛ وبغير لونه تنطفئ الأشياء !!

وعمىً في قلبي أنا ؛ هذا الحب الذي في قلبي !!

ليس الظلام إلا فقدان النور ؛ وليس الظلم في الناس إلا فقدان المساواة بينهم .

وظلم الرجال للنساء عمل فقدان المساواة ؛ لا عمل الرجال .

كيف تسخر الدنيا من متعلمة مثلي ؛ فتضعها موضعاً من الهوان والضعف بحيث لو سُئلت أن تكتب « وظيفتها » على بطاقة ؛ لما كتبتْ تحت اسمها إلا هذه الكلمة : « عاشقة فلان » ؟!!

وحتى في ضعف المرأة لا مساواة بين النساء في الاجتماع ؛ فكل متزوجة وظيفتها الاجتماعية أنها زوجة ؛ ولكن ليس لعاشقة أن تقول : إن عشقها وظيفتها .

وحتى في الكلام عن الحُبِّ لا مساواة ؛ فهذه فتاة تحب فتتكلم عن حُبِّها ؛ فيقال : فاجرة !! وطائشة !!

ولا ذنب لها غير أنها تكلمت .

وأخرى تحب وتكتم ؛ فيقال : طاهرة عفيفة .

ولا فضيلة فيها إلا أنها سكَتَتْ .

أول المساواة بين الرجال والنساء أن يتساوى الكل في حرية الكلمة المخبوءة .

لا !! لا !! قد رجعت عن هذا الرأي !!

إن القلق إذا استمر على النفس انتهى بها آخر الآمر إلى الأخذ بالشاذِّ من قوانين الحياة .

والنساء يُقلقْنَ الكون الآن مما استقر في نفوسهن من الاضطراب ؛ وسيخرِّبْنَه أشنع تخريب !!

ويلٌ للاجتماع من المرأة العصرية التي أنشأها ضعف الرجل !! إن الشيطان لو

خُيِّر في غير شكله لما اختار إلا أن يكون امرأة حُرَّة متعلمة خيالية كاسدة لا تجد الزوج !!

ويلٌ للاجتماع من عذراء بائرة خيالية ؛ تريد أن تفر من أنها عذراء !! لقد امتلأت الأرض من هذه القنابل ؛ ولكن ما من امرأة تفرط في فضيلتها إلا وهي ذنب رَجُلٍ قد أهمل في واجبه .

هل تملك الفتاة عِرْضها أو لا تملك ؟!!

هذه في المسألة .

إن كانت تملك ؛ فلها أن تتصرف وتعطي ؛ أو لا ؛ فلماذا لا يتقدم المالك ؟!!

هذه المدنية ستنقلب إلى الحيوانية بعينها ؛ فالحيوان الذي لا يعرف النسب لا تعرف أنثاه العرض !!

وهل كان عبثاً أن يفرض الدين في الزواج شروطاً وحقوقاً للرجل والمرأة والنسل ؟ ؛ ولكن أين الدين ؟!! ؛ واأسفاه !! لقد مَدَّنوه هو أيضاً !!

طالت رسالتي إليكَ يا عزيزي ؛ بل طاشت !! ؛ فإني حين أجدك أفقد اللغة ؛ وحين أفقدك أجدها !!

ولقد تكلمتُ عن الدين ؛ لأني أراكَ أنتَ بنصف دين !!

فلو كنت ذا دين كامل لتزوجت اثنتين !!

لا !! لا !! ؛ قد رجعت عن الرأي !!



.....

۞ - فَلْسَفَةُ الطَّائِشَة

.....

وهذا مجلس من مجالس « الطائشة » مع صاحبها ؛ مما تسقّطه من حديثها ؛ فقد كان يكتب عنها ما تصيب فيه وما تخطئ ؛ كما يكتب أهل السياسة بعضهم عن بعض إذا فاوض الحليف حليفه ؛ أو ناكر الخصم خصمه ؛ فإن كلام الحبيب والسياسي الداهية ليس كلام المتكلم وحده ؛ بل فيه نطق الدولة ؛ وفيه الزمن يُقبل أو يُدبر .

وصاحب الطائشة كان يراها امرأة سياسية كهذه الدول التي تزعم صديقاً على الصداقة ؛ لأنه في طريقها أو طريق حوادثها ؛ وكان يُسمِّيها « جيش احتلال » ؛ إذ حطّتْ في أيامه واحتلتها فتبوأت منها ما شاءت على رغمه ؛ واستباحت ما أرادت مما كان يحميه أو يمنعه .

وقد كان في مدافعته حُبَّها واستمساكه بصداقتها كالذي رأى ظل شيء على الأرض ؛ فيحاول غسله أو كنسه أو تغطيته ؛ فهذا ليس مما يُغسل بالماء ؛ ولا يُكنس بالمِكْنَسة ؛ ولا يُغطّى بالأغطية ؛ إنما إزالته في إزالة الشبح الذي هو يلقيه ؛ أو إطفاء النور الذي هو يثبته .

في كل شيء على هذه الأرض سخرية ؛ والسخرية من الحُسن الفاتن الذي تقدسه ؛ تأتي من اشتهاء هذا الحُسن ؛ فذاك إسقاطه سقوطاً مُقدَّساً ؛ أو ذاك

تقديسه إلى أن يسقط ؛ أو هو جعل تقديسه باباً من الحيلة في إسقاطه .
لابُدَّ من سُفْلٍ مع العلو يكون أحدهما كالسخرية من الآخر ؛ فإذا قال رجل لامرأة قد فتنته أو وقعت من نفسه : « أُحِبُّك » أو قالتها المرأة لرجل وقع من نفسها أو استهامها ؛ ففي هذه الكلمة الناعمة اللطيفة كل معاني الوقاحة الجنسية ؛ وكل السخرية بالمحبوب سخرية بإجلال عظيم ؛ وهي كلمة شاعر في تقديس الجمال والإعجاب به ؛ غير أنها هي بعينها كلمة الجزّار الذي يرى الخروف في جماله اللحمي الدُّهني ؛ فيقول : « سمين !! »
لهذا يمنع الدين خلوة الرجل بالمرأة ؛ ويحرم إظهار الفتنة من الجنس للجنس ؛ ويفصل بمعاني الحجاب بين السالب والموجب ؛ ثم يضع لأعين المؤمنين والمؤمنات حجاباً آخر من الأمر بغضٌ البصر ؛ إذ لا يكفي حجاب واحد ؛ فإن الطبيعة الجنسية تنظر بالداخل والخارج معاً ؛ ثم يطرد عن المرأة كلمة الحب إلا أن تكون من زوجها ؛ وعن الرجل إلا أن تكون من زوجته ؛ إذ هي كلمة حيلة في الطبيعة أكثر مما هي كلمة صدق في الاجتماع ؛ ولا يؤكد في الدين صدقها الاجتماعي إلا العَقْد والشهود لربط الحقوق بها ؛ وجعلها في حياطة القوة الاجتماعية التشريعية ؛ وإقرارها في موضعها من النظام الإنساني ؛ فليس ما يمنع أن يكون العاشق من معاني الزوج ؛ أما أن يكون من معنى آخر أو يكون بلا معنى فلا ؛ وكل ذلك لصيانة المرأة ؛ مادامت هي وحدها التي تلد ؛ ومادامت لا تلد للبيع .
وفلسفة هذه الطائشة فلسفة امرأة ذكية مطلعة محيطة مفكرة ؛ تبصر لكتب

العقل والحوادث جميعاً ؛ وقد أصبحت بعد سقطة حُبِّها ترى الصواب في شكلين لا شكل واحد ؛ فتراه كما هو في نفسه ؛ وكما هو في أغلاطها .

وقد أسقطنا في رواية مجلسها ما كان من مطارحات العاشقة ؛ واقتصرنا على ما هو كالإملاء من الأستاذة .

ـ قال صاحب « الطائشة » :

ذكرت لها « قاسم أمين » ؛ وقلت : إنها خير تلاميذه وتلميذاته ؛ حتى لكأنها تجربة ثلاثين سنة لآرائه في تحرير المرأة .

فقالت : إنما كان قاسم تلميذ المرأة الأوروبية ؛ وهذه المرأة بأعيننا ؛ فما حاجتنا نحن إلى تلميذها القديم ؟!!

قالت : وأبلغ من يرد على قاسم اليوم هي أستاذته التي شبَّت بها أطوار الحياة بعد ؛ فقد أثبت قاسم ـ غفر الله له ـ أنه انحصر في عهد بعينه ولم يُتبع الأيام نظره ؛ ولم يستقرئ أطوار المدنية ؛ فلم يقدر أن هذا الزمن المتمدن سيتقدم في رذائله بحكم الطبيعة أسرع وأقوى مما يتقدم في فضائله ؛ وأن العلم لا يستطيع إلا أن يخدم الجهتين بقوة واحدة ؛ فأقواهما بالطبيعة أقواهما بالعلم ؛ وكأن الرجل كان يظن أنه ليس تحت الأرض زلازل ؛ ولا تحت الحياة مثلها .

مزَّق البُرقع وقال : « إنه مما يزيد في الفتنة ؛ وإن المرأة لو كانت مكشوفة الوجه لكان في مجموع خَلْقها ـ على الغالب ـ ما يرد البصر عنها » .

فقد زال البُرقع ؛ ولكن هل قدر قاسم أن طبيعة المرأة منتصرة دائماً في الميدان الجنسي بالبُرقع وبغير البُرقع ؛ وأنها تخترع لكل معركة أسلحتها ؛ وأنها إن

كشفت بُرقع الخز فستضع في مكانه بُرقع الأبيض والأحمر ؟!!

وزعم أن : « النقاب والبُرقع من أشدِّ أعوان المرأة على إظهار ما تظهر وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة ؛ لأنهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد ؛ فيقول : فلانة ؛ أو بنت فلان ؛ أو زوج فلان كانت تفعل كذا ؛ فهي تأتي كل ما تشتهيه من ذلك تحت حماية البُرقع والنقاب » .

فقد زال البُرقع والنقاب ؛ ولكن هل قدَّر قاسم أن المرأة السافرة ستلجأ إلى حماية أخرى ؛ فتجعل ثيابها تعبيراً دقيقاً عن أعضائها ؛ وبدلاً من أن تُلبس جسمها ثوباً يكسوه ؛ تُلبسه الثوب الذي يكسوه ويزينه ويظهره ويحركه في وقت معاً ؛ حتى ليكاد الثوب يقول للناظر : هذا الموضع اسمه !!... ؛ وهذا الموضع اسمه !!... ؛ وانظر هنا !!... ؛ وانظر ههنا !!.

ما زادت المدنية على أن فكَّكت المرأة الطيِّبة ثم ركبَّتها في هذه الهندسة الفاحشة !!

وأراد قاسم أن يعلمنا الحب لنربط به الزوج معنا ؛ فلم يزد على أن جرَّأنا على الحب الذي فرَّ به الزوج منَّا ؛ وقد نسي أن المرأة التي تخالط الرجل ليعجبها وتعجبه فيصيرا زوجين ؛ إنما تخالط في هذا الرجل غرائزه قبل إنسانيته ؛ فتكون طبيعته وطبيعتها هي محل المخالطة قبل شخصيهما ؛ أو تحت ستار شخصيهما ؛ وهو رجل وهي امرأة ؛ وبينهما مصارعة الدم ؛ وكثيراً ما تكون المسكينة هي المذبوحة !!

وقد انتهينا إلى دهر يُصنع حُبُّهُ ومجالس أحبابه في « هوليود » وغيرها من مدن السينما ؛ فإن رأى الشباب على الفتاة مظهر العفة والوقار قال : بلادة في الدم ؛ وبلاهة في العقل ؛ وثقل أيُّ ثقل !!

وإن رأى غير ذلك قال : فجور وطيش ؛ واستهتار أيُّ استهتار !!

فأين تستقر المرأة ؛ ولا مكان لها بين الضدين ؟!!

أخطأ قاسم في إغفال عامل الزمن من حسابه ؛ وهاجم الدين بالعُرْف ؛ وكان من أفحش غلطه ظنُّه العُرف مقصوراً على زمنه ؛ وكأنه لم يدر أن الفرق بين الدين وبين العُرف ـ هو أن هذا الأخير دائم الاضطراب ؛ فهو دائم التغيُّر ؛ فهو لا يصلح أبداً قاعدة للفضيلة ؛ وها نحن أولاء قد انتهينا إلى زمن العُرْي ؛ وأصبحنا نجد لفيفاً من الأوروبيين المتعلمين ؛ رجالهم ونسائهم ؛ إذا رأوا في جزيرتهم أو محلتهم أو ناديهم رَجُلاً يلبس في حِقْوَيه تُبَّاناً قصيراً كأنه ورق الشجر على موضعه ذاك من آدم وحواء ؛ إذا رأوا هذا المتعفف بخرقة ؛ أنكروا عليه وتساءلوا بينهم : من ؟!! ؛ من هذا الراهب ؟!!

ونسي قاسم ـ غفر الله له ـ أن للثياب أخلاقاً تتغير بتغيرها ؛ فالتي تفرغ الثوب على أعضائها إفراغ الهندسة ؛ وتلبس وجهها ألوان التصوير ؛ لا تفعل ذلك إلا وهي قد تغير فهمها للفضائل ؛ فتغيرت بذلك فضائلها ؛ وتحولت من آيات دينية إلى آيات شعرية !! ؛ وروح المسجد غير روح الحانة !! ؛ وهذه غير روح المرقص ؛ وهذه غير روح المخدع ؛ ولكل حالة تلبس المرأة لبساً فتخفي منها وتبدي ؛ وتحريك البيئة لتتقلب هو بعينه تحريك النفس لتتغير صفاتها .

وأين أخلاق الثياب العصرية في امرأة اليوم ؛ من تلك الأخلاق التي كانت لها من الحجاب ؟!! ؛ تبدلت بمشاعر الطاعة ؛ والصبر ؛ والاستقرار ؛ والعناية بالنسل ؛ والتفرغ لإسعاد أهلها وذويها ـ مشاعر أخرى ؛ أولها كراهية الدار والطاعة والنسل ؛ وحسبك من شرٍّ هذا أولُه وأخفُّه !!

كان قاسم كالمخدوع المغترّ بآرائه ؛ وكان مُصلحاً فيه روح القاضي ؛ والقاضي بحكم عمله مقلد متبع ؛ أليس عليه أن يسند رأيه دائماً إلى نصٍّ لم يكن له فيه شأن ولا عمل ؟!!

من ثمَّ كثرت أغلاط الرجل حتى جعل الفرق بين فساد الجاهلة وفساد المتعلمة ـ أن الأولى « لا تكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذي تريد أن تقدم له أفضل شيء لديها ؛ هو نفسها ؛ وعلى خلاف ذلك يكون النساء المتعلمات ؛ إذا جرى القدر عليهن بأمر مما لا يحل لهن ؛ لم يكن ذلك إلا بعد محبة شديدة يسبقها علم تام بأحوال المحبوب » ... ؛ « وشمائله وصفاته ؛ فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم في كل وقت !! » ... ؛ « وهي تحاذر أن تضع ثقتها في شخص لا يكون أهلاً لها ؛ ولا تسلم نفسها إلا بعد مناضلة يختلف زمنها وقوة الدفاع فيها حسب الأمزجة ؟!!»... ؛ « وهي في كل حال تستتر بظاهر من التعفف ؟!! » .

أليس هذا كلام قاضٍ من القضاة المدنيين المتفلسفين على مذهب « لمبروزو » يقول لإحدى الفاجرتين : أيتها الجاهلة الحمقاء ؛ كيف لم تتحاشي ولم تتستري فلا يكون للقانون عليك سبيل ؟!!

وحتى في هذا قد أثبت قاسم أنه لا يعرف الأرنب وأذنيها !! ؛ وإلا فمتى كان في الحب اختيار ؟!! ؛ ومتى كان الاختيار يقع « فيما يجري به القدر » ؟!! ؛ ومتى كان نظر العاشقة إلى الرجال نظراً سيكولوجيًّا كنظر المعلمة إلى صبيانها ؛ فتدرس الصفات والشمائل في مئات وألوف ممن تراهم في كل وقت لتصفيها كلها في واحد تختاره من بينهم ؟!!

هذا مضحكٌ !! هذا مضحكٌ !!

إليك خبراً واحداً مما تنشره الصحف في هذه الأيام : كفرار بنت فلان باشا خريجة مدرسة كذا مع سائق سيارتها ؛ ففسِّرْ لي أنت كلام قاسم ؟!! ؛ وأفهمني كيف يكون اثنان واثنان خمسة وعشرين ؟!! ؛ وكيف يكون فرار متعلمة أصيلة مع سائق سيارة هو محاذرة وضع الثقة فيمن لا يكون أهلاً لها ؟!!

لقد أغفل قاسم حساب الزمن في هذا أيضاً ؛ فكثير من المنكرات والآثام قد انحلَّ منها المعنى الديني ؛ وثبت في مكانه معنى اجتماعي مقرر ؛ فأصبحت المتعلمة لا تتخوف من ذلك على نفسها شيئاً ؛ بل هي تقارفه وتستأثر به دون الجاهلة ؛ وتلبس له« السواريه »؛ وتقدم فيه للرجال المهذبين مرة ذراعها ؛ ومرة خصرها !!

أقرأت « شهرزاد » ؟ ؛ إن فيها سطراً يجعل كتاب قاسم كله ورقاً أبيض مغسولاً ليس فيه شيء يُقرأ !! :

قالت شهرزاد المتعلمة ؛ المتفلسفة ؛ البيضاء ؛ البضَّة ؛ الرشيقة ؛ الجميلة ـ للعبد

الأسود الفظيع الدميم الذي تهواه : « ينبغي أن تكون أسود اللون ؛ وضيع الأصل ؛ قبيح الصورة ؛ وتلك صفاتك الخالدة التي أُحِبُّها » .

فهذا كلام الطبيعة لا كلام التأليف والتلفيق والتزوير على الطبيعة .

ـ قال صاحب « الطائشة » :

فقلت لها : فإذا كان قاسم لا يُرضيكِ ؛ وكان الرجل مصلحاً دخلتْهُ روح القاضي ؛ فخلط رأياً صالحاً وآخر سيِّئاً ؛ فلعل « مصطفى كمال » همككِ من رجل في تحرير المرأة تحريراً مزق الحجاب والـ ...؟!!

قالت : إن مصطفى كمال هذا رجل ثائر ؛ يسوق بين يديه الخطأ والصواب بعصاً واحدة ؛ ولا يمكن في طبيعة الثورة إلا هذا ؛ ولا يبرح ثائراً حتى يتم انسلاخ أُمَّته ؛ وله عقلٌ عسكريٌّ كان يمكر به مكر الألمان ؛ حين أكرههم الحلفاء على تحويل مصانع « كروب » ؛ فحولوها تحويلاً يردها بأيسر التغيير إلى صنع المدافع والمهلكات ؛ وليس الرجل مصلحاً البتة ؛ بل هو قائد زهاه النصر الذي اتفق له ؛ فخرج من تلك الحرب الصغيرة وعلى شفتيه كلمة : « أريد » ؛ وجعل بعد ذلك إذا غلِط غلطة أرادها منتصرة ؛ فيفرضها قانوناً على المساكين الذين يستطيع أن يفرض عليهم ؛ فيقهرهم عليها ولا يناظرهم فيها ؛ ويأخذهم كيف شاء ؛ ويدعهم كيف أحب ؛ وبكلمة واحدة : هو مؤلف الرواية ؛ والقانون نفسه أحد الممثلين .

وحقده على الدين وأهل الدين هو الدليل على أنه ثائر لا مصلح ؛ فإن أخص أخلاق الثورة حقد الثائرين ؛ وهذا الحقد في قوة حرب وحدها ؛ فلا

يكون إلا مادة للأفعال الكثيرة المذمومة .

والرجل يحتذي أوروبا ويعمل على أعمال الأوروبيين في خيرها وشرِّها ؛ ويجعل رذائلهم من فضائلهم على رغم أنفهم ؛ يتبرءون منها ويُلحقها هو بقومه ؛ فكأنه يعتنف الآراء ويأخذها أخذاً عسكريًّاً ؛ ليس في الأمر إلا قوله « أريد » ؛ فيكون ما يريد .

هو لم يحكم على شبر من أوروبا يجعله تركيًّاً ؛ ولكنه جعل رذائل أوروبا تتجنس بالجنسية التركية .

وتالله ؛ إنه لأيسر عليه أن يجيء بملائكة أو شياطين من المَرَدَة ؛ ينفخون أرض تركيا فيَمُطُّونها مطّاً فيجعلونها قارَّة ؛ من أن يُكره أوروبا على اعتبار قومه أوروبيين بلبس قبعة وهدم مسجد .

إنه لا يزال في أول التاريخ ؛ وهذا الشعب الذي انتصر به لم تلده مبادئه ؛ ولا أنشأه هدم العلماء ؛ بل هو الذي ولدته تلك الأمهات ؛ وأخرجه أولئك الآباء ؛ وما كان يعوزه إلا القائد الحازم المصمم ؛ فلما ظفر بقائده جاء بالمعجزة ؛ فإذا فُتن القائد بنفسه وأبى إلا أن يتحول نبيًّاً ؛ فهذا شيء آخر له اسم آخر .

ولنفرض « الأثير » كما يقول العلماء ؛ لنستطيع أن نجعل مسألتنا هذه علمية ؛ وأن نبحثها بحثاً علميًّاً ؛ فليكن مصطفى كمال هو اللورد كتشنر في إنجلترا ؛ فيكسب اللورد كتشنر تلك الحرب العظمى لا حرب الدويلة الصغيرة ؛ وينتصر على البراكين من الجيوش لا على مثل براميل النبيذ .

ثم يستعز الرجل بدالّته على قومه ؛ ويدخله الغرور ؛ فيتصنع لهم مرة ؛ ويتزين لهم مرة ؛ ثم يأتيهم بالآبدة فيسفه دينهم ؛ ويريدهم على تعطيل شعائرهم وهدم كنائسهم ؛ لأن هذا هو الإصلاح في رأيه ـ أفترى الإنجليز حينئذٍ يضوون إليه ويلتفون حوله ويقولون : قائدنا في الحرب ؛ ومصلحنا في السِّلم ؛ وقد انتصرنا به على الناس فسننتصر به على الله ؛ وظفرنا معه بيوم من التاريخ ؛ فسنظفر معه بالتاريخ كله ؟!!

أم تحسب كتشنر كان يجسر على هذا وهو كتشنر لم يتغير عقله ؟!!

إنه ـ والله ـ ما يتدافع اثنان أن هدم كنيسة واحدة يومئذٍ لا يكون إلا هدم كتشنر وتاريخ كتشنر ؛ ولكن العجز ممهَّد من تلقاء نفسه ؛ والأرض المنخسفة هي التي يستنقع فيها الماء ؛ فله فيها اسم ورسم ؛ أما الجبل الصخري الأشم ؛ فإذا صب هذا الماء عليه أرسله من كل جوانبه ؛ وأفاضه إلى أسفل !!

ـ قال صاحب « الطائشة » :

فأقول لها : إذا كان هذا رأيكِ للنساء ؛ فكيف لا ترين مثل هذا لنفسك ؟!!

فتضعضعت لهذه الكلمة ؛ ولَجْلَجَتْ قليلاً ؛ ثم قالت : أنت سلبتَني الرأي لنفسي ؛ ووضعتَني في الحقيقة التي لا تتقيَّد بقانون الخير والشَّر !!

قلت : فإذا كانت كل امرأة تغلط لنفسها في الرأي ؛ وتنصَح بالرأي الصائب غيرها ؛ فيوشك ألا يبقى في نساء الأرض فضيلة ؛ ولا يعود في المدرسة كلها عاقل إلا الكتاب !!

فتضاحكت ؛ وقالت : لهذا يشتد ديننا الإسلامي مع المرأة ؛ فهو يخلق طبائع

المقاومة في المرأة ؛ ويخلقها فيما حولها ؛ حتى ليخيل إليها أن السماء عيون تراها ؛ وأن الأرض عقول تُحصي عليها ؛ وهل أعجب من أن هذا الدين يقضي قضاءً مُبرماً أن تكون ثياب المرأة أسلوب دفاع لا أسلوب إغراء ؛ وأن يضعها من النفوس موضعاً يكون فيه حديثها بينها وبين نفسها كالحديث في « الراديو » له دُويٌّ في الدنيا ؛ فيقيم عليها الحجاب ؛ وغيرة الرجل ؛ وشرف الأصل ؛ ويؤاخذها بروح طبيعتها ؛ فيجعل الهفوة منها كأنها جنين يكبر ؛ ولا يزال يكبر حتى يكون عار ماضيها وخزي مستقبلها .

هذه كلها حُجُب مضروبة لا حجاب واحد ؛ هي كلها لخلق طبائع المقاومة ؛ لتيسير المقاومة ؛ ومتى جاء العلم مع هذه لم يكن أبداً إطلاقاً ؛ ولم يكن أبداً إلا الحجاب الأخير كالسور حول القلعة ؛ ولكن قبَّح اللهُ المدنية وفنَّها ؛ إنها أطلقت المرأة حُرَّة ؛ ثم حاطتها بما يجعل حريتها هي الحرية في اختيار أثقل قيودها لا غير ؛ أنت مُحمَّلٌ بالذهب ؛ وأنت حُرٌّ ولكن بين اللصوص ؛ كأنك في هذا لست حُرَّاً إلا في اختيار من يجني عليك !!

لم تعد المرأة العصرية انتصار الأمومة ؛ ولا انتصار الخُلُق الفاضل ؛ ولا انتصار التعزية في هموم الحياة ؛ ولكن انتصار الفن ؛ وانتصار اللهو ؛ وانتصار الخلاعة .

ـ قال صاحب « الطائشة » :

فضحكتُ ؛ وقلت : وانتصاري !!

الإنتحـــار !!

المقالات التى كتبها الأديب الكبيـر الأستـاذ مصطفى صـادق الرافـعى بعدمـا وصله نبأ إقدام الأديب الشاب محمود محمد شـاكر على الانتـحار !!



.....

- المَقَالَـةُ الأولَى:

الإنتحـــار

- ﴿ ١ ﴾ -



حَدَّثَ المسيب بن رافع الكوفىُّ ؛ قال :

بينا أنا يوماً فى مسجد الكوفة ؛ ومعى سعيد بن عثمان ؛ ومجاهد وداود الأزدىُّ ؛ وجماعة : أقبل فتى ؛ فجلس قريباً منَّا ؛ وكان تلقاء وجهى ؛ لا أَمُدُّ نظرى إلا انطلق فى سَمْتِهِ ووقف عليه ؛ وكنا نتحدث ؛ فرأيته يَتَسَمَّعُ إلى حديثنا ؛ فلما تكلم سعيد - وكان خافت الصوت من علة به ؛ وكنا نُسمِّيه النملة الصخَّابة - رأيت الفتى يتزحف قليلاً قليلاً حتى صار بحيث يقع فى سماعه حسيس نملتنا .

وكان سعيد يقول : اجتزت أنا والشعبىُّ أمس بعمران الخياط ؛ فمازحه الشيخ فقال له : عندنا جِبٌّ (١) مكسور ؛ تخيطه ؟

قال : نعم ؛ إن كان عندك خيط من ريح !!

فقلت أنا : فاذهب فجئنا بالمغزل الذى يغزل الهواء لنصنع لك الخيط !! .

---

(١) - الجِبُّ : أى الزِّير

قال مجاهد : هذا ليس بشيء فى تنادر شيخنا وما يتفق له ؛ أخبرنى أن رجلاً جاءه فى مسألة ؛ فدخل عليه البيت وهو جالس مع امرأته ؛ فقال الرجل : أيكما الشعبىُ ؟ ؛ فأومأ الشيخ إلى امرأته ؛ وقال : هذه !!

قال المسيب : وضحكنا جميعاً ؛ وأخذ نظرى الغلام ؛ فإذا هو ناكس حزناً وهمًّا !! ؛ وكأنه لا يتسمع إلينا ليسمع ؛ بل ليشغل نفسه عن شيء فيها!!! ؛ فتتوزع خواطره !! ؛ فيتبدد اجتماعها على همِّه بصوت من هنا وصوت من هنا !! ؛ كما يفعل المحزون فى مغالبة الحُزن ومدافعته !! ؛ يشغل عنه بصره وقلبه وسمعه جميعاً !! ؛ فيكون الحزن فيه وكأنه بعيد منه !! .

فقلت فى نفسى : أمرٌ أمَاتَ الضحك فى هذا الفتى وكسر حدَّته وشبابه !! .

ثم تحولت إليه وقلت : رأيتك يا بُنىَّ مُقبلاً علينا كالمنصرف عنا !! ؛ فما بالك لم تضحك وقد ضحكنا جميعًا؟!!

قال : إليك عنى يا هذا !! ؛ فأين منى الضحك وأنا على شفير القبر وروح التراب مالئ عينى فى كل ما أرى !! ؛ وكأن حفرتى ابتلعت الدنيا التى أنا فيها لتأخذنى فيها !! ؛ وأنا الساعة ميِّتٌ حى !! ؛ رِجْلٌ فى الدنيا وَرِجْلٌ فى الآخرة !! .

قلت : فأعلمنى ما بك يا بُنى ؟!! ؛ فلقد احتسبت ولداً لى كان فى مثل سنِّك وشبابك ولم أرزق غيره !! ؛ فقلبى بعده مريض به !! ؛ يتوسمه مفرقاً فى لداته !! ؛ متوهماً أن وجوههم تجمعه بملامحه !! ؛ فأنا من ذلك أحبهم جميعاً وأطيل النظر إليهم والتأمل فى وجوههم !! ؛ ولست أدرى أحداً منهم إلا

كان له ولقلبى حديث !! ؛ فإن رأيته حزيناً مثلك تقطعت له من إشفاق ورحمة !! ؛ وطالعنى فتاى فى مثل هَمِّهِ وحُزنه وانكساره !! ؛ فيعود قلبى كالعين التى غشاها الدمع !! ؛ تحمل أثر الحزن ومعناه وسرّه !! ؛ فبُثّنى ما تجد يا بُنىّ ؟!! ؛ فلعل لى سبباً إلى كشف ضُرّك أو إسعافك بحاجتك ؟!! ؛ ولعلك تكون قد حزنت من أمر قريب المتناول هيِّن المُحاولة ؟!! ؛ لم يجعله عندك كبيراً أنه كبير ؛ ولكن أنك أنت صغير !!.

قال الفتى : مهلاً يا عم !! ؛ فإن ما نزل بنا مما تنقطع عنده الحيلة ولا تنقاد فيه الوسائل ؛ ولا علاج منه إلا بالموت يأخذنا ويأخذه !! .

قلت : يا بُنىّ !! ؛ هذه كلمة ما أحسب أحدًا يقولها إلا من أُخِذَ للقتل بجنايته ولم يعف أهل الدم !! ؛ فهل جنيت أو جنى أبوك على أحد ؟!!

قال : إن الأمر قريب من قريب !! ؛ فإنى تركت أبى الساعة مُجمعاً على إزهاق نفسه ؛ وقد أغلق عليه الدار واستوثق من الباب !! .

قال المسيب : فكأنما لدغتنى حيَّةٌ بهذه الكلمة !! ؛ وأكبرت أن يكون رَجُلٌ مُسلمٌ يقتل نفسه !! ؛ فتناهضت ؛ ولكن الغلام أمسك بى !! ؛ وقال : إنه لا يزال حيّاً !! ؛ وسيقتل نفسه متى أظلم الليل وهدأت الرِّجْل !! .

قلت : الحمد لله !! ؛ إن فى النُّور عقلاً ؛ ولكن ما الذى صار به إلى ما قلت ؟!! وكيف تركته لقدره وجئت ؟!!

قال الفتى : إنه قال لى : يا ولدى !! ؛ ليس لك أب بعدى ؛ فإن أردت اللحاق بى فارجع مع الليل لنُسلم أنفسنا ؛ وإن آثرت الحياة فارجع مع الصُّبح

لتسلمنى إلى غاسلى .!! .

قلت : أفآمن أنت ألا يكون أبوك قد أخرجك عنه لأن عينك تمسك يديه وترده عما يُهِمُّ به ، حتى إذا خلا وجهه منك أزهق نفسه؟!!

قال : لم أدعه حتى أقسم أن يحيا إلى الليل ، وحتى أقسمت أن أرجع لأموت معه ؛ فإن لم تمسكه يمينه أمسكه انتظارى ؛ وقد فرغت الحياة منا فلم يبق إلا أن نفرغ منها ؛ ومن كان فيما كنا فيه ثم انحدر إلى ما انحدرنا إليه لم ير الناس من نفسه ضعة ولا استكانة !! ؛ وإنما خرجت لأسأل هذا الإمام ـ الشعبىّ ـ وجهاً من الرأى فيمن يقتل نفسه إذا ضاقت عليه الدنيا ونزلت به النازلات وتعذَّر القوت واشتدَّ الضُّر ، وتدلَّت به المسكنة إلى حضيضها ؛ وأُلجئ إلى أحوال دَقَّتهُ دَقَّ الرَّحَى لما تدور عليه ، ولم يعد له إلا رأى واحد فى معنى الدنيا ، هو أنه مكذوب مزور على الدنيا !! .

قلت : يا بُنى !! ؛ فإنى أراك أديباً !! ؛ فمن أبوك ؟!!

قال : هو فلان التاجر ، ظهر ظهور القمر ومحق محاقه ، وهو اليوم فى أحلك الليالى وأشدها انطماساً !! ؛ جهده الفقر !! ؛ ويا ليته كان الفقر وحده !! ؛ بل انتهكته العلل !! ؛ وليتها لم تكن إلا العلل مع الفقر !! ؛ بل أخذ الموت امرأته فماتت همَّاً به وبى !! ؛ ولم يكن له غيرى وغيرها !! ؛ وكان كُلٌ من ثلاثتنا يحيا للاثنين الآخرين !! ؛ فهذا ما كان يجعل كُلاً مِنَّا لا يفرغ إلا امتلأ !! ؛ ولمَّا ذهبت الأم ذهبت الحقيقة التى كُنَّا نقاتل الأيام عنها !! ؛ وكانت هى وحدها تُرينا الحياة بمعناها إن جاءتنا الحياة فارغة من المعنى !! ؛ وكُنَّا من أجلها نفهم

الأيام على أنها مجاهدة البقاء ؛ أما الآن فالحياة عندنا قتل الحياة !! .

قُلتُ : يا بُنىّ !! ؛ فإنك والله مع أدبك لحكيم !! ؛ وإنى لأنفس بك على الموت !! ؛ فكيف ردَّتك حياة أُمّك عن قتل نفسك ولا تردُّك حياة أبيك ؟!!

قال : لو بقى أبى حيّاً لبقيت !! ؛ ولكن الدهر قد انتزع منه آخر ما كان يملك من أسباب القوة !! ؛ حين أخذ القلب الشفيق الذى كان يجعله يرتعد إذا فكّر فى الموت !! ؛ فهو الآن كالذى يحارب عن نفسه تلقاء عدوٌ لا يرحمه !! ؛ إن عجز عن عدوه فالرأى قتل نفسه ليستريح من تنكيل العدو به !! .

قال المُسيّب بن رافع : وأدركت أن الفتى يريد من سؤال الشيخ تَحِلَّة يطمئن إليها أن يموت مسلماً إذا قتل نفسه كالمضطر أو المُكره ؛ فأشفقت أن أكسر نفسه إذا أنا حدثته أو أفتيته !! .

وقلت : هذا مريض يحتاج العلاج لا الفتيا !! ؛ وكان إمامنا الشعبىّ حكيماً لَحِناً فطناً ؛ سَفَرَ بين أمير المؤمنين (عبد الملك) وعاهل الروم ، فحسدنا العاهل أن يكون فينا مثله!! ؛ وقلت : لعل الله يحدث به أمراً !! .

فأخذت بيد الفتى إليه ، ومشيت أُكلّمه وأُرفّه عن نفسه ، وقُلتُ له : أما تدرى أنك حين فرغت من سرور الحياة فرغت من غرروها أيضاً ؟!! ؛ وأن الزاهد المنقطع فى عرعرة الجبل ينظر من صومعته إلى الدنيا ليس بأحكم ولا أبصر ممن ينظر من آلامه إلى الدنيا ؟!! ؛ يا بُنىَّ !! ؛ إن الزاهد يحسب أنه قد فَرَّ من الرذائل إلى فضائله !! ؛ ولكن فراره من مجاهدة الرذيلة هو فى نفسه رذيلة لكل فضائله !! ؛ وماذا تكون العِفّة والأمانة والصدق والوفاء والبِرُّ

والإحسان وغيرها إذا كان فيمن انقطع فى صحراء أو على رأس جبل ؟!! ؛ أيزعم أحدٌ أن الصدق فضيلة فى إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار ؟!! ؛ وأيم الله إن الخالى من مجاهدة الرذائل جميعاً لهو الخالى من الفضائل جميعاً !!.

يا بُنىَّ : إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قمح هذه الإنسانية ؛ ينبتون ويحصدون ويطحنون ويعجنون ويخبزون ، ليكونوا غذاء الإنسانية فى بعض فضائله ، وما أرك أنت وأباك إلا من المختارين !! ؛ كأن فى أعراقكم دَمُ نَبِىٍّ يُقتل أو يُصلب !! .

قال المُسيّب : وانتهينا إلى دار الشعبىِّ ، فطرقت الباب ، وجاء الشيخ ، ففتح لنا ، وسلمنا وسلم ، ثم بدرت ؛ فقلت : يا أبا عمرو !! ؛ إن أبا هذا كان من حاله كيت وكيت ، فترادفت عليه المصائب ، وتوالت النكبات ، وتواترت الأسقام!!... ؛ ثم اقتصصت ما قال ابنه حرفاً حرفاً ، ثم قلت : وإنه الآن موشك أن يزهق نفسه وسيتبعه ابنه هذا !! ؛ وقد هداه الله إليك فجاء يسألك أيموت مسلماً من أُلجئ وأُكره واضطر واستضاق واختلَّ فَتَحَسَّى سُمَّاً فهلك؟!! ، أو تَوَجَّأ بحديدة فَقَضَى ؟!! ، أو ذبح نفسه بِنَصْلٍ فَخَفَت ؟!! ، أو حَزَّ فى يده بسكينٍ فما رقأ دمه حتى مات ؟!! ، أو اختنق فى حبل ففاضت نفسه ؟!! ، أو تردَّى من شاهق فطاح ؟!!

وأدرك الشيخ معنى قولى : « هداه الله إليك » ؛ ومعنى ما أكثرت من الألفاظ المرادفة على القتل ؛ وما استقصيت من وجوهه ؛ فعلم أن لم أسأله الفتيا

والنص، ولكنى سألته الحكمة والسياسة؛ فقال: هذا والله رَجُلٌ كريم !! ؛ أخذته الأنفة وعزَّة النفس !! ؛ وما أنا الساعة بمعزل عن هَمِّهِ، فنذهب نُكلِّمه؛ والله المُستعان .

ومشينا ثلاثتنا .

فلما شارفنا الدار؛ قال الفتى: إنه لا يفتح لى إذا رآكما، وربما استفز بنفسه فأزهقها، وسأتسور الحائط وأتدلى ثم أفتح لكما فتدخلان وأنا عنده.

ودخلنا، فإذا رَجُلٌ كالمريض من غير مرض !! ؛ خَوَّارٌ !! ؛ مسلوب القوة !! ؛ انزعج قلبه إلى الموت وما به جرأة !! ؛ وإلى الحياة وما به قوة !! ؛ وصغَّر إليه نفسه أنها أصبحت فى معاملة الناس كالدرهم الزائف لا يقبله أحد !! ؛ وثابر عليه داء الحُزن !! ؛ فأضناه وتركه روحاً تتقعقع فى جلدها !! ؛ فهى تَهِمُّ فى لحظة أن تثب وتندلق !! .

وسلم الشيخ وأقبل بوجهه على الرَّجُل، ثم قال:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ؛ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فقطع عليه الرجل وقال كالمُخنق: أيها الشيخ !! ؛ قد صبرنا حتى جاء مالا صبر عليه !! ؛ خلونا من معانى الكلام كله !! ؛ فما نقدر عليها إلا لفظة واحدة نملك معناها !!... ؛ هى أن ننتهى !! .

وَمَدَّ الشَّيْخُ عينه ؛ فرأى كوة مسدودة فى الجدار، فقال لى: افتح هذه ودع

الهواء يتكلّم معنا كلامه !! .

فقمت إليها فعالجتها حتى فتحتها ، ونفذ منها روح الدنيا ، وقال الشيخُ للرجل : أصغ إليَّ !! ؛ فإذا أنا فرغت من الكلام فشأنك بنفسك .

أعلمت أن رَجُلاً من المسلمين قد مرض ، فأعضل مرضه ، فأثبته على سريره ثلاثين سنة لا يتحرك ، وطوى فيه الرَّجُل الذى كان حيّاً ، ونُشِرَ منه الرَّجُل الذى سيكون ميّتاً ، فبقىَ لا حيّاً ولا ميّتاً ثلاثين سنة ؟!!

قال الرَّجُل : وفى الدنيا من يعيش على هذا الحال ثلاثين سنة ؟!!

قال الشيخ : صَحِّح الكلام واسأل !! ؛ أيصبر على هذه الحال ثلاثين سنة ولا يقول : ((جاء ما لا صبر عليه !!)) ؛ وأىُّ شىء لا صبر عليه عند الرجل المؤمن الذى يعلم أن البلاء مال ؛ غير أنه لا يوضع فى الكيس ؛ بل فى الجسم؟!! ؛ أفتدرى من كان الصابر ثلاثين سنة على بلاء الحياة والموت مجتمعين فى عظام ممدودة على سريرها ؟!! ؛ إنه إمامنا عمران بن حصين الخزاعىُّ الذى أرسله عمر بن الخطّاب يُفقّه أهل البصرة وتولى قضاءها ، وكان الحسن البصرىُّ يحلف بالله ما قدمها خير لهم من عمران بن حصين !! .

ولقد دخلت عليه أنا وأخوه العلاء ؛ فرأيناه مُثبتاً على سرير الجريد كأنما شُدَّ بالحبال !! ؛ وما شُدَّ إلا بانتهاك عصبه !! ؛ وذوبان لحمه !! ؛ ووهن عظامه !! ؛ فبكى أخوه .

فقال : لم تبكى؟!!

قال : لأنى أراك على هذه الحال العظيمة ؟!!

قال: لا تبك !! ؛ فإن أحبَّه إلى الله تعالى أحبه إليَّ .

ثم قال: إن هذه الأرض تحمل الجبال فلا يشعر موضع منها بالجبل القائم عليه، إذ كان تماسك الأرض كلها قد جعل لكل موضع منها قوة الجميع، ولولا هذا لدَكَّ الجبل موضعه وغار به ؛ وكذلك يحمل المؤمن مثل الجبال من البلاء على أعضائه لا ينكسر لها ولا يتهدَّم ؛ إذ كانت قوة روحه قوة في كل موضع، فالبلاء محمول على هِمَّة الروح لا على الجسم، وهذا معنى الخبر:

﴿ إن المؤمن بكل خير على كل حال، إن روحه لتنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله عَزَّ وَجَل ﴾.

ثم قال: ولكن ذاك هو المؤمن، فمن آمن بالله فكأنما قال له: امتحني !! ؛ وكيف تراك إذا كنت بطلاً من الأبطال مع قائد الجيش، أما تفرض عليك شجاعتك أن تقول للقائد: امتحني وارم بي حيث شئت ؟!! ؛ وإذا رمى بك فرجعت مُثخناً بالجراح ونالك البتر والتشويه !! ؛ أتراها أوصافاً لمصائبك، أم ثناءً على شجاعتك ؟!!

ثم قال:

إذا لم يكن الإيمان بالله اطمئناناً في النفس على زلازلها وكوارثها لم يكن إيماناً، بل هو دعوى بالفكر أو اللسان لا يعدوهما !! ؛ كدعوى الجبان أنه بطل، حتى إذا فجأه الرَّوع أحدث في ثيابه من الخوف !! ؛ ومن ثَمَّ كان قتل المؤمن نفسه لبلاء أو مرض أو غيرهما كُفراً بالله وتكذيباً لإيمانه، وكان عمله هذا صورة أخرى من طيش الجبان الذي أحدث في ثيابه !! ؛ والإيمان

الصحيح هو بشاشة الروح وإعطاء الله الرِّضى من القلب ثقة بوعده وَرَجَاةً لما عنده، ومن هذين يكون الاطمئنان وبالبشاشة والرضى والثقة والرجاء، يصبح الإيمان عقلاً ثانياً مع العقل، فإذا ابْتُلِيَ المؤمن بما يذهب معه الصبر ويطيش له العقل وصار من أمره فى مثل الجنون !! ؛ برز فى هذه الحالة عقله الروحانيُّ وتولَّى سياسة جسمه حتى يفيق العقل الأول ويجيء الخوف من عذاب الله ونقمته فى الآخرة ؛ فيغمر به خوف النفس من الفقر أو المرض أوغيرهما ؛ فيقتل أقواهما الأضعف، ويخرج الأعز منهما الأذل ؛ فالاطمئنان بالإيمان هو قتل الخوف الدنيوى بالتسليم والرضى، أو تحويله عن معناه بجعل البلاء ثواباً وحسنات، أو تجريده من أوهامه باعتبار الحياة سائرة بكل ما فيها إلى الموت ؛ وهو بهذا عقلٌ روحانيٌّ له شأن عظيم فى تصريف الدنيا، يترك النفس راضية مرضية تقول لمصائبها وهى مطمئنة : نعم، وتقول لشهواتها وهى مطمئنة : لا !! ؛ وما الإنسان فى هذا الكون ؟!! ؛ وما خيره وشرُّه ؟!! ؛ وما سخطه ورضاه؟!! ؛ إن كل ذلك إلا كما ترى قبضة من التراب تتكبَّر وقد نسيت أنه سيأتى من يكنسها !! .

قال الشيخ : وانظر!! ؛ أما تُبتلى الشجرة الخضراء فى بعض أوقاتها بمثل ما يُبتلى به الإنسان؟!! ؛ غير أن لها عقلاً روحانياً مستقراً فى داخلها يمسك الحياة عليها ويتربَّص حالاً غير الحال ؛ ومهما يكن من أمر ظاهرها وبلائه فالسعادة كلها فى داخلها، ولها دائماً ربيع على قدرها حتى فى قَرِّ الشتاء ؛ فالعقل الروحانيُّ الآتى من الإيمان لا عمل له إلا أن يُنشئ للنفس غريزة

متصرفة فى كل غرائزها، تكمل شيئاً وتنقص من شىء، وتوجه إلى ناحية وتصرف عن ناحية؛ وبهذه الغريزة تسمو الروح؛ فتكون أكبر من مصائبها؛ وأكبر من لذاتها جميعا؛ وتلك الغريزة هى نفسها معنى الرضى بالقدر خيره وشره، وهى تأتى بالتأويل لكل هموم الدنيا، فتضع فى النكبات معانى شريفة تنزع منها شرَّها وأذاها للنفس؛ وليست المصيبة شيئاً لولا تأذِّى النفس بها، وإذا وقع التأويل فى معانى النكبات أصبحت تعمل عمل الفضائل وتغيَّرت طبيعتها فيعود الفقر باباً من الزُّهد، والمرض نوعاً من الجهاد، والخيبة طريقاً من الصبر، والحُزن وجهاً من الرجاء، وَهَلُمَّ جرًّا؛ والنفس وحدها كنز عظيم، وفيها وحدها الفرح والابتهاج لا فى غيرها، وما لذات الدنيا إلا وسائل لإثارة هذا الفرح وهذا الابتهاج، فإن وُجِدَا مع الفقر بطلت عِزَّة المال وأصبح حجراً من الحجر؛ والبلبل يتغرد بحنجرته الصغيرة ما لا تُغنِّى فيه آلات التطريب كلها، وفى النفس حياة ما حولها، فإذا قويت هذه النفس أذلت الدنيا، وإذا ضعفت أذلتها الدنيا !!.

قال المُسيّب:

ثم سكت الشيخ قليلاً، وكنت أرى الرجل كأنما يغتسل بكلامه وقد أشرق وجهه وتنضَّر وانقلب على روحه التى كان منصرفاً عنها !!؛ فعادت مصائبه تضغط روحاً ليِّنةً كما تضغط اليد على الماء !!؛ وأيقن أن النكبة كلها هى أن ينظر الإنسان إلى الحياة بعين شهواته، فيُنكب أول ما يُنكب فى صبره ويقينه !!.

ثم قال الشيخ :

ولقد رأيت بعينى رأسى معجزة « العقل الروحانىّ » وكيف يصنع!! ؛ رأيت عروة بن الزُّبير وهو شيخ كبير عند الوليد بن عبد الملك وقد وقعت فى رجله الأكلة !! ؛ فأشاروا عليه بقطعها حتى لا تُفسد جسده كله ، فدعى له من يقطعها ؛ فلما جاء قال له : نسقيك الخمر حتى لا تجد لها ألماً ؟

فقال عروة : لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية !!

قال : فنسقيك المُرْقِد ؟!!

فقال عروة : ما أحب أن أُسلب عضواً من أعضائى وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه !!

ثم دخل رجال أنكرهم عروة !! ؛ فقال : ما هؤلاء ؟!!

قالوا : يُمسكونك ، فإن الألم ربما عَزُبَ معه الصبر !!

قال : أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسى !!

قال الشيخ :

فانظر أيها الضعيف الذى يريد قتل نفسه كيف صنع عروة ؟!! ، وكيف استقبل البلاء ؟!! ، وكيف صبر ؟!! ؛ وكيف احتمل ؟!! ، إنه انصرف بِحِسِّهِ إلى النفس فانبسطت روحه عليه !! ؛ وأخذ يُكبِّر ويُهلِّل ليبقى مع روحه وحدها !! ؛ وخرج من دنيا ظاهره إلى دنيا باطنه !! ؛ وغُمِرَت حواسه وأعصابه بالنور الإلهىِّ من معنى التكبير والتهليل !! ؛ فقطع القاطع كعبه بالسكين وهو لا يلتفت !! ؛ حتى إذا بلغ العظم وضع عليها المنشار ونشرها

وعروة فى التكبير والتهليل !! ؛ ثم جيءَ بالزيت مغليًّا فى مغارف الحديد فحسم به مكان القطع !! ؛ فَغُشِيَ على عروة ساعة ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه !! ؛ ولم يُسمع منه فى كل هذه الآلام الماحقة أنَّة ولا آهة !! ؛ ولم يقل قبلها ولا بعدها ولا بين ذلك : « جاء ما لا صبر عليه !! » !! .

قال المُسيّب :

وَأُرْهِف بأس الرجل الضعيف وقوىَ جأشه !! ؛ وانبعث فيه الروح إلى عمر جديد !! ؛ ونشأ له اليقين من عقله الروحانىٌ !! ؛ وعرف أن ما لا يمكن أن يُدرك يمكن أن يُترك !! .

وجاء هذا العقل الروحانىُّ ؛ فَمَرَّ بالمنشار على البأس الذى كان فى نفسه فقطعه !! ؛ فما راعنا إلا أن وثب الرجل قائماً يقول : الله أكبر من الدنيا !! الله أكبر من الدنيا !! .

ثم أَكَبَّ على يد الشيخ وهو يقول : صدقت ؛ « إن كل ذلك إلا كما ترى قبضة التراب تتكبَّر ، وقد نسيت أنه سيأتى من يكنسها ؟!!! » .



ماذا يصنع الإنسان إذا غلط فى مسألة من مسائل الدنيا إلا أن يتحرَّى الصواب ؟!!! ؛ ويجتهد فى الرجوع إليه ؟!!! ؛ ويصبر على ما يناله فى ذلك ؟!!! وماذا يصنع الإنسان إذا غلطت فيه مسألة ؟!!!



.....

- المَقَالَةُ الثَّانِيَة:

الإنتحـــار

- (٢) -



قال المُسَيَّب بن رافع:

وقام الشعبيُّ إلى الرَّجُل فاعتنقه فَرَحاً بما آل أمره إليه بعد إذ رأى النور يجرى على لونه ويترقرق فى ديباجته !! ؛ كأنما وقع الصلح بين وجهه وبين الحياة !! .

ثم قال له:

نِعْمَ أخو الإسلام أنت !! ؛ فاستعذ بالله من خذلانه ، فإنه ما خذلك إلا وضعك نفسك بإزاء الله تعارضه أو تجاريه في قدرته !! ؛ فَيَكِلُكَ إلى هذه النفس !! ؛ فتنتهى بك إلى العجز !! ؛ وينتهى العجز بك إلى السُّخط !! ؛ ومتى كنت عاجزاً ساخطاً محصوراً فى نفسك موكولاً إلى قدرتك كنت كالأسد الجائع فى القفر إذا ظنَّ أن قوته تتناول خلق الفريسة !! ؛ فيدعو ذلك إلى نفسك اليأس والانزعاج والكآبة وأمثالها من هذه المهلكات تقدح فى قلبك الشك فى الله !! ؛ وتثبت فى روعك شر الحياة !! ؛ وتهدى إلى خاطرك حماقات العقل !! ؛ وتُقرِّر عندك عجز الإرادة !! ؛ فتنتهى من كل ذلك ميِّتاً قد أزهقتك نفسك قبل أن تزهقها !! ؛ ولو كنت بدل إيمانك بنفسك قد آمنت بالله حق الإيمان ؛ لسلطك الله على نفسك ولم يُسلِّطها عليك !! ؛ فإذا رمتك المطامع بالحاجة التى لا تقدر عليها ، رميتها من نفسك بالاستغناء الذى تقدر عليه !! ؛ وإذا جاءتك الشهوات من ناحية الرغبة المقبلة ؛ جئتها من ناحية الزهد المُنصرف !! ؛ وإذا ساورتك كبرياء الدنيا ؛ أذللتها بكبرياء الآخرة !! ؛ وبهذا تنقلب الأحزان والآلام ضروباً من فرح الفوز والانتصار على النفس وشهواتها !! ؛ وكانت فُتوناً من الخذلان والهم !! ؛ وتعود موضع فخر ومُباهاة !! ؛ وكانت أسباب خزى وانكسار !! ؛ وعزيمة الإيمان إذا هى قويت حصرت البلاء فى مقداره ؛ فإذا حصرته لم تزل تنقص من معانيه شيئاً شيئاً ؛ فإذا ضعفت هذه العزيمة جاء البلاء غامراً مُتفشِّياً يجاوز مقداره بما يصحبه من الخوف والرَّوْع !! ؛ فلا تزال معانيه تزيد شيئاً فشيئاً بما فيه وبما ليس

فيه !! ؛ وللإيمان ضوء فى النفس ينير ما حولها ؛ فتراه على حقيقته الفانية وشيكاً أن يزول ؛ فإذا انطفأ هذا الضوء انطمست الأشياء ؛ فتتوهمها النفس أوهاماً مُتباينة على أحوالها المختلفة ؛ كما يرى الأعمى بوهمه لا عينه مع الأشياء تكون فى طبيعتها، ولا أشياؤه عند عينه تكون فى حقيقتها !! .

قال المُسيَّب :

وكأن الشمس قد طَفَّلَت للمغيب ؛ فقال الإمام للرَّجُل : قُم فتوضأ وأسبغ الوضوء، وسأعلمك أمراً تنتفع به فى دينك ودنياك : فإذا قمت إلى وضوئك ؛ فأيقن فى نفسك واعزم فى خاطرك على أن فى هذا الماء سِرّاً روحانياً من أسرار الغيب والحياة، وأنه رمز للسماء عندك، وأنك إنما تتطهر به من ظلمات نفسك التى امتدت على أطرافك ؛ ثم سمِّ الله تعالى مفيضاً اسمه القادر الكريم على الماء وعلى نفسك معاً، ثم تمثَّل أنك غسلت يديك مما فيهما ومما تتعاطاه بهما من أعمال الدنيا، وأنك آخذٌ فيهما من السماء لوجهك وأعضائك ؛ وقرِّر عند نفسك أن الوضوء ليس شيئاً إلا مسحة سماوية تسبغها على كل أطرافك، ليشعر بها جسمك وعقلك ؛ وأنك بهذه المسحة السماوية تستقبل الله فى صلاتك سماوياً لا أرضياً ؛ فإذا أنت استشعرت هذا وعملت عليه وصار عادة لك، فإن الوضوء حينئذٍ ينزل من النفس منزلة الدواء، كلما اغتممت أو تسخطت أو غشيك حزن أو عرض لك وسواس، فما تتوضأ على تلك النية إلا غسلت الحياة وغسلت الساعة التى أنت فيها من الحياة ؛ وترى الماء تحسبه هدوءاً ليِّناً لين الرضى، وإذا هو

ينساب فى شعورك وفى أحوالك جميعاً !! .

قال المُسيَّب :

وقمت أنا فجدَّدت وضوئى على هذه الصفة بتلك النية ، فإذا أنا عند نفسى مستضىء بروح نجمية لها إشراق وسناء !! ؛ وإذا الوضوء فى أضعف معانيه هو ما علمنا من أنه الطهارة والنظافة ، أما فى أقوى معانيه فهو إفاضة من السماء فيها التقديس والتزكية وغسل الوقت الإنسانىِّ مما يخالطه كلما مرت ساعات !! ؛ وابتداؤه للروح كالنبات الأخضر ناضراً مطلولاً مترطباً بالماء !! .

ثم صلَّى بنا الشيخ ، وأمرنى بالمبيت مع الرَّجُل ، كأنما خشىَ البدوات أن تبدو له فتنقص عزمه !! ؛ أو هو زادنى عليه لأُغيِّر شخصه وأُبدل وحدته التى كان فيها ، أو كأن الشيخ لم يأمن على الرجل أن يكون إنسانه الروحىُّ قد تنبَّه بأكمله فوضعنى كالتنبيه له .

جاءنا العشاء من دار الشيخ فطعمنا ، ثم قام الرجل فتوضأ وصلينا العتمة وجلسنا نتحدث ، فاستنابه نبأه ، فقال : مهلاً !! ؛ ثم نهض فتوضأ الثالثة وقال : تالله ما أعرف الوضوء بعد اليوم إلا ملامسة بين السماء والنفس !! ؛ وما أعرف وقته من الروح إلا كساعة الفجر على النبات الأخضر !! .

قال المُسيَّب :

وأصبحنا فغدونا على الإمام ، ثم لزمنى الرَّجُل فى بعض أمورى ، ثم وافينا المسجد صلاة العصر لحضور درس الشيخ ؛ وكان الناس كالحَبِّ المُتراصف على العنقود !! ؛ لا أدرى من ساقهم وجمعهم ؟!! ؛ كأنما علمت الكوفة أن

رَجُلاً مسلماً كفر بالله كفرة صلعاء وأنه سيحضر درس الشيخ !! ؛ وسيحضر الشيخ من أجله !! ؛ فهبَّت الرياح الأربع تسوق أهلها إلى المسجد من أقطارها !! .

وجلس الشيخ مجلس الحديث ؛ فقال : رُوِّينَا :

﴿ أن رجلاً كانت به جراحة ؛ فأتى قَرَناً له ؛ فأخذ مِشْقَصاً ؛ فذبح به نفسه !! ؛ فلم يُصَلِّ عليه النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ ؛ وترك جنازته مطرودة تقتحم مَتْلَفَةَ الآخرة كما اقتحمت مَتْلَفَةَ الدُّنيا. ﴾ .

رُوِّينَا في الحديث عن النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ ؛ أنه قال :

﴿ الذى يخنق نفسه يخنقها فى النار ، والذى يطعن نفسه يطعن نفسه فى النَّار ، والذى يقتحم يقتحم فى النار . ﴾ .

رُوِّينَا عنه ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ :

﴿ من قتل نفسه بشىءٍ ؛ عُـذِّبَ به يوم القيامة ﴾

رُوِّينَا عنه ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ :

﴿ كان رَجُلٌ به جراح ؛ فقتل نفسه !! ؛ فقال الله : بدرنى عبدى بنفسه !! ؛ فحرَّمت عليه الجَنَّة !! ﴾ .

قال الشعبيُّ :

يقول الله : ﴿ بدرنى عبدى بنفسه ﴾ !! .

أى : بدرني وتألَّه فجعل نفسه إله نفسه !! ؛ فقبضها وتوفَّاها !! ؛ فكان ظالماً !! .

بدرنى وتألّه فى آخر أنفاسه لحظة ينقلب إلىَّ !! ؛ فكان مع ظُلمه مغرورًا أحمق !! .

بدرنى وتألّه حين ضاق !! ؛ فَهَوَّرَ نفسه فى الموت من عجزه أن يُمسكها فى الحياة !! ؛ فكان عاجزًا مع ظُلمه وغُروره وحُمقه !! .

بدرنى وتألّه على جهله بسرِّ الحياة وحكمتها !! ؛ فلم يستح هذا المخلوق الظالم المغرور فى حُمقه وعجزه وجهله !! ؛ ولم يستح أن يجيئنى فى صورة إله !! .

بدرنى وتألّه !! ؛ فطبع نفسه طابعها الأبدىَّ من غَىٍّ وتمرُّدٍ وسفاهة !! ؛ وأرسلها إلىَّ مقتولة يردُّها علىَّ !! .

بدرنى وتألّه !! ؛ كأنما يقول : إن له نصف الأمر ولى النصف !! : أنا أحييت وهو أمات !! .

بدرنى عبدى بنفسه !! ؛ فحرِّمت عليه الجنَّة !! .

قال الشَّعبىُّ :

وإنما تحرم الجنَّة على من يقتل نفسه ؛ إذ ينقلب إلى الله وعلى روحه جناية يده ما تفارقها إلى الأبد !! ؛ فهو هناك جيفة من الجيف مسمومة أبدًا !! ؛ أو مخنوقة أبدًا !! ؛ أو مذبوحة أبدًا !! ؛ أو مُهشَّمة أبدًا !! ؛ يقول الله له : أنت بدرتني بنفسك !! ؛ وجريت معى فى القدر مجرىً واحداً !! ؛ فستخلد نفسك فى الصُّورة التى هى من عملك !! ؛ وما قتلت إلا حسناتك !! .

قال الشَّعْبىُّ :

ولو عرف قاتل نفسه أنه سيصنع من نفسه جيفة أبدية !! ؛ فمن ذا الذى يعرف أنه إذا فعل كذا وكذا تحوَّل حماراً وبقىَ حماراً ؛ فيرضى أن يتحوَّل ؟!! ويُسرع ليتحوَّل ؟!!

من ذلك نظر النَّبىُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - إلى جنازة ذلك الرَّجُل الذى قتل نفسه كما ينظر إلى ذُبابة توجَّهت بالسَّبِّ إلى الشمس والكواكب والأفلاك كلها !! ؛ ثم جاءته تقول له : اشهد لى ؟!!

قال الشيخ :

ومم يقتل الإنسان نفسه ؟!! ؛ أما إن الموت آت لا ريب فيه ولا مقصر لحىٍّ عنه ؟!! ؛ وهو الخيبة الكبرى تُلقى على هذه الحياة !! ؛ فما ضرر الخيبة الصغيرة فى أمر من أمور الحياة ؟!!

إن المرء لا يقتل نفسه من نجاح بل من خيبة ؛ فإن كانت الخيبة من مالٍ فهى الفقر أو الحاجة ، وإن كانت من عافية فهى المرض أو الاختلال ، وإن كانت من عِزَّة فهى الذُّل أو البُؤس ، وإن كانت مما سوى ذلك - كالنساء وغيرهن - فهى العجز عن الشهوة أو التخيُّل الفاسد ، وليس يخيب الإنسان إلا خيبة عقل أو إرادة ، وإلا فالفقر والحاجة والمرض والاختلال والذُّل والبؤس والعجز عن الشهوة وفساد التخيُّل : كُلُّ ذلك موجود فى الناس ، يحمله أهله راضين به صابرين عليه ، وهو الغبار النفسىُّ لهذه الأرض على نفوس أهلها .

ويا عجبا !! ؛ إن العميان هم بالطبيعة أكثر الناس ضحكاً وابتساماً وعبثاً

وسُخريةً !! .

أفتريدون أن تخاطبكم الحياة بأفصح من ذلك ؟!!

ليست الخيبة هى الشّر ؛ بل الشّرُّ كله فى العقل إذا تبلّد فجمد على حالة واحدة من الطمع الخائب !! ؛ أو فى الإرادة إذا وهنت فبقيت متعلقة بما لم يوجد !! .

أفلا ترون أنه حين لا يبالى العقل ولا الإرادة ؛ لا يبقى للخيبة معنىً ولا أثرٌ فى النفس ؛ ولا يخيب الإنسان حينئذٍ ؛ بل تخيب الخيبة نفسها ؟!!

لهذا يأبى الإسلام على أهله الترف العقلىَّ والتخيُّل الفاسد !! ؛ ويشتد كل الشدة فى أمر الإرادة ، فلا يترخص فى شئ يتعلق بها ، ولا يزال يُنميها بأعمال يومية تشد منها لتكون رقيبة على العقل حارسة له ، فإن للعقل أمراضاً كثيرةً يقيس فيها درجات من الطيش حتى يبلغ الجنون أحياناً ؛ فكانت الإرادة عقلاً للعقل ؛ هى ليِّنه إذ تصلَّب ، وهى حركته إذا تبلَّد ، وهى حِلمه إذ طاش ، وهى رضاه إذا سخط .

الإرادة شيءٌ بين الروح والعقل ؛ فهى بين وجودين ؛ ولهذا يكون بها الإنسان بين وجودين أيضاً ، فيستطيع أن يعيش وهو فى الدنيا كالمنفصل عنها ، إذ يكون فى وجوده الأقوى وجود روحه ، وأكبر هَمِّهِ نجاحه فى هذا الوجود .

وهذا النجاح لا يأتى من المال ، ولا تحققه العافية ، ولا تُيسِّره الشهوات ، ولا يُسنيه التخيُّل الفاسد ؛ ولا يكون من متاع الغرور ، ولا مما عمره خمسون سنة أو مائة سنة ؛ بل يأتى مما عمره الخلود ؛ ومما هو باقٍ أبداً فى معانيه من الخير

والحق والصلاح ؛ فههنا يعين المرض بالصبر عليه مما لا تعين الصحة، ويفيد الفقر بحقائقه ما لا تفيد الثروة ؛ وهنا يكون العقل الإنسانيُّ عاملاً أكثر مما هو متخيل، وقانعاً أكثر مما هو طامع ؛ ههنا لا موضع لغلبة الشهوة، ولا كبرياء النفس، ولا حُب الذات ؛ وهذه الثلاث هى جالبة الشقاء على الإنسان حتى فى أحوال السعادة، وبدونها يكون الإنسان هانئاً حتى فى أحوال الشقاء .

بالإرادة المؤمنة القوية ينصرف ذكاء المؤمن إلى حقائق العالم وصلاح النفس بها، وبغير هذه الإرادة ينصرف الذكاء إلى خيال الإنسان وفساد الإنسان .

وإذا انصرف الذكاء إلى حقائق الدنيا ؛ كان العقل سهلاً مرناً مطواعاً، واستحال عليه أن يفهم فكرة قتل النفس أو يُقرَّها، فإن هذه الفكرة الخبيثة لا تستطرق إلى العقل إلا إذا تحجَّر وانحصر فى غرض واحد قد خاب وخابت فيه الإرادة ففرغت الدنيا عنده .

ولو أن امرأً تمَّ عزمه على قتل نفسه ؛ ثم صابر الدنيا أياماً ؛ لانفسخ عزمه أو رَكَّ ؛ إذ يلين العقل فى هذه المدة نوعاً ما، ويجعل الصبر بينه وبين المصيبة مسافة ما ؛ فتتغير حالة النفس هوناً ما ؛ فالصبر كالترويح بالهواء على العقل الذى يكاد يختنق من احتباسه فى معنى واحد مقفل من جوانبه ؛ ومثل العقل فى هذه الحال مثل القائم فى إعصار لَفَّهُ بالتُّراب لَفّاً وسدَّ عليه منافذ الهواء، وحبسه فى هذا التراب الملتف حبس الحشرة فى جوف القصبة ؛ فهو على اليقين أنها حالة ساعة طارئة من الزمن لا حالة الزمن ؛ وأن الهواء الذى جاء بهذا الهمِّ هو الذى يذهب بهذا الهم .

وكما أن الأرض هى شىء غير هذا الإعصار الثائر منها، فالحياة كذلك هى أمر آخر غير شقائها .



قال الإمام :

وفى كتاب الله آيتان تدلان على أنه كتاب الدنيا كلها، إذ وضع لهذه الدنيا مثالين : أحدهما المثال الروحى للفرد الكامل، والآخر المثال الروحى للجماعة الكاملة .

أما الآية الأولى ؛ فهى قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِر ﴾

[الأحزاب: ٢١]

وأما الثانية ؛ فهى قوله تعالى :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ؛ وَالَّذِينَ مَعَهُ
أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

[الفتح : ٢٩]

ففى رجاء الله واليوم الآخر يتسامى الإنسان فوق هذه الحياة الفانية ؛ فتمر همومها حوله ولا تصدمه ؛ إذ هى فى الحقيقة تجرى من تحته ؛ فكأن لا سلطان لها عليه، وهذه الهموم تجد فى مثل هذه النفس قوى بالغة تُصرِّفها

كيف شاءت، فلا يجئ الهم قوة تسحق ضعفاً، بل قوة تمتحن قوة أخرى أو تثيرها لتكون عملاً ظاهراً يُقلِّده الناس وينتفعون منه بالأسوة الحسنة، والأسوة وحدها هى علم الحياة.

وقد ترى الفقير من الناس تحسبه مسكيناً، وهو فى حقيقته أستاذ من أكبر الأساتيذ؛ يُلقى على الناس دروس نفسه القوية !! .

وفى رجاء الله واليوم الآخر يبطل أكبر أسباب الشر فى الناس؛ وهو نظر الإنسان لمن هو أحظى منه بفتنة الدنيا نظراً لا يبعث إلا الحقد والسخط، فينظر المؤمن حينئذٍ إلى ما فى الناس من الخير والصلاح والإيمان والحق والفضيلة، وهذه بطبيعتها لا تبعث إلا السرور والغبطة، ومن جعلها فى تفكيره أبطل أكثر الدنيا من تفكيره، وبها تسقط الفروق بين الناس عاليهم ونازلهم، كالرجل الفقير العالم إذا قُدِّمَ على الغنىِّ العالم: جمع بينهما الاتفاق العقلىُّ؛ وسقط ما عداه.

وفى رجاء الله واليوم الآخر يعيش الإنسان عمره الطويل أو القصير كأنه فى يوم يصبح منه غادياً على الحشر والحساب؛ فهو متصل بالخلود غير مَعْنِىٍّ إلا بأسبابه، وبهذا تكون أمراضه وآلامه ومصائبه ليست مكاره من الدنيا، بل هى تلك المكاره التى حُفَّت الجنَّة بها؛ ولا يضره الحرمان لأنه قريب الزوال، ولا يغُرُّه المتاع لأنه قريب الزوال أيضاً.

وفى رجاء الله واليوم الآخر يسود الإنسان على نفسه، ومن كان سيِّد نفسه كان سيِّد ما حولها يصرفه بحكمه، ومن كان عبد نفسه صرفه بحكمه كل ما

حوله !! .

قال الشعبىُّ :

وأما المثال الروحىُّ للجماعة الكاملة ؛ فهو فى وصف المؤمنين بأنهم رحماء بينهم ؛ فهذا هذا ، ما أحسبه يحتاج إلى بسط وبيان .

إن أكثر ما يضيق به الإنسان يكون من قِبَل من حوله ممن يعايشهم ويتصل بهم لا من قِبَل نفسه ، فإذا قام اجتماع أُمَّةٍ على أنهم ﴿ رحماء بينهم ﴾ : تقرَّرت العظمة النفسية للجميع على السواء ؛ ومن كانوا كذلك لم يحقروا الفقير بفقره ، ولم يعظموا الغنىَّ لغناه ؛ وإنما يحقرون ويعظمون لصفات سامية أو حقيرة .

وبين هؤلاء يكون الفقير الصابر أعظم قدراً من الغنىِّ الشاكر ، وإعظام الناس لفضيلة الفقير هو الذى يجعل فقره عند نفسه شيئاً ذا قيمة فى الإنسانية !! .

ومتى تصحَّحت آراء الجماعة فى هذه المعانى المؤلمة للناس ؛ بطل ألمها واستحالت معانيها ، وصار لا يبلى معنى من معانى الحياة فى إنسان إلا وضع إيمانه معنىً جديداً فى مكانه ، وتصبح الفضيلة وحدها غاية النفس فى الجميع ، وبذلك يصبر الفرد على مصائبه ، لا بقوته وحده ، ولكن بجميع القوى التى حوله .

أفلا ترون أن إعجاب الناس بالشجاعة وتعظيمهم صاحبها يضع فى ألم السِّلاح لذَّةً يحُسُّها لحم الشجاع البطل ؟!!

قال المُسيَّب بن رافع :

فقام رَجُلٌ من المجلس ؛ فقال : أيُّها الشيخ ! ؛ وإذا فسد الناس !! ؛ وغلظت قلوبهم !! ؛ وتقطَّعت بينهم الأسباب !! ؛ ولم يعودوا ﴿ رحماء بينهم ﴾ !! ؛ وشمتوا بالفقير !! ؛ وتهزَّءوا بالمُبتلى وطرحوه فى ألسنتهم كما يطرح الشاعر فى لسانه رَجُلاً يهجوه لا يكف عنه !! ؛ فما عسى أن يصنع المسكين حينئذٍ وكل شئ يدفعه إلى قتل نفسه ؟!!

قال الشعبىُّ :

ههنا الرجاء فى الله واليوم الآخر ، وهو شعور لا يُشترى بمال !! ؛ ولا يُلتمس من أحد !! ؛ ولا يعسر على من أراده !! ؛ والفقير والمُبتلى وغيرهما إنما يصنع كل منهم مثاله السامى ؛ فالصبر على هذا العنت هو صبر على إتمام المثال ، وإذا وقع ما يسوءك أو يحزنك فابحث فيه عن فكرته السامية ؛ فقلَّما يخلو منها ؛ بل قلَّما يجىء إلا بها .

.....

قال المُسيَّب :

فقام آخر ؛ فقال : وكيف يصنع امرؤٌ آلت أحوال الدنيا إلى ما يُخيفه ؟!! ؛ أو بلغ الهمُّ مبلغه من قلبه فهمَّ أن يقتل نفسه ؟!!

قال الشعبىُّ :

فليجعل الخوف خوفين : أحدهما خوفه عذاب الله خالداً مُخلَّداً فيه أبداً !! ؛ فيذهب الأقوى بالأضعف ، وإذا ابتُلىَ فليضم إلى نفسه من هو أشد بلاء منه ؛ ليكون همُّهُ أحد همَّين ؛ فيذهب الأثقل بالأخف .

إن الإنسان ونفسه فى هذه الحياة كالذى أُعْطِىَ طفلاً نَـزِقًا طيَّاشاً عارماً مُتمرِّداً ليؤدبه ويُحكم تربيته وتقويمه فيُثبت بـذلك أنـه أستاذ ؛ فيعطى أجر صبره وعمله ؛ ثم يضيق الأستاذ بالطفل ساعة فيقتله !! ؛ أكذلك التأديب والتربية ؟!!



.....

- المَقَالَـةُ الثَّـالِثَـة:

الإنتحـــار

- ﴿ ٣ ﴾ -



قال المُسيَّب بن رافع:

وكان الإمام قد شغل خاطره بهذه القصة فأخذت تمد مدَّها في نفسه، ومكَّنت له من معانيها بمقدار ما مكَّن لها في هَمِّه، وتفتَّق بها ذهنه عن أساليب عجيبة يتهيَّأ بعضها من بعض كما يلد المعنى المعنى !!.
فلمَّا قال الرَّجُلان مقالهما آنفاً وأجابهما بتلك الحكمة والموعظة الحسنة؛ انقدح له من كلامهما وكلامه رأيٌ؛ فقال:

يا أهل الكوفة !!؛ أنشدكم الله والإسلام أيما رَجُلٍ منكم ضاق بروحه يوماً فأراد إزهاقها إلا كشف لأهل المجلس نفسه وصدقنا عن أمره؛ ولا يجدنَّ في ذلك ثلباً ولا عاباً؛ فإنما النكبة مذهب من مذاهب القدر في التعليم، وقد يكون ابتداء المصيبة في رَجُلٍ هو ابتداء الحكمة فيه لنفسه أو لغيره؛ وما من حزين إلا وهو يشعر في بعض ساعات حزنه أنه قد غُيِّبت فيه أسرار لم تكن فيه، وهذا من إبانة الحقيقة عن نفسها وموضعها كما لألأ في سيفٍ بريقُه.
وعقلُ الهمِّ عقلٌ عظيم !!؛ فلو قد أُريدَ استخراج علم يُعلِّمه الناس من اللذات والنِّعم؛ لكان من شرح هذا العلم من الحمير والبغال والدواب ما لا يكون مثله ولا قرابه في العقلاء، ولا تبلغه القوى الآدمية في أهلها؛ بيد أنه لو أُرِيدَ علم من البؤس والألم والحاجة لما وُجِدَ شرحه إلا في الناس، ثم لا يكون الخاص منه إلا في الخاصة منهم.

وما بان أهل النعمة ولا غمروا المساكين فى تطاولهم بأعناقهم إلا من أنهم يعلون أكتاف الشياطين ؛ فالشيطان دابة الغنىِّ الذى يجهل الحق عليه فى غناه ويحسب نفسه مُخَلّى لشهواته ونعيمه !! ؛ كما هو دابة العالم الذى يجهل الحق عليه فى علمه ويزعم نفسه مُخَلّى لعقله أو رأيه !! ؛ وما طال الطويل بذلك ولا عن ذلك قصر القصير، وهل يصح فى الرأى أن يقال هذا أطول من هذا لأن الأول فوق السلم والآخر فوق رجليه ؟!!

قال المُسيَّب :

فقام شيخ من أقصى المجلس ؛ وأقبل يتخطّى الرقاب والناس ينفرجون له ؛ حتى وقف بإزاء الإمام ؛ وتفرَّسته وجعلت عينى تعجمه !! ؛ فإذا شيخ تبدو طلاقة وجهه شباباً على وجهه !! ؛ أبلج الغُرَّة، مُتهلّلٌ !! ؛ عليه بشاشة الإيمان !! ؛ وفى أساريره أثر من تقطيبٍ قديمٍ !! ؛ ينطق هذا وذاك أن الرجل فيما أتى عليه من الدهر قد كان أطفأ المصباح الذى فى قلبه مرَّةً !! ؛ ثم أضاءه !! .

وعجبت أن يكون مثل هذا الشيخ قد همَّ بقتل نفسه يوماً ؟!! ؛ وأنا أرى بعينىَّ نَفْسَهُ هذه منبثقة فى الحياة انبثاق النخلة السحوق ؟!!

وتكلَّم هذا الرَّجُل ؛ فقال :

أما إذ ناشدتنا الله والإسلام وميثاق العلم ووحى الأقدار فى حكمتها ؛ فإنى مُحَدِّثُك بخبرى على وصفه ورصفه :

أملقت منذ ثلاثين سنة ؛ ووقف بى من الدهر ما كان يجرى !! ؛ وأصبحت فى مزاولة الدنيا كعاصر الحجر يريد أن يشرب منه !! ؛ وعجزت يدى ؛ حتى لظفر دجاجة فى نبشها التراب عن الحبَّة والحشرة أقدر منِّى !! ؛ وطرقتنى النوائب كأنما هى تُساكننى فى دارى !! ؛ وأكلنى الدهر لحماً ورمانى عظاماً !! فما كان يقف علىَّ إلا كلاب الطريق !! ؛ ولى يومئذ امرأة أعقبت منها طفلاً ، ويلزمنى حقهما ولا أستطيعه !! ؛ وكان بيننا حُبٌّ فوق المُعاشرة والأُلفة قد تركنى من امرأتى هذه كالشاعر الغَزِل من صاحبته !! ؛ غير أن الشعر فى دمى لا فى لسانى !! .

فلما نهكتنى المصائب وتناولتنى من قريب ومن بعيد ؛ قلت للمرأة ذات يوم وقد شَحِبت وانكسر وجهها وتقبَّض من هُزاله : وأيم الله يا فلانة لو جاز أن يؤكل لحم الآدمىِّ لذبحت نفسى لتأكلى وتُدرِّى على الصبىِّ !! ؛ ولقد هممت أن أركب رأسى وأذهب على وجهى لتفقدانى فتفقدا شُؤمى عليكما ولكن ردَّنى قلبى!! ؛ وهو حبسنى فى هذه الدنيا الصغيرة التى بينكما ، فليس لى من الأرض مشرق ولا مغرب إلا أنت وهذا الصبى !! ؛ ولست أدرى والله ما نصنع بالحياة وقد كُنَّا من نباتها الأخضر ؛ فرجعنا من حطبها اليابس !! ؛ وعادت الشمس لا تغذوها بل تمتص منها ما بقى !! ؛ ولا تستضئ لها ولكن تستوقد عليها !! .

إن من فقد الخير ووقع فى الشر ؛ حَرِىٌّ أن يكون قد أصاب خيراً عظيماً إذا قتل نفسه فخلص من الشر والخير جميعاً !! ؛ لا يكدى !! ؛ ولا ينجح !! ؛ ولا

يألم !! ؛ ولا يلذ !! ؛ وكما أنكرته الدنيا فلينكرها !! .

أما إنه إن كان القبر فالقبر ولكن فى بطن الأرض لا على ظهرها كحالنا !! ؛ وإن كان الموت فالموت ولكن بمرة واحدة وفى شئ واحد لا كهذا الذى نحن فيه أنواعاً أنواعاً !! ؛ قد ماتت أيامنا !! ؛ وتركنا نعيش كالموتى لا أيام لهم !! ؛ وزاد علينا الموتى فى النِّعمة والراحة أنهم لا يتطفَّلون على أيام غيرهم فيُطردوا عن يوم هذا ويوم ذاك !! .

قال : فاستعبرت المرأة باكية !! ؛ ولما فرغت من كلام دموعها قالت : كأنك تريد أن تفجعنا فيك ؟!!

قُلتُ : ما عدوتِ ما فى نفسى !! ؛ ولكن هل بقىَ فىَّ من تفجعين فيه ؟!! ؛ أما ذهب منِّى ذاك الذى كان لك زوجاً وكاسباً وجاء الذى هو هَمُّك وهمُّ هذا الصبىِّ من رَجُلٍ كالحفرة لا تنتقل من مكانها وتأخذ ولا تُعطى ؟!! ؛ أم والله لكأنى خُلقت إنساناً خطأً !! ؛ حتى إذا تبيَّن الغلط أُرِيدَ إرجاعى إلى الحيوان فلم يأت لا هذا ولا ذاك وبقيت بينهما !! ؛ يمر الناس بى فيقولون : إنسان مسكين !! ؛ وأحسب لو نطقت الكلاب لقالت عنِّى : كلب مسكين !! .

يا عجباً !! ؛ عجباً لا ينتهى !! ؛ أصبحت الدنيا فى يدنا من العجز واليأس كأنما هى بعرة نجهد فى تحويلها ياقوتة أو لؤلؤة !! .

فقالت المرأة : والله لئن حييت على هذا إن هذا لكفرٌ قبيح !! ؛ ولئن مِتَّ عليه إنه لأقبح وأشد !! .

فقلت لها : ويحك !! ؛ وماذا تنظر العين المبصرة فى الظلام الحالك إلا ما تنظر

العمياء؟!!

قالت: ولم لا تنظر كما ينظر المؤمن بنور الله ؟!!

قلت: فانظرى أنت وخبِّرينى ماذا ترين ؟!! ؛ أترين رغيفاً ؟!! ؛ أترين إداماً ؟!! أترين ديناراً ؟!!

قالت: والله إنى لأرى كل ذلك وأكثر من ذلك !! ؛ أرى قمراً سيكشف هذه السُّدفة المظلمة إن لم يطلع فكأن قد !! .

قال: فغاظتنى المرأة ورأيتها حينئذٍ أشد علىَّ بقِلَّة ذات عقلها من قِلَّة ذات يدى !! ؛ ولولا حُبِّى إيَّاها ورحمتى لها لأوقعت بها !! .

واستحكم فى ضميرى أن أزهق نفسى وأدعها لما كُتِبَ لها !! .

وقُلتُ: إن جُبن المرأة هو نصف إيمانها حين لا يكون نصف عقلها، وللقدر يد ضعيفة على النساء تصفعهن وتمسح دموعهن، وله يد أخرى على الرجال ثقيلة تصفع الرجل وتأخذ بحلقه فتعصره !! .

.....

قال:

وكُنتُ قد سمعت قول الجاهلية فى هذه الخليقة: « أرحام تدفع، وأرض تبلع !! » ؛ فحضرنى هذا القول تلك الساعة وَشُبِّهَ لى !! ؛ واعتقدت أن هذا الإنسان شئ حقير فى الغاية من الهوان والضَّعَة !! : حملته أُمُّهُ كرهاً !! ؛ وأثقلت به كرهاً !! ؛ ووضعته كرهاً !! ؛ وهو من شؤمه عليها إذا دنا لها أن

تضع لم يخرج منها حتى يضربها المخاض فتتقلّب وتصيح وتتمزّق وتنصدع !! ؛ وربما نشب فيها فقتلها !! ؛ وربما التوى فيبقر بطنها عنه !! ؛ وإذا هى ولدته على أىِّ حاليها من عُسْرٍ وتطريقٍ بمثل المطارق المحطمة !! ؛ أو سراح ورواح كما يتيسَّر ؛ فإنما تلده فى مشيمة ودماء وقذر من الأخلاط كأنما هو خارج من جرح !! ؛ ثم تتناوله الدنيا فتضعه من معانيها فى أقبح وأقذر من ذلك كله !! ؛ ثم يستوفى مُدَّته فيأخذه القبر فيكون شرًّا عليه فى تمزيقه وتعفينه وإحالته !! .

قال :

وحضرنى مع كلمة الجاهلية قول ذلك الجاهل الزنديق الذى يعرف (بالبَقْلىّ) ؛ إذ كان يزعم أن الإنسان كالبقلة ؛ فإذا مات لم يرجع !! ؛ وَقُلْتُ لنفسى :

إنما أنت بقلة حمقاء ذوايةٌ فى أرض نَشَّاشةٍ !! ؛ فقتلها ملح أرضها أكثر مما أحياها !! .

قال :

وثُرْتُ إلى المُدْية أريد أن أتَوَجَّأ بها !! ؛ فتُبادرنى المرأة وتحول بينى وبينها !! ؛ وأكاد أبطش بها من الغيظ !! ؛ وكانت روح الجحيم تزفر من حولى لو سمعوا سمعوا لها شهيقاً وهى تفور !! ؛ فما أدرى أىُّ ملك هبط بوحى الجنَّة فى لسان امرأتى ؟!!

قُلتُ لها : إنها عزمةٌ منِّى أن أقتل نفسى .

قالت : وما أريد أن أنقضها ولست أرُدُّك عنها وستُمضيها !! .

قُلتُ : فخلِّى بين نفسى وبين المُدية ؟!!

قالت : كُلُّنا نفسٌ واحدةٌ !! ؛ أنا !! ؛ وأنت !! ؛ والصبى !! ؛ فلنقض معاً !! ؛ وما بنفسى عن نفسك رغبة !! ؛ ولا تدع الصبىَّ يتيماً يصفعه من يطعمه !! ؛ ويضربه ابن هذا وابن ذاك إذ لا يستطيع أن يقول فى أولاد الناس أنا ابن ذلك ولا ابن هذا !! .

قُلتُ : هذا هو الرأى !!

قالت : فتعال اذبح الطفل ؟!!

قال المُسيَّب بن رافع :

وما بلغ الرَّجُلُ فى قصته إلى ذبح صغيره حتى ضَجَّ الناس ضجة مُنكرة !! ؛ وتوهَّم كل أبٍ منهم أن طفله الصغير ممدد للذبح وهو ينادى أباه ويشق حلقه بالصراخ : يا أبى !! ؛ يا أبى !! ؛ أدركنى يا أبى !!

أما الإمام فدمعت عيناه !! ؛ وكنت بين يديه فسمعته يقول : إنا لله !! ؛ كيف تصنع جهنَّمُ حطبها ؟!!

وأنا فما قط نسيت هذه الكلمة !! ؛ وما قط رأيت من بعدها كافراً ولا فاسقاً فاعتبرت أعماله إلا كان كل ذلك شيئاً واحداً : هو طريقة صنعته حطباً !! ؛ كأنَّ الشَّيطان ـ لَعَنَهُ الله ـ يقول لأتباعه : جفِّفوه !! .

وكانت هُنَيْهات ؛ ثم فاء الناس ورجعوا إلى أنفسهم وصاحوا بالمُتكلِّم : ثم ماذا ؟!!

قال الرَّجُل :

ففتحت عينى وقلبى معاً ورمقت الطفل المسكين الذى لا يملك إلا يديه الضعيفتين !! ؛ ونظرت إلى مجرى السكّين من حلقه وإلى محزّها فى رقبته اللّيّنة !! ؛ ورأيته كأنما تفرّق بصره من الفزع على كل جهة !! ؛ ورأيته يتضرَّع لى بعينيه الباكيتين ألا أذبحه !! ؛ ورأيته يتوسَّل بيديه الصغيرتين كأنه عرف أنه منّى أمام قاتله !! ؛ ثم خُيِّلَ إلىَّ أنه يتلوَّى وينتفض ويصرخ من ألم الذبح تحت يد أبيه !! ؛ تحت يد أبيه التعس !! .

يا ويلتاه !! ؛ لقد أخذنى ما كان يأخذنى لو تهدَّمت السماء على الأرض !! ؛ وحسبت الكون كله قد انفجر صُراخاً من أجل الطفل الضعيف الذى ليس له إلا رَبُّهُ أمام القاتل !! .

فهرولت مُسرعاً !! ؛ وتركت الدار والمرأة والصبىَّ وأنا أقول : يا أرحم الراحمين !! ؛ يا من خلق الطفل عالمه أُمُّه وأبوه وحدهما وباقى العالم هباء عنده !! ؛ يا من دبَّر الرضيع فوهبه مُلكاً ومملكة وغنىً وسروراً وفرحاً !! ؛ كل ذلك فى ثدى أُمِّه وصدرها لا غير !! ؛ يا إلهى !! ؛ أنسنى مثل هذا النسيان !! ؛ وارزقنى مثل هذا الرِّزق !! ؛ واكفلنى بمثل هذا التدبير !! ؛ فإنى مُنقطعٌ إلا من رحمتك انقطاع الرضيع إلا من أُمِّه !! .

قال الرَّجُل :

ولقد كنت مغروراً كالجيفة الراكدة تحسب أنها هى تفور حين فارت حشراتها!! ؛ ولقد كنت أحقر من الذُّباب الذى لا يجد حقائقه ولا يلتمسها

إلا فى أقذر القذر !! .

وما كدت أمضى كما تسوقنى رجلاى ؛ حتى سمعت صوتاً ندياً مطلولاً يُرَجِّع ترجيع الورقاء فى تحنانها وهو يُرتِّلُ هذه الآية!!:

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ؛ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ؛ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ؛ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً !! ﴾

[الكهف : ٢٨]

قال : فوقفت أسمع !! ؛ وماذا كنت أسمع ؟!! ؛ هذه شُعَلٌ لا كلمات !! ؛ أحرقت كل ما كان حولى !! ؛ ولمست مصباح روحى المُنطفئ !! ؛ فإذا هو يتوهَّج !! ؛ وإذا الدُّنيا كلها تتوهَّج فى نوره !! ؛ وارتفعت نفسى عن الجدب الذى كُنتُ فيه !! ؛ وكأنما لفّتنى سحابة من السُّحب !! ؛ ففى رُوحى نسيم الماء البارد ورائحة الماء العذب !! .

لعن الله هذا الاضطراب الذى يُبتلى الخائف به !! .

إننا نحسبه اضطراباً !! ؛ وما هو إلا اختلاط الحقائق على النفس وذهاب بعضها فى بعض !! ؛ وتَضَرُّبُ الشَّرِّ فى الخير والخير فى الشر حتى لا يبين جنس من جنس !! ؛ ولا يُعرف حَدٌّ من حد !! ؛ ولا تمتاز حقيقة من حقيقة !! ؛ وبهذا يكون الزمن على المُبتلى كالماء الذى جَمُدَ لا يتحرَّك ولا يتساير !! ؛ فيلوح الشَّرُّ وكأنه دائماً لا يزال فى أوَّله يُنذر بالأهوال !! ؛ وقد يكون هوله انتهى أو يُوشك !! .

قال الرَّجُل:

وكُنتُ أرى يأسى قد اعترى كل شيءٍ فامتد إلى آخر الكون وإلى آخر الزمن !! ؛ فلمَّا سكن ما بى إذا هو قد كان يأس يوم أو أيام فى مكان من الأمكنة !! ؛ أما ما وراء هذه الأيام وما خلف هذا المكان ؟!! ؛ فذلك حُكمهُ حكم الشمس التى تطلع وتغيب على الدنيا لإحيائها، وحُكم الماء الذى تهمى السَّماء به ليسقى الأرض وما عليها، وحُكم استمرار هذه الأجرام السماوية فى مدارها ولا تُمسكها ولا تزنها إلا قوة خالقها !! .

أين أثر الإنسان الدنىء الحقير فى كل ذلك ؟!! ؛ وهل الحياة إلا بكل ذلك ؟!! ؛ وما اللذة فى يد الإنسان العاجز من هذا النظام كله فيسوغ له أن يقول فى حادثة من حوادثه إن الخير لا يبتدئ وإن الشر لا ينتهى ؟!!

تعترى المصائب هذا الإنسان لتمحو من نفسه الخِسَّة والدناءة !! ؛ وتكسر الشَّرَّ والكبرياء !! ؛ وتفثأ الحِدَّة والطيش !! ؛ فلا يكون من حُمقه إلا أن يزيد بها طيشاً وحِدَّةً وكبرياءً وشراً ودناءةً وَخِسَّةً !! ؛ فهذه هى مصيبة الإنسان لا تلك !! .

المصيبة هى ما ينشأ فى الإنسان من المصيبة !!

قال:

وردَّدت الآية الكريمة فى نفسي لا أشبع منها !! ؛ وجعلت أُرتِّلُها أحسن ترتيل وأطربه وأشجاه !! ؛ فكانت نفسى تهتزُّ وَتَرَجُّ كأنما هى تبدأ تنظيم ما فيها لإقرار كل حقيقة فى موضعها بعد ذلك الاختلاط والاضطراب !! .

صبر النفس مع الذين يُمثِّلون روحانيتها تمثيلاً دائماً بالغداة والعشىِّ !! ؛ وعلى نور الحياة وظلامها !! ؛ يريدون وجه الله الذى سبيله الحُب لا غيره من مال أو متاع !! .

وتقييد العينين بهذا المثل الأعلى كما يكون الأمر فى الجمال والحُب ؛ والربط على الإرادة كيلا تتفلّت فتَسِفُّ إلى حقائر الدنيا المُسمَّاة هُزءاً وتهكُّماً :

« زِينَةُ الدُّنْيَا »

تلك التى تُشبه حقائق الذُّباب العالية فتكون قذرة لجسة !! ؛ ولكنها مع ذلك « زِينَةُ الحَيَاة » لهذا الخلق الذُّبابىِّ !! .

تلك والله هى أسباب السعادة والقُوَّة !! .

أما المصائب كُلُّها فهى فى إغفال القلب الإنسانىِّ عن ذكر الله !! .

قال :

ولَمَّا صحَّت توبتى ؛ وقوىَ اليقين فى نفسى : كبـرت رُوحى واتسعت !! ؛ وانبعثت لها بواعث من غير حقائق الذباب !! ؛ وأشرق فيها الجمال الإلهىُّ ساطعاً من كل شىء !! ؛ وكان الصُّبح يطلع علىَّ كأنه ولادة جديدة فأنا دائماً فى عمر طفل !! ؛ وجاءني الخير من حيث أحتسب ولا أحتسب !! ؛ وكأنما نِمْتُ فانتبهت غنيًّا !! ؛ وَعَمِلَ القلبُ الحىُّ فى الزمنِ الحىِّ !! .

ولقد أَفَدْتُ من الآية طبيعةً لم تكن فىَّ ولا يثبت معها الشَّرُّ أبداً !! ؛ فأصبح من خصالى أن أرى الحاضر كُلَّهُ مُتحرِّكاً يمر بما فيه من خيره وشرِّه جميعاً !! وأستشعر حركته مثلما ترى عيناى من قطار الإبل يهتز تحت رحاله وهو يغذ

السَّيْر !! .

لم أبعد قليلاً وأنا أمشى مُطمئناً تائباً مُتوكّلاً : حتى دعانى رَجُلٌ ذو نعمة ومروءة وجاه ؛ وكأنما كلّمهُ قلبه أو كلّمهُ وجهى فى قلبه فاستنبأنى ؛ وبثثته حالى واقتصصت قصّتى !! .

فقال :

سيُحييك الله بالطفل الذى كدت تقتله !! ؛ فارجع إلى دارك .

ثم وجّه إلىَّ دنانير ؛ وقال : اتَّجِر بهذه على اسم الله وبركته فسينمو فيها طفلٌ من المال يبلغ أشُدَّه .

وقد صدق إيمانه وإيمانى !! ؛ فبارك لى الله !! ؛ ونما طفل المال !! ؛ وبلغ وجاوز إلى شبابه !! .

قال المُسيَّب :

وجلس الرَّجُلُ وكان كالخطيب على المنبر !! .

فقال الإمام :

ما أشبه النكبة بالبيضة تُحسب سجناً لما فيها ؛ وهى تحوطه وتُربيه وتُعينه على تمامه !! ؛ وليس عليه إلا الصبر إلى مُدَّة ، والرضى إلى غاية ؛ ثم تَنْقُفُ البيضةُ فيخرج خلقاً آخر !! .

وما المؤمن فى دُنياه إلا كالفرخ فى بيضته ؛ عمله أن يتكوَّن فيها ؛ وتمامه أن ينبثق شخصه الكامل فيخرج إلى عالمه الكامل .



.....

ـ المَقَالَةُ الرَّابِعَة:

الإنتحـــار

ـ « ٤ » ـ



قال المُسيَّب بن رافع:

وَمَدَّ الإمام عينه وقد رُفِعَ له شخص من المجلس؛ ثم جلى بنظره كأنما يتطلَّع إلى عجيبةٍ كالحقِّ إذا بطل !! ؛ والصدق إذا كذب !! ؛ ثم رَدَّ بصره عليَّ كأنه يُعَجِّبني من عجبه !! ؛ ثم سجا طرفه كأنما أنكر رأى عينيه فهو يلتمس رأى قلبه !! .

وتبيَّنت فى وجهه انقباضاً خَيَّلَ إليَّ أن الشيطان جاءه بهذا الرَّجُل يُفحمه به يُريه كيف يجعل أحد المؤمنين الصالحين يتحمَّس فى دينه ليرجع بعد ذلك أصلاً لا غنى عنه فى إنشاء قصَّة كُفر !! .

هذا هو ضيفنا: أبو محمد البصريُّ !! ؛ يتخوَّض الناس ليجيء فيحدثنا حديثه في قتل نفسه والإثم بربِّه !! ؛ فلو قيل لي: إن قوس السماء بأحمره وأصفره وأزرقه وأخضره قد وقع إلى الأرض واصطبغ من ألوانه أوحالاً وأقذاراً ؛ لكان هذا كهذا في تعاظمه وإنكاره والعجب منه !! ؛ فأبو محمد من الرجال الحُمْسِ الذين لو كفر أحدهم ثم قيل: « إنه كفر » لقصر اللفظ أن يبلغ الحقيقة أو يصف شنعتها !! ؛ كما يقصر لفظ الجنون عن وصف حكيم تألَّى أن يعمل عملاً يخرج به من الكون ؛ فلا يبقى في أرض ولا سماء ؛ ولا تناله يد الله !! .

إن في لفظ الكفر مع ذاك ؛ وفي لفظ الجنون مع هذا ؛ شيئاً من نفاق العقل وتأدُّبه في أداء المعنى الأخرق الذي لا يشبهه جنون ولا كفر !! .

ونعوذ بالله من خذلانه !! ؛ فلقد يكون الرجل المؤمن في تشدُّده وإيغاله في الدين كالذي يصنع حبلاً يفتله فتلاً شديداً فيُمِرُّه على طاق بعد طاق ليكون أشد له وأقوى ؛ ثم يجاذبه الشيطان حبله ؛ فإذا هو كان في الوهن مثل العنكبوت اتخذت بيتاً في سقف حدَّاد ؛ فرأته يصب الحديد المصهور يجعله سلسلة حلقة في حلقة ، فذهبت تحكيه وترسل من لعابها خيطاً في خيط تزعمه سلسلة !! .

إن مع كل مؤمن شيطانه يتربص به ، فلهذا ينبغي للمؤمن أن يكون في كل ساعة كالذي يشعر أنه لم يؤمن إلا منذ ساعة ، فهو أبداً مُحترسٌ مُتهيئٌ مُتجدِّدٌ

الحواس مرهفها يستقبل بها الدنيا جديدة على نفسه بين الفترة والفترة، ومن هذا حكمة أن يؤذن المؤذن وأن تقام الصلاة مراراً فى اليوم، فكلما بدأ وقت قال المؤمن: الآن أبدأ إيمانى أطهر ما كان وأقوى .

وقال الإمام: هيه يا أبا محمد !!

فقال البصرىُّ وقد رأى الكراهة فى وجه الإمام: لا يُفزعنَّك أيها الشيخ !!؛ فإن الله تعالى قد يجعل ما يُحِبُّهُ هو فيما نكره نحن؛ وليس للأقدار لغة فتجرى على ألفاظنا؛ وقد نُسمِّى النازلة تنزل بنا خساراً وهى ربح !!؛ أو نقول مصيبة جاءت لتبديل الحياة، ولا تكون إلا طريقة تيسَّرت لتبديل الفكر !! .

إنما لغة القدر فى شىء هى حقيقة هذا الشىء حين تظهر الحقيقة؛ وكأين من حادثة لا تصيب امرأً فى نفسه إلا لتقع بها الحرب بين هذه النفس وبين غرائزها، فتكون أعمال الطبيعة المعادية أسباباً فى أعمال العقل المنتصر !! .

وكثير من هذا البلاء الذى يقضى على الإنسان، لا يكون إلا وسائل من القدر يرد بها الإنسان إلى عالم فكره الخاص به؛ فإن هذه الدنيا عالم واحد لكل من فيها، ولكن دائرة الفكر والنفس هى لصاحبها عالمه وحده .

والسعيد من قَرَّ فى عالمه هذا؛ واستطاع أن يحكم فيه كالملك فى مملكته؛ نافذ الأمر فى صغيرتها وكبيرتها؛ والشقىُّ من لا يزال ضائعاً بين عوالم الناس، ينظر إلى هذا الغنىِّ، وإلى ذاك المجدود، وإلى ذلك المُوفَّق؛ وهو فى كل هذا كالأجنبىِّ فى غير بلده وغير قومه وغير أهله !!؛ إذ كل شىء يصبح

أجنبيًّا عن الإنسان مادام هو أجنبيًّا عن نفسه !! .

لقد كنت ضالاً عن نفسي وعالمها ؛ فكنت في هذه الدنيا أستشعر شعور اللص ، أشياؤه هي أشياء الناس جميعاً !! ؛ واللص ينظر إلى أموال الناس بعيني شاعرٍ مُتحبِّبٍ كَلِفٍ ، وهي تنظر إليه بعيني مُقاتلٍ مُتربِّصٍ حَذِرٍ !! .

كنت والله إن ضقت بالناس أو وسعتهم ؛ رأيت في ذلك معنىً من ضيق اللص وسعته ؛ هو على أيِّ حاليه لا ينظر في أعماق نفسه إلا شخصاً متوارياً تحت الظلام يتسلل في خشية وحذر !! .

وكنت نَزِقاً !! ؛ حديد الطبع !! ؛ سريع البادرة !! ؛ ومن فقد عالم نفسه وكان في مثل اللص الذي ذكرت ؛ فإن هذه الطباع تكون هي أسلحته يدفع بها أو يعتدي !! .

وما قط تمكَّن إنسان من نفسه وأحاط بها ونفذ فيها تصرفه ؛ إلا كان راضياً عن كل شيء إذ يتصل من كل شيء بجهته السامية لا غيرها ، حتى في اتصاله بأعدائه من الناس وأعدائه من الأشياء ؛ فما يرى هؤلاء ولا هؤلاء إلا امتحاناً لفضائله وإثباتاً لها .

وقد يكون عدوك في بعض الأمور عيناً لك في رؤية نفسك ؛ ففيه بركة هذه الحاسة ونعمتها !! .

ولو نحن كنا مسلمين إسلام نَبِيِّنَا ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ ، وإسلام المقتدين به من أصحابه ؛ لأدركنا سر الكمال الإنسانيِّ ، وهو أن يَقَرَّ الإنسان في عالم نفسه ؛ ويجعل باطنه كباطن كل شيءٍ إلهيٍّ ؛ ليس فيه إلا قانونه الواحد

المستمر به إلى جهة الكمال، المرتفع به من أجل كماله عن دوافع غيره؛ فنظر الإنسان إلى نقص غيره هو أول نقصه !! .

والمؤمن كالغُصن؛ إن أثمر فتلك ثمار نفسه، وإن عطل لم يشحذ ولم يحسد واستمر يعمل بقانونه .

ولقد نشأت فى مغرس كريم، على صورة من الحياة تشبه صورة الثمرة الحلوة، اجتمع لها من طبيعة مغرسها ومرتبتها ما تتعين به من حلاوة ونكهة ومذاق، فلما عقلت وعرفت الناس بعد فجاريتهم وخالطتهم؛ رأيتنى منهم كالتفاحة ملقاة فى البصل !! ؛ وكانت التفاحة حمقاء فزادت حمقاً !! ؛ وكانت جديدة فزادت جِدَّة، وظنت أن الحكمة قد مُسِخَت فى الدنيا وبُدِّلَت إذ خُلِقَت البصلة بعد أن خُلِقَت التفاحة !! ؛ وما علمت الخرقاء أن الكمال فى هذه الحياة مجموع نقائص !! ؛ وأن للجمال وجهين:

أحدهما الذى اسمه القُبح ؛ لا يُعرف هذا إلا من هذا ؛ وأن البصلة لو أدركت ما يريد الناس من معناها ومعنى التفاحة ؛ لسمَّت نفسها هى التفاحة !! ؛ وقالت عن هذه أنها هى البصلة !! .

ولَمّا رأت تفاحتى أنها عاجزة أن تجعل الشجر كُلَّه فى مثل مرتبتها ومغرسها ؛ قالت : إن الأمر أكبر من طبيعتى !! ؛ ومادام سِرُّ الكون مُغلقاً فلا تعريف له إلا أنه سِرٌّ مُغلق، وليبق كل شئ فى طبيعة نفسه ؛ فعلى هذا يصلح كل شىء ولو فى نفسه وحدها .

قال أبو محمد : ولكن بقيت وحشة الدنيا وجفوتها !! ؛ إذ لم أكن اهتديت إلى عالمي ، ولا تأكدت عقيدتي بنفسي ؛ فكان كل ما حولي منبجساً في روحي بِشرِّه !! ؛ وكانت الدنيا بهذا كالمتطابقة في رأيي على معنى واحد ، وزادني أني كُنْتُ رَجُلاً عَزَبَاً مُتعفِّفاً ؛ وما أشبه فراغ الرجولة من المرأة بفراغ العقل من الذكاء !! ؛ هذا هو العقل البليد ، وتلك هي الرجولة البليدة !! .

والمرأة تضاعف معنى الحياة في النفس ، فلا جَرْمَ كان الخلاء منها مضاعفة لمعنى الموت ؛ علم هذا من علم وجهله من جهل ، فكنت أعيش من الكون في فراغٍ ميِّتٍ !! ؛ وكنت أحس في كلِ ما حولي وحشة عقلية تُشعرني أن الدنيا غير تامة !! ؛ وكيف تتم في عيني دنيا أراها غير الدنيا التي في قلبي ؟!! وعرفت أن كل يوم يمضي على الرَّجُل العزب المُتعفِّف لا يمضي حتى يُهيِّئ فيه مرض يوم آخر !! ؛ ومن هذه الأيام المريضة المتهالكة تُعِدُّ الحياة انتقامها من هذا الحيِّ الذي نقض آيتها وافتأت عليها وجعل نفسه كالإله لا زوجة له ولا صاحبة !! .

وأيم الله إن الشيطان لا يفرح بالرَّجُل الزاني وبالمرأة الزانية ما يفرح بالرَّجُل العزب وبالمرأة العزباء !! ؛ لأنه في ذينك رذيلة في أسلوبها ، أما في هذين فالشيطان رذيلة في أسلوب فضيلة !! ؛ هناك يُلِمُّ الشيطان ويمضي ، وهنا يأتي الشَّيطان ويُقيم !! .

وقد عشت ما عشت بقلب مغلق وعقل مفتوح ؛ وليتني كنت جاهلاً مغلقاً عقله وكان قلبي مفتوحاً لأفراح هذا الكون العظيم !! .

ومضت أيامى يضرب بعضها فى بعض، ويُمْرِض بعضها بعضاً؛ حتى انتهت منتهاها؛ وجاء اليوم المدنف الهالك الذى سيموت !! .

أصبحت فقُلتُ لنفسى: كم تعيشين ويحك فى أحكام جسد مختل لا تصدق أحكامه ؟!! ؛ وما أنت معه فى طبيعتك ولا هو معك فى طبيعته !! ؛ ففيم اجتماعكما إلا على بلائى ونكدى ؟!!

لم تصطلحا قط على واجب ولا لذّة !! ؛ ولا حلال ولا حرام !! ؛ فأنتما عدوان لا همَّ لكليهما إلا إفساد المسرَّة التى تعرض للآخر !! .

وما أدرى بمن يسخر الشيطان منكما ؟!!

فالعابد الذى يُوَسْوِسُ باللذَّات يتمنَّى اقترافها كالفاجر الذى يواقعها ويقتحمها !! .

ويحك يا نفس !! ؛ إنى رأيت هذه الدنيا الخرقاء لم تُقدِّم لى إلا رغيفاً !! ؛ وقالت: املأ بهذا بطنك ! ؛ وعقلك ! ؛ وعينيك ! ؛ وأُذنيك ! ؛ ومشاعرك !! .

آه !! ؛ آه !! ؛ ممكن واحد معه أربع مستحيلات !! ؛ إن هذا لا يُلْبُثنى أن يذهب منِّى بالأربعة التى تُمسكنى على الحياة: الأمل ، والعقل ، والإيمان ، والصبر !! .

لقد استوى فى هذه الكآبة صغير همِّى وكبيره !! ؛ وما أُرانى إلا قد أشرفت على الهلكة التى لا باقية لها !! ؛ فإن وجهى المُتكلِّح المُتقبِّض يَدُلُّ منِّى على أعصاب محتضرة نهكتها أمراضها ووساوسها !! ؛ وإنما وجه الإنسان فى قطوبه أو تهلُّله هو وجهه ووجه دُنياه تَعْبَسُ أو تبتسم !! .

وتالله لقد عجزت عن كفاح الدنيا بهذه الأعصاب المريضة الواهنة !! ؛ فإن حُبَالَة الصيد - صيد الوحش - لا تكون من خيط الإبرة !! ؛ وأرانى أصبحت كإنسانٍ حجرىٍّ ليس فى طبيعته الالتواء إلى يمين الحياة ويسارها !! ؛ ويُخَيَّلُ إلىَّ من صلابتى أنى الأسد !! ؛ ولكنى أسد من حجر !! ؛ لا تفرض قُوَّته الفرار منه على أحد !! .

قال أبو محمد :

ورأيت نفسى فى هذا الحوار كالميتة !! ؛ لا تجيب ولا تعترض ولا تنكر !! ؛ وكنت أظنُّها تراودنى على الحياة أو تردُّنى عن غوايتى !! ؛ فملأنى سكونها جزعاً !! ؛ وأيقنت أن الشيطان بينى وبينها !! ؛ وأنه أخذ بمنافذها !! ؛ فأردت الصلاة ؛ فثقلت عنها !! ؛ ورأيتنى لا أصلح لها !! ؛ بل خُيِّلَ إلىَّ أنى إذا قمت إلى الصلاة فإنما قمت لأتهزَّأ بالصلاة !! .

وجعل الشيطان يأخذنى عن عقلى ويردُّنى إليه !! ؛ ثم يأخذنى ويردُّنى !! ؛ حتى توهَّمت أنى جُننت !! ؛ وكأنما كان يريد اللعين بقية إيمانى يُجاذبنى فيها وأُجاذبه !! ؛ فلم ألبث أن مسَّنى خَبَالٌ !! ؛ وألقيت هذه البقية فى يديه !! .

ثم أفقت إفاقة سريعة ؛ فرأيت (المصحف) يرقبنى قريب ؛ فعُذت به ؛ وعطفت عليه ؛ وقلت له : امنع الضربة عن قلبى !! .

بيد أنى أحسست أنه خصمى فى موقفى لا ظهيرى !! ؛ كأنى جعلته مصحفاً عند زنديق !! ؛ فكان كل إيمانى الذى بقىَ لى فى تلك اللحظة أنى ضعُفت عن حمل المصحف كما ثقلت عن الصلاة !! ؛ فبقى الطاهر طاهراً والنَّجِسُ

نجَساً !! .

ولم تكن نفسى فىَّ ولا كنت فيها !! ؛ فرأيت الدنيا على وجه لا أدرى ما هو !! ؛ غير أنه هو ما يمكن أن يكون معقولاً من تخاليط مجنون تركه عقله من ساعة : بقايا شعور ضعيف !! ؛ وبقايا فهم مريض !! ؛ تتصاغر فيهما الدنيا !! ؛ ويتحاقر بهما العقل !! .

فلما انتهيت إلى هذا لم أعقل ما عملت !! ؛ وكانت الموسى قد أصابت من يدى عِرقاً ناشزاً مُنْتَبِراً !! ؛ ففار الدم !! ؛ وانفجرت منه مثل الينبوع ضرب عنه الصخر فانشق فانبثق !!

وتحقَّقت حينئذٍ أنه الموت !! ؛ فنظرت !! ؛ فرأيت !!



قال المُسيَّب راوى القصة :

وتجهَّم وجه الرَّجُل !! ؛ فأطرق وسكت !! ؛ وكان على وجهه شَفَقٌ مُحْمَرٌّ فأظلم بغتة عندما قال : « فنظرت فرأيت » !! .

وارتج المسجد بصيحة واحدة : فرأيت ماذا ؟!! ؛ رأيت ماذا ؟!!

وبعثت الصحية أبا محمد !! ؛ فقال : رأيت ثلاثة وجوه أشرفت من المُصحف تنظر إلىَّ كالعاتبة !! ؛ وكان أوسطها كالقمر الطالع !! ؛ لو تمثَّلت آيات الجنَّة كُلّها وجهاً لكانته فى نُضرته وبشاشته !! ؛ وغمغمت الوجوه الثلاثة بكلمات لم أسمع منها شيئاً !! ؛ ولكن نظرها إلىَّ كان يُؤدِّى لى معانيها !! ؛ وكأنها

تقول: « أكذلك المُؤمِن ؟!! » !!

ثم غابت !! ؛ وتخلَّت عنِّى !! ؛ وبرزت ثلاثة وجوه أخرى !! ؛ كأنها نقائض تلك !! ؛ وأعوذ بالله من أوسطها !! ؛ لو تمثَّلت آيات الجحيم كُلّها وجهاً لكانته فى نُكره وهوله !! ؛ وَخُيِّلَ إلىَّ أن الوجه الأصغر منها وجه سورة من سور المصحف !! ؛ ففكرت !! ؛ فوقع لى مما قام فى نفسى من اللعنة أنها :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ !! ﴾

[المَسَد : ١]

وطمس الظلام هذه الرؤيا !! ؛ وتغيَّمت الدنيا !! ؛ فأيقنت أن آثامى قد أقبلت علىَّ ظلمة بعد ظلمة !! ؛ والتمع شىء أحمر !! ؛ فنظرت !! ؛ فإذا الدم يتخايل فى عينى كأنه شُعَلٌ تتلوى !! ؛ فجزعت أشد الجزع !! ؛ وحسبتها طرائق ممتدة لروحى تذهب بها إلى الجحيم !! .

وماتت كل خواطرى بعد ذلك إلا فكرة واحدة بقيت حيَّة تأكل فى قلبى أكل النار !! ؛ وهى :

« كيف تجرَّأت فوضعت بينى وبين الله حُمقى ؟!! »



ويقولون : إن أُختى قد رأتنى أَتَشَحَّطُ فى دمى !! ؛ فصاحت !! ؛ وجاء الناس على صوتها !! ؛ وكان فيهم طبيب ؛ فبعد لأىٍ ما استطاع حبس الدم ، واحتال حيلته حتى أسَفَّ الجرح دواءً وَضَمَدَه ؛ فجعلت أثوب نَفَساً بعد

نَفَس، وراجعت قليلاً قليلاً !! .

ثم طافت الحياة على عينىَّ ففتحتهما !! ؛ فإذا الأشياء تبدو لى وليس فيها حقائق ولا معان !! ؛ كأنها تتخلَّق جديدة تحت بصرى !! ؛ وكأنها خارجة لساعتها من يد الله !! .

وتماثلت شيئاً بعد ساعات ؛ فأحسست أن نفسى قد رجعت إلىَّ ساخرة منِّى تقول :

« كيف رأيت عمل العقل أيُّها العاقل ؟!! »

وبدأت الحياة تتجدَّد ؛ فأقسمت بينى وبين نفسى أن أُجدِّد إيمانى بالله، ولم أكد أفعل حتى أحسست أن قوة الوجود كلها مستقرة فى روحى !! ؛ وَخُيِّلَ إلىَّ أنى أنا وحدى القوىُّ على هذه الأرض قوة جبالها وصخورها !! ؛ على حين كان جسمى مُمدَّداً كالميِّت لا يتماسك من الضعف !! .

فأيقنت حينئذٍ ما لم أعرفه قط من الدنيا ولم أشعر به قط فى الحياة ولم يأتنى به علم ولا فكر ؛ أيقنت أنها معجزة الإيمان الجديد الغض !! ؛ المتصل بالله لتوِّه كإيمان الأنبياء دون أن تلمسه شهوة !! ؛ أو تعترضه خاطرة !! ؛ أو تُكدِّره ذرَّة واحدة من فكر أرضىٍّ دَنِس !! .



قال المُسيَّب :

ثم جلس المُتحدِّث، وكان الناس فى آخر كلامه كأنما غادروا الدنيا ساعة

ورجعوا إليها على مثل حالته ومثل إيمانه !! .

فسكت الإمام ولم يتكلّم !! ؛ليدع كل نفس تُكلّم صاحبها !! .



.....

ـ المَقَالَةُ الخَامِسَة:

الإنتحـــار

- ﴿ ٥ ﴾ -



قال المُسيَّب بن رافع :

وأطرق الناس قليلاً بعد خبر أبى محمد البصرى !! ؛ إذ كان كل منهم قد جمع باله لما سمع وأخذ يَحْدِسُ فى نفسه ويراجعها الرأى ، وكان المجلس قد امتد بنا منذ العصر وما يكاد النهار يشعرنا بإدباره حتى اعترضت فى شمسه الغبرة التى تعتريها إذا دنت أن تغرب ، وكان إلى يسارى فتى ريَّان الشباب ، حسن الصورة ، وضئ مشرق ، له هيئة وسمت ، أقبل على الأيام وأقبلت الأيام عليه !! .

فسمعنى أطِنُّ على أذن « مجاهد الأزدى » ؛ وكنت أعرفه شاعراً فى كلامه وشاعراً فى قلبه!! ؛ فقلت له : إنه لم يبق من النهار يا مجاهد إلا مثل صبر المُحِبِّ دنا له الموعد !! ؛ ولم يبق من الشمس إلا مثل ما تتلفَّف صاحبته تأخذ عليها ثوبها وغلائلها!! ؛ ولكن بعد أن تسقطها من هنا ومن هنا لترى جمال جسمها هنا وهنا!! .

فاهتزَّ الفتى لهذه الكلمات وسالت الرقة فى أعطافه!! ؛ وقال : يا عم!! ؛ أما ترى ما بقىَ من النهار كأنه وجه باك مسح دموعه وليس حوله إلا كآبة الزمن؟!!

قلت: كأن لك خبراً يا فتى ؟!! ؛ فإن كان شأنك مما نحن فيه فقُصَّه علينا وعلِّلنا به سائر الوقت إلى أن تجب الشمس، ولعلك طائر بنا طيرة فوق الدنيا !!

قال: فمه ؟!!

قلت: تقوم فتتكلم، فإني أرى لك لساناً وبياناً !!

قال: أويحسن أن أتكلم فى المسجد عن صرعة الحُبِّ وصريعه وعاشقة وعاشق ؟!!

فبادر مجاهد ؛ فقال: ويحك يا فتى !! ؛ لقد تحجَّرت واسعاً !! ؛ إن المؤمن ليصلي بين يدى الله وكتاب سيئاته فى عنقه منشور مقروء!! ؛ وهل أوقات الصلاة إلا ساعات قلبية لكل يوم من الزمن ؟!! ؛ تأتي الساعة مما قبلها كما تأتي توبة القلب مما عمل الجسم ؟!! ؛ إنما يتلقي المسجد من يدخله لساعته التي يدخله فيها، ولو أنه حاسبه عن أمس وأول منه وما خلا من قبل لطرده من العتبة!! ؛ إن المسجد يا بُنيَّ إنما يقول لداخله: ادخل فى زمني ودع زمنك !! ؛ وتعال إليَّ أيها الإنسان الأرضيُّ لتتحقق أن فيك حاسة من السماء !! ؛ وجئني بقلبك وفكرك ليشعرا ساعة أنهما فيَّ لا فيك !! ؛ ولسنا الآن يا بُنيَّ فى مُتحدَّث كَندِيِّ القوم يتطارحون فيه أخبارهم !! ؛ بل نحن فى مجلس عالم تكلمت فيه رقبة هذا ورقبة هذا بما سمعت !! ؛ فقم أنت فاذكر علم قلبك وقُص علينا خبر طيش الحُبِّ والشباب الذى يشبه الكلام فيه أن يكون كلاماً عن الصعود إلى القمر والقبض من هناك على البرق !!

قال المُسيَّب :

فانتهض الفتى !! ؛ ورأيت مجاهداً يتنهَّد كأنما انصدعت كبده !! ؛ فقلت : ما بالك ؟!!

قال : إن شبابى قد مَرَّ علىَّ الساعة فنسمت منه فى بُردة هذا الفتى !! ؛ ثم فقدته فقداً ثانياً فهرمت هرماً ثانياً !! ؛ وجاءنى الحزن من إحساسى بأنى شيخ !! ؛ حزن من هَمَّ أن يدخل باب حبيب ثم رُدَّ !!

وتحدث الفتى ؛ فإذا هو يُدير بين فكَّيه لسان شاعر عظيم !! ؛ يتكلم كلامه بنفسين : إحداهما بشرية تصنع المعنى واللفظ!! ؛ والأخرى علوية فيها النار والنور !!

قال :

إن لى قصة أيُّها الشيخ ؛ لم يبق منها إلا الكلام الذى دفنت فيه معانيها!! ؛ وقد تأتى القصة من أخبار القلب مفعمة بالآلام والأحزان !! ؛ ولا يراد بآلامها وأحزانها إلا إيجاد أخلاق للقلب يعيش بها ويتبدل !! ؛ والذى قُدِّرَ عليه الحُبُّ لا يكون قد أحب غيره أكثر مما يكون قد تعلم كيف ينسى نفسه فى غيره !! ؛ وهذه كما هى أعلى درجات الحُب !! ؛ فهى أعلى مراتب الإحسان !! ؛ ومتى صدق المرء فى حُبِّهِ كانت فكرته فكرتين : إحدهما فكرة ، والأخرى عقيدة تجعل هذه الفكرة ثابتة لا تتغير !! ؛ وهذه كما هي طبيعة الحب فهي طبيعة الدين !!

ولا شيء فى الدنيا غير الحُب يستطيع أن ينقل إلى الدنيا ناراً صغيرة وجنّة صغيرة، بقدر ما يكفي عذاب نفس واحدة أو نعيمها، وهذه حالة فوق البشرية !!

والفضائل عامتها تعمل فى نقل الإنسان من حيوانيته، وقد لا تنقل إلا أقلّه ويبقى فى الحيوانية أكثره؛ ولكن الحب الصادق يقتلع الإنسان من حيوانيته بمرة واحدة !!؛ بَيْدَ أنه لا يكون كذلك إلا إذا قتله بآلامه؛ فهو كأعلى النُّسك والعبادة !!

كان خبرى أنى دُعيت يوماً إلى ما يُدعى لمثله الشباب فى مجلس غناء وشراب، يا له من مجلس!!؛ وقد قال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾

[البقرة: ٢٦]

والبعوضة فى قصتى أنا كانت امرأة نصرانية !!؛ قينة فُلان المُغنية الحاذقة المحسنة المتأدبة!!؛ تحفظ الخبر!!؛ وتروى الشعر!!؛ وتتكلم بألفاظ فيها حلاوة وجهها !!؛ وتخلق النُّكتة إذا شاءت خلق الزهرة المتفتحة عليها سَقِيطُ الندى !!؛ وتَجِدُّ بالحديث ما شاءت وتهزل !!؛ فتجعل للكلام عقلاً وشهوةً تضاعف بهما من تُحدِّثه فى شهواته وعقله !!

وستجرى فى قصتها ألفاظ القصة نفسها، لا أتأثّم من ذلك ولا أتذمّم؛ فقد ذكر الله الخمر ولم يقُل: « الماء الذى فيه السُّكْر »، ووصف الشيطان ولم

يقُل : « الملك الذى عمل عمل المرأة الحسناء فى تكبُّرها »، وذكر الأصنام بأنها الأصنام ولم يُسمِّها : « حاملة السماء التى يصنعها الإنسان بيديه » ؛ وحكاية ما بين الرجل والمرأة هى كلام يقبل بعضه بعضاً ويلتزم ويتعانق !! .



قال المُسيَّب :

فتبسَّم إمامنا !! ؛ ونظرت عيناه تسألان سؤالاً !! ؛ أما مجاهد الأزدىُّ فكان من هِزَّةِ الطرب كأنه على قتب بعير !! ؛ وقال : لله دَرُّهُ فتى !! ؛ إن هذا لبيان كحيل العين !! .



ثم قال الفتى : وذهبت إلى المجلس وقد جعلته هذه المغنية من حواشيه وأطرافه كأنه تفسير لها هى !! ؛ أما هى فجعلت نفسها تفسيراً لكلمة واحدة هى « اللذة »!! .



قال المسيب :

وطرب مجاهد طرباً شديداً !! ؛ وسمعته يخافت بصوته يقول : « لله دَرُّهَا امرأة !! ؛ هذه !! ؛ هذه عدوة الحور العين !! » .



ثم قال الفتى :

وتطرَّب جماعة أهل المجلس إلى الشُّرب ، وما ذُقت خمراً قط ، ولن أتذوقها ولو شربها الناس جمعياً ، ولن أذوقها ولو انقطع الغيث ولم تمطر السماء إلا خمراً !! ؛ فإني مُذ كنت يافعاً رأيت أبي يشربها ، وكانت أمي تلومه فيها وتشتد في تعنيفه وتحتدم !! ؛ وكانا يتشاحنان فينالها بالأذى ويندرئ عليها بالسَّبِّ وفُحش القول !! .

وسكر مرَّة وغلبه السُّكر حتى ثارت أحشاؤه!! ؛ فذرعه القيئُ فتوهَّمني وعاء !! ؛ وجاء إليَّ وأنا جالس فأمسك بي وقاء في حجري حتى أفرغ جوفه !! ؛ وثارت أمي لتنتزعه !! ؛ وأنشأت تعالجه عنِّي !! ؛ فتصارع جنونه وعقلها حتى كفأته على وجهه كالإناء !! ؛ فالتوى كالحيَّة بطناً لظهر!! ؛ واستجمع كالقُنفذ في شوكه !! ؛ ثم لكزها برجله أسفل بطنها !! ؛ فانقلبت !! وأصاب رأسها إجانة العجين فتثلَّم تثليم الإناء كأنما شُدِخَ ضرباً بحجر!! ؛ وانتثر دماغها على الأرض أمام عيني!! ؛ ورأيتها لم تزد على أن دفعت بإحدى يديها في الهواء وضمَّت بالأخرى إلى صدرها تتوهم أنها تحميني وتدفعه عنِّي !! ؛ ثم سكنت !! ؛ ولو لم تمت من الشجَّة في رأسها لماتت من الضربة في بطنها !! .



قال المسيب :

وأطرق الفتى هُنيهة !! ؛ وأطرق الناس معه !! ؛ فرفع مجاهد صوته وقال : رحمها الله !! .

فقال الناس جميعاً : رحمها الله !! .



ثم قال الفتى :

وكان عامة من فى المجلس يعرفون ذلك منِّى ، ويعرفون أنه لو ساغ لإنسان أن يشرب دم أُمِّه ما شربت أنا الخمر!! .

فقالوا للمُغنية : إن هذا لا يدخل فى ديواننا .

فنظرت إلىَّ ، وهربت أنا من نظرتها بإطراقة !! ؛ ثم قالت : تشرب على وجهى ؟!!

فقلت لها : إن وجهك يقول لى : لا تشرب !! .

فتضاحكت !! ؛ وقالت : أهو يقول لك غير ما يقول لهؤلاء ؟!!

فهربت من كلامها بإطراقة أخرى !! ؛ ووصلت الإطراقتان ما بينى وبين قلبى !! ؛ وتنبَّه فيها مثل حنو الأم على طفلها إذا آذته بلسانها فأطرق ساكتاً يشكوها إلى قلبها !! .

والتفتتْ لمن حضر وقالت لهم: لست أطيب لكم ولا تنتفعون بى إلا أن تشربوا لى وله ولأنفسكم !! ؛ وانحط عليهم الساقى، فشربوا أرطالاً وأرطالاً، وهى بين ذلك تُغنِّيهم وقد أقبلت عليهم وخلا وجهها لهم من دونى !! ؛ تخالسنى النظرة بعد النظرة !! .

فوسوس لى شيطانى أن تشدَّد مع هذه بمثل عزمتك مع الخمر فإنما هما شئ واحد !! .

ولكنى كُنْتُ أُحِدُّ النظر إليها، فمرَّة أوامقها نظرة المُحِبِّ للحبيب !! ؛ ومرة أغضى عنها بنظرة لا تنظر !! ؛ وكأنى بذلك كنت آخذها وأدعها !! ؛ وأصلها وأهجرها !! .

فقالت لى كالمُنكرة علىَّ: ما بالك تنظر إلىَّ هكذا؟!!

ولكن هيئة وجهها جعلت المعنى: لا تنظر إلىَّ إلا هكذا !! .

وأسرع الشراب فى القوم !! ؛ وأفرط عليهم السُّكر !! ؛ فبقيت لى وحدى وبقيت لها وحدها !! ؛ ثم تناولت عودها وضمَّته إليها ضماً شديداً أكثر من الضم !! ؛ وألمسته صدرها ونهديها !! ؛ ثم رَنَتْ إلىَّ بمعنى، فما شككت أنها ضَمَّةٌ لى أنا والعود !! ؛ ثم غنَّت هذا الصوت:

ألا قَاتَلَ اللهُ الحَمَامَةَ غُدْوَةً
عَلَى الغُصْنِ ؛ مَاذَا هَيَّجَتْ حِينَ غَنَّتِ؟.
فَمَا سَكَتَتْ حَتَّى أَوَيْتُ لِصَوْتِهَا

وَقُلْتُ: تُرَى هَـذِى الحَمَامَةُ جُنَّتِ؟!.

وَمَا وَجْـدُ أعْـرَابِيَّـةٍ قَـذَفَتْ بِهَـا
صُـرُوفُ النَّوَى مِن حَيْثُ لَم تَكُ ظَنَّتِ.

إِذَا ذَكَـرَتْ مَـاءَ العِضَـاهِ وَطِيبَـهُ
وَبَـرْدَ الحِمَى مِـن بَطْـنِ خَبْـتٍ أَرَنَّـتِ.

بِـأَكْـثَـرَ مِنِّـى لَـوْعَـةً غَـيْـرَ أَنَّنِى
أُجَمْـجِـمُ أَحْشَائِى عَلَى مَـا أَجَنَّتِ.

وغنته غناءً من قلب يئن !! ؛ وصدر يتنهّد !! ؛ وأحشاء لا تخفى ما أجنَّت !! ؛ وكانت ترتفع بالصوت ثمَّ كأنما يهمى الدمع على صوتها !! ؛ فيرتعش ويتنزَّل قليلاً قليلاً حتى يئن أنين الباكية !! ؛ ثم يعتلج فى صدرها مع الحُب !! ؛ فيتردد عالياً ونازلاً !! ؛ ثم يَرْفَضُّ الكلامُ فى آخره دموعاً تجرى !! .



قال المسيب :

فنظر إلىَّ مجاهد وقال : عدوَّة الجنَّة ـ والله ـ هذه يا أبا محمد !! ؛ لا تقبل الجنَّةُ من يكون معها !! ؛ تقول له : كنت مع عدوَّتى !! .



ثم قال الفتى :

وكان القوم قد انتشوا !! ؛ فاعتراهم نصف النوم ويقىَ نصف اليقظة فى حواسهم !! ؛ فكل ما رأوه منّا رأوه كأحلام لا وجود لها خلف أجفانهم المثقلة سُكراً ونُعاساً !! .

ووثبت المُغنية !! ؛ فجاءت إلى جنبى !! ؛ والتصقت بى !! ؛ وأسرع الشيطان فوسوس لى : أن احذر فإنك رَجُل صدق !! ؛ وإذا صدقتَ فى الخمر فلا تكذبنَّ فى هذه !! ؛ ولئن مسستها إنها لضياعك آخر الدهر !! .

فعجبت أشدَّ العجب أن يكون شيطانى أسلم وَأُعِنْتُ عليه كما أُعِينَ الأنبياء على شياطينهم !! ؛ ولكن اللعين مضى يصدُّنى عن المرأة دون معانيها !! ؛ وكان منِّى كالذى يُدنى الماء من عينى القتيل المتلهِّب جوفه ثم يجعله دائماً فوت فمه !! ؛ ولقد كنت من الفحولة بحيث يبدو لى من شدَّة الفورة فى دمى وشبابى أن أجمع فى جسمى رجالاً عِدَّة !! ؛ ولكن ضربنى الشيطان بالخجل فلم أستطع أن أكون رَجُلاً مع هذه المرأة !! .

وعجبت هى لذلك !! ؛ وما أسرع أن نطق الشيطان على لسانها بالموعظة الحسنة !! .

فقالت : أحببتك ما لم أُحب أحداً !! ؛ وأحببت خجلك أكثر منك !! ؛ فما يسرنى أن تأثم فىَّ فتدخل النار بحُبِّى !! ؛ ولو أنك ابتعتنى من مولاى ؟!!

فقلت : بكم اشتراك ؟

قالت : بألف دينار ؟

قلت : وأين هى منِّى وأنا لو بعت نفسى ما حصلت لى ؟!!

فتمَّم الشيطان موعظته !! ؛ وقالت وأشارت إلى قلبها : إن قلبى هـذا قَبلَـكَ غنيًّا كنت أو فقيراً ، وأحس بك وحدك حُبُّ العذارء أول ما تُحِب !! ؛ وأنا كما ترانى أعيش فى السيئات كالمكرهة عليها !! ؛ فسأعمل على أن تكـون أنت حسنتى عند الله !! ؛ أذهب إليه حاملـة فـى قلبـى حُبِّى إيـّاك وعفَّتـى عنك !! ؛ ولئن كانت عفَّة من لا يشتهى ولا يجد تعد فضيلة كاملة ؛ إن عفَّة من يجد ويشتهى لتُعد ديناً بحاله !! ؛ ولا يزال حُبِّى بكراً !! ؛ ولا أزال فى ذلك عذراء القلب !! ؛ وهؤلاء قد نزعوا الحياء عنِّى من أجل أنفسهم !! ؛ فألبسنيه أنت من أجلك خاصة !! ؛ وإن قوة حُبِّى كالذى سيتألم بك ويتعذَّب منك لطول ما يصبر عنك ؛ ستكون هى بعينها قوة لفضيلتى وطهارتى !! .

ثم تناولت عودها ؛ وسوَّته ؛ وغنَّت :

فَلَـوْ أنَّا عَلَى حَجَـرٍ ذُبِحْنَا
جَرَى الدَّمَيَانُ بِالخَبَرِ اليَقِينِ .(١). .

وجعلت تتأوه فى غنائها كأنها تُذْبَحُ ذبحاً !! .

---

(١) ـ كانت العرب تزعم أنه إذا قُتِلَ اثنان فجرت دمائهما على طريقٍ واحدٍ ثم التقيا حُكِمَ عليهما أنهما كانا متحابين ؛ فإن لم يلتقيا حُكِمَ عليهما أنهما كانا متعاديين !! .

ثم وضعت العود جانباً ؛ وقالت : ما أشقانى !! ؛ إذ اتفقت لى ساعة زواجى فى غير وقتها !! ؛ فجاءت كالحُلم يأتى بخيال الزمن !! ؛ فلا يكون فيه من الأشياء إلا خيال الأشياء !! .

ثم سألتنى : ما بالك لم تشرب الخمر ولم تدخل فى الديوان ؟!!

فبدر شيطانى المؤمن ؛ وساق فى لسانى خبر أمى وأبى ؛ فانتضحت عيناها باكيةً !! ؛ وتَمَّ لها رأىٌ فىَّ كرأيى أنا فى المُسكر !! .

وكان شيطانها بعد ذلك شيطاناً خبيثاً مع أصحابها !! ؛ وبَطْرِيقاً زاهداً معى أنا وحدى !! .

ورأيتها لا تُجالسنى إلا متزايلة كالعذراء الخَفِرَة إذا انقبضت وغطَّت وجهها ؛ وصارت تخافنى لأنها تُحِبُّنى !! ؛ وَهَيَّبَنى الشيطان إليها !! ؛ فعادت لا ترى فىَّ الرَّجُل الذى هو تحت عينيها الثَّيِّبتين!! ؛ ولكن القديس الذى تحت قلبها البكر !! .

ولم يعد جمالى هو الذى يُعجبها ويُصبيها ؛ بل كان يُعجبها منِّى أنِّى صنعة فضيلتها التى لم تصنع شيئاً غيرى !! .

وانطلق الشيطان بعد ذلك فىَّ وفيها بدهائه وحنكته وبكل ما جَرَّبَ فى النساء والرجال من لَدُن آدم وحواء إلى يومى ويومها !! ؛ فكان يجذبنى إليها أشد الجذب !! ؛ ويدفعها عنِّى أقوى الدفع !! ؛ ثم يُغرينى بكل رذائلها ولا يغريها هى إلا بفضائلى !! ؛ وألقى منها فى دمى فكرة شهوة مجنونة مُتقلبة !! ؛ وألقى منِّى فى دمها فكرة حكمة رزينة مستقرة !! .

وكنت ألقاها كل يوم وأسمع غناءها ؛ فما هو بالغناء ولكنه صوت كل ما فيها لكل ما فيَّ !! ؛ حتى لو التصق جسمها بجسمى وسار البدنُ البدنَ، وَهَمَسَ الدَّمُ للدَّمِ، لكان هو هذا الغناء الذى تُغنِّيه !! .

وأصبحت كلما استقمتُ لِحُبِّها تَلَوَّتْ عَلَىَّ !! ؛ إذ لست عندها إلا الأمل فى المغفرة والثواب، وكأنما مُسِخْتُ حبلاً طوله من هنا إلى الجنَّة لتتعلق به !! .

وعاد امتناعها منِّى جنوناً دينيًّاً ما يفارقها !! ؛ فابتلانى هذا بمثل الجنون فى حُبِّها من كلف وشغف !! .

وانحصرت نفسى فيها !! ؛ فرجعت معها أشد غباوة من الجاهل ينظر إلى مَدِّ بصره من الأفق فيحكُم أن ههنا نهاية العالم !! ؛ وما ههنا إلا آخر بصره وأول جهله !! .

وانفلت منِّى زمام رُوحى !! ؛ وانكسر ميزان إرادتى !! ؛ واختل استواء فكرى !! ؛ فأصبحت إنساناً من النقائض المتعادية أجمع اليقين والشك فيه !! والحُبّ والبغض له !! ؛ والأمل والخيبة منه !! ؛ والرغبة والعزوف عنها !! ؛ وفى أَقَلِّ من هذا يُخْطَفُ العقل !! ؛ وَيَتَدَلَّهُ من يَتَدَلَّه !! .

ثم ابتُليت مع هذا اللَّمَم بجنون الغيظ من ابتذالها لأصحابها وعفَّتها معى !! ؛ فكنت أتطاير قطعاً بين السماء والأرض !! ؛ وأجد عليها وأتنكَّر لها !! ؛ وهى فى كل ذلك لا تزيدنى على حالة واحدة من الرهبانية !! ؛ فكان يطير بعقلى أن أرى جسمها ناراً مشتعلة !! ؛ ثم إذا أنا رُمته استحال ثلجاً !! ؛ وَقَرَّحَت الغيرة قلبى وفتَّتت كبدى من عابدة الشيطان مع الجميع !! ؛ الراهبة مع رَجُلٍ

واحد فقط !! .

ورجعت خواطرى فيها مما يعقل وما لا يعقل !! ؛ فكنت أرى بعضها كأنه راجع من سفر طويل عن حبيب فى آخر الدنيا !! ؛ وبعضها كأنه خارج من دار حبيب فى جوارى !! ؛ وبعضها كأنه ذاهب بى إلى المارستان !! .

ورأيتنا كأننا فى عالمين لا صلة بينهما !! ؛ ونحن معاً قلباً إلى قلب !! ؛ فذهب هذا بالبقية التى بقيت من عقلى !! ؛ ولم أر لى منجاة إلا فى قتل نفسى لأُزهق هذا الوحش الذى فيها !! .

وذهبت فابتعت شُعيرات من السُّمّ الوحىّ الذى يُعجِّل بالقتل !! ؛ وأخذتها فى كفى !! ؛ وهممت أن أُقمحها وأبتلعها !! ؛ فذكرت أمى !! ؛ فظهرت لخيالى مشدوخة الرأس فى هيئة موتها !! ؛ وإلى جانبها هذه المرأة فى هيئة جمالها !! وثبتت على عينى هذه الرُّؤيا !! ؛ وأدمنت النظر فيها طويلاً !! ؛ فإذا أنا رَجُلٌ آخر غير الأول !! ؛ وإذا المرأة غير تلك !! ؛ وطغت عبرة الموت على شهوة الحياة فمحتها !! ؛ وصحّ عندى من يومئذٍ أن لا علاج من هذا الحُبِّ إلا أن تقرن فى النفس صورة امرأة ميِّتة إلى صورة المرأة الحيَّة !! ؛ وكلما ذكرت هذه جئَ لها بتلك !! ؛ فإذا استمرَّ ذلك فإن الميِّتة تُميتها فى النفس وتُميت الشهوة إليها !! ؛ ما من ذلك بُد !! ؛ فليُجرِّبه من شَكَّ فيه !! .

وانفتح لى رأىٌ عجيب !! ؛ فجعلت أتأمَّل كيف آمن شيطانى ثم كفر بعد ؟!! على أن شيطانها هى كفر فى الأول ثم آمن فى الآخر ؟!!

فوالله ما كنت إلا غبيًّا خامد الفطنة !! ؛ إذ لم يسنح لى الصواب حتى كدت أُزهق نفسى وأخسر الدنيا والآخرة !! ؛ فإن الشيطان ـ لَعَنَهُ الله ـ إنما ردَّنى عن الفاحشة وهى ذنبٌ واحدٌ !! ؛ ليرمينى بعدها فى الذنوب كلها بالموت على الكُفر !! .

وردَّ إلىَّ هذا الخاطر ما عَزُب من عقلى ، ومن ابتُلىَ ببلاء شديد يزلزل يقينه ثم أبصر اليقين ؛ جاء منه شخصٌ كأنما خُلِقَ لساعته !! ؛ فلعنت شيطانى !! ؛ واستعذت بالله من مكره !! ؛ وألقيت السُّمَّ فى التُّراب وغيَّبته فيه !! .

وقلت لنفسى : ويحك يا نفس !! ؛ إن الحياة تعمل عملاً بالحىِّ !! ؛ أفترضين أن تعمل الحياة بأبطالها ورجالها ما عرفتِ وما علمتِ !! ؛ ثم يكون عملها بك أنت القعود ناحية والبُكاء على امرأة ؟!!

أيتها النفس !! ؛ ما الفرق بين سرقة لحم من دُكّان قصَّاب وبين سرقة لحم امرأة من دار أبيها أو زوجها أو مولاها ؟!!

أيتها النفس !! ؛ إن إيمان أسلافنا معنا ؛ إن الإسلام فى المُسلم !! .



قال المسيِّب :

وهنا طاش مجاهد واستخفَّه الطرب !! ؛ فصاح صيحة النصر : الله أكبر !! .

وجاوبه أهل المسجد فى صيحة واحدة : الله أكبر !! .

ولم يكد يهتف بها الناس حتى ارتفعت صيحة المُؤَذِّن لصلاة المغرب:

« اللهُ أَكْبَر »



.....

- المَقَالَةُ السَّادِسَة:

الإنتحـــار

- ﴿ ٦ ﴾ -



قال المُسيَّب بن رافع:

وانفضَّ مجلس الشيخ ، ودرجت بعده أعوام فى عِدَّةِ الشهور من حمل المرأة ؛ بلغت فيها أمور الناس مبلغها من خير الدُّنيا وشرِّها ، مما أعرف وما لا أعرف .

ودخلت البصرة أنا ومجاهد الأزدىُّ نسمع الحسن ونأخذ عنه .

فإنا لسائران يوماً فى سِكَّة بنى سَمُرَة ، إذ وافقنا الفتى صاحب النصرانية مُقبلاً علينا وكُنَّا فقدناه تلك المُدَّة !! .

فأسرع إليه مجاهد !! ؛ فالتزمه !! ؛ وقال : مرحباً بذى نسب إلى القلب !! .

وسلَّمت بعده وعانقته !! ؛ ثم أقبلنا نسأله ؛ فقُلت له : ما كان آخر أولك ؟!!

قال مجاهد : بل ما كان آخر أولها هى ؟!!

فضحك الرَّجُل!! ؛ وقال : النصرانية تعنى ؟!!

قال : آخرها من أولها كهذا منِّى ـ وأومأ إلى ظِلِّهِ فى الأرض ممدوداً مشبوحاً مُختلطاً غير مُتميِّز ؛ كأنه ثوب منشور ليس فيه لابسه ، وكُنَّا فى الساعة التى يصير فيها ظل كل شىء مثليه ؛ فهو مزج المسخ بالمسخ !! ـ .

قال مجاهد : ما أفظ جوابك وأثقله يا رَجُل !! ؛ كأنك والله تاجر لا صلة له بالأشياء إلا من أثمانها !! ؛ فنظره إلى فراهة الدابة من الدواب !! ؛ وإلى فراهة الجارية من الرقيق سواء !! .

قال الرَّجُل : فأنا والله تاجر !! ؛ وأنا الساعة على طريق الإيوان الذى يلتقى فيه تُجَّار العراق والشام وخراسان ، وقد ضربت فى هذه التجارات وحسُنت

بها حالى وَتَأَلَّمْتُ منها ؛ غير أن قلب التاجر غير التاجر ، فليس يزن ولا يقبض ، ولا يبيع ولا يشترى !! ؛ أما « تلك » فأصبحت نسياناً ذهب لسبيله فى الزمن !! .

قال مجاهد : فكيف كنت تراها ؟!! ؛ وكيف عدت تنظر إليها ؟!!

قال : كنت أنظر إليها بعينى وأفكارى وشهواتى !! ؛ فكانت بذلك أكثر من نفسها ومن النساء !! ؛ وكانت ألواناً ما تنقضى !! ؛ فلمَّا دخل بينى وبينها الزمن والعقل ؛ أبعدها هذا عن قلبى ؛ وأبعدها ذاك عن خيالى ؛ فنظرت إليها بعينىَّ وحدهما ؛ فرجعت امرأة ككل امرأة !! ؛ وبنزولها من نفسى هذه المنزلة رجعت أقل من نفسها ومن النساء !! ؛ وهذه القِلَّةُ فيما عرفت لا تصيب امرأة عند مُحِبِّها إلا فعلت بجمالها مثل ما تفعله الشيخوخة بجسمها !! ؛ فأدبرت به !! ؛ ثم أدبرت !! ؛ واستمرت تدبر !! .

وأنت فإذا أبصرت امرأةً شيخةً قد ذهبت التى كانت فيها ؛ وأخطرت فى ذهنك نيَّةً مما بين الرجال والنساء ، فهل تُراك واجداً الشهوة والميل إلا النُّفْرة والمعصية ؟!!

إن هذا الذى كان الحُبُّ والهوى والعشق ؛ هو بعينه الذى صار الإثم والذنب والضلالة !! .

قال مجاهد : كأنك لما ذهبت تقتل نفسك من حُبِّها قتلتها هى فى نفسك ؟!!

قال : يا رحمة قد رُحمت بها نفسى يومئذ !! ؛ أما والله إن الذى يقتل نفسه من حُبِّ امرأةٍ لغبىٌّ !! ؛ ويحه !! ؛ فليتخلَّص من هذا الجزء من الحياة لا من

الحياة نفسها !! .

وقد جعل الله للحُب طرفين : أحدهما فى اللذة ، والآخر فى الحماقة ؛ ما منهما بُد !! ؛ فهذا الحُبُّ يُلقى صاحبه فى الأحلام ؛ ويغشى بها على بصره ، ثم إن هو اتجه بطرفه السعيد إلى حظِّه المُقبل واتفقت اللذّة للمُحِب ، أيقظته اللذة من أحلامه ؛ وإن اتجه الحُبُّ بطرفه الشقىِّ إلى حظّه المُدبر ، وقعت الحماقات فنوناً شتى بين الحبيبين !! ؛ وفعلت آخراً فعل اللذة !! ؛ فأيقظت العاشق من أحلامه أيضاً!! ؛ وهذا تدبير من الرحمة فى تلك القوة المدمرة المُسمَّاة الحُب !! ؛ أفلا يَدُلُّ ذلك على أن اللذة وهمٌ من الأوهام مادام تحققها هو فناءها ؟!! ؛ خذ عنِّى يا مجاهد هذه الكلمة :

« ليس الكمال من الدنيا ولا فى طبيعتها ، ولا هو شئٌ يُدْرَك ؛ ولكنَّ من عظمة الكمال أن استمرار العمل له هو إدراكه » .

قال مجاهد : لقد علمت بعدنا علماً !! ؛ فمن أين لك هذا وعمَّن أخذت ؟!!

قال : عن السماء !! .

قال : ويلك !! ؛ أين عقلك ؟!! ؛ فهل نزل عليك الوحى ؟!!

قال الرَّجُل : لا !! ؛ ولكن تعاليا معى إلى الدَّار فأُحدِّثكما .



قال المُسيَّب :

وذهبنا معه ؛ فأتينا بطعام نظيف ؛ فأكلنا ، وأشعرتنا الدار أن ربَّها قد وقع فيما

شاء من دنياه وتواصلت عليه النِّعمة !! .

فلمَّا غسلنا أيدينا قال مجاهد : هيه يا أبا ؟!! ؛ يا أبا من ؟!!

قال : أبو عُبَيْد .

قال : هيه يا أبا عُبَيْد !! .

فأفكر الرَّجُل ساعةً ثم قال :

عهدكما بى مُنْذُ تسع فى مجلس الإمام الشعبىِّ بالكوفة ؛ وقد كنت فى بقية من النِّعمة أتجمَّل بها ، وكانت تمسكنى على موضعى فى أعين الناس ؛ فما زالت تلك البقية تَدِقُّ وتنفضُّ حتى نكد عيشى ووقعتُ فى الأيام المقعدة التى لا تمشى بصاحبها !! ؛ وانقلب الزمن كالعدو المُغِير جاء ليصطلم ويُخرِّب ويُفسد !! ؛ فأثر فىَّ أقبح آثاره !! ؛ فبعت ما بقى لى !! ؛ وتحملت عن الكوفة إلى البصرة ، وقلت : إن لم تتغيَّر حالى تغيَّرت نفسى ، ولا أكون فى البصرة قد انتهيتُ إلى الفقر ، بل أكون قد بدأت من الفقر كما يبدأ غيرى ، وأدع الماضى فى مكانه وأمضى إلى ما يستقبلنى .

فالتمست رُفقة ؛ فالتأمنا عشرين رَجُلاً .

فلمَّا كُنَّا فى الطريق ، سلبنا اللصوص وحازوا القافلة وما تحويه !! ؛ ونجوت أنا راكباً فرسى وَعُمْرى !! ؛ وأدركت حينئذٍ أن الحياة وحدها مُلْكٌ عظيم !! ؛ وأنها هى الأداة الإلهيَّة ، والباقى كُلّه هو من أنفسنا لأنفسنا ؛ والأمر فيه هَيِّنٌ ؛ والخطب يسير .

وقلت : لو أن اللصوص قد مروا بنا كما يمر الناس بالناس لما نكبونا ، ولكنهم عرضوا لنا عروض اللص للمال والمتاع لا للناس ، فوضعوا فينا الأيدى الناهبة ؛ ومن هذا أدركت أن ليس الشر إلا حالة يتلبّس بها من يستطيع أن يتخلّص منها .

فإذا كان ذلك فأصل السعادة فى الإنسان ألا يعبأ بهذه الحالات متى عرضت له ، وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا تمثّل الشر كما يراه واقعاً فى غيره ؛ فالمرأة العفيفة إذا عرضت لها حالة من الفجور ونظرت إلى نفسها وحظِّ نفسها ؛ فقد تعمى وتَزِل ؛ ولكنها إذا نظرت إلى ذلك فى غيرها ، وإلى أثره على الفاجرة ؛ كانت كأنما زادت على نفسها نفساً أخرى تريها الأشياء مجردة كما هى فى حقائقها !! .

قال :

ومضيت على وجهى تتقاذفنى البقاع والأمكنة !! ؛ وأنا أُعانى الأرض والسماء !! ؛ وأخشى الليل والنهار !! ؛ وأُكابد الألم والجوع !! ؛ حتى دخلت البصرة دخول البعير الرازح قطع الصحراء تأكل منه ولا يأكل منها فأنضاه السفر وحسره الكلال وَنَحَتَهُ الثِّقل الذى يحمله ؛ فجاء ببنيةٍ غير التى كان قد خرج بها !! .

وكانت أيامى هذه عُمراً كاملاً من الشقاء !! ؛ جعلنى أُوقن أن هؤلاء الناس فى الحياة إن هُم إلا كالدواب تحت أحمالها !! ؛ لا تختار الدابة ما تحمل ولا

من تحمل ، ولا يُترك لها مع هـذا أن تختار الطريق ولا مُـدَّة السير؛ وليس للدابة إلا شيئان : صبرها ؛ وقُوتها ؛ إن فقدتهما هلكت ، وإن وهنا فيها كان ضعفها بحسب ذلك .

إن هناك أوقاتاً من الشقاء والبؤس تقذف بالإنسان وراء إنسانيته وإنسانية البشر جميعاً ، لا تُبالي كيف وقع وفى أىِّ وادٍ هلك ، فلا ينفع الإنسان حينئذٍ إلا أن يعتصم بأخلاق الحيوان ، فى مثل رضاه الذى هو أحكم الحكمة فى تلك الحال ، وصبره الذى هو أقوى القوة ، وقناعته التى هى أغنى الغنى ، وجهله الذى هو أعلم العلم ، وتوكُّله الذى هو إيمان فطرته بفطرته ، لا يُبالى الحيوان مالاً ، ولا نعيماً ، ولا متاعاً ، ولا منزلةً ، ولا حظّاً ، ولا جاهاً ، ولن تجد حمار الملك يعرف من الملك أكثر مما يعرف حمار السقّاء من السقّاء ، ولعلك لو سألتهما وأطاقا الجواب ؛ لقال لك الأول : إن الـذى فـوق ظهرى ثقيل مقيت بغيض !! ؛ ولقال لك الثانى : إن الذى يركبه خفيف سهل سمح !! ؛ ولكن بلاء الإنسان أنه حين يُطوِّحه البؤس والشقاء وراء الإنسانية لا ينظر لغير الناس ؛ فيزيده ذلك بؤساً وحسرة !! ؛ ويمحق فى نفسه ما بقىَ من الصبر !! ؛ ويقلب رضاه غيظاً !! ؛ وقناعته سُخطاً !! ؛ ويبتليه كل ذلك بالفكرة المهلكة أعجزها أن تُهلك أحداً فلا تجد من تدمره غير صاحبها !! ؛ فإذا هى وجدت مساغاً إلى الناس فأهلكت وعاثت وأفسدت ؛ فجعلت صاحبها إما لصّاً أو قاتلاً أو مجُرماً !! ؛ أىّ ذلك تيسَّر !! .



قال :

وكنت أعرف فى البصرة فلاناً التاجر من سُراتها ووجوه أهلها ؛ فاستطرقته ؛ فإذا هو قد تحوَّل إلى خُراسان !! ؛ وليس يعرفنى أحد فى البصرة ولا أعرف أحداً غيره !! ؛ فكأنما نُكِبْتُ مرة ثانية بغارةِ شرٍّ من تلك !! ؛ غير أنها قطعت علىَّ فى هذه المرة طريق أيامى !! ؛ وسلبتنى آخر ما بقىَ لنفسى !! ؛ وهو الأمل !! ؛ ورأيت أنه ما من نزولى إلى الأرض بُد !! ؛ فأكون فيها إنساناً كالدابة أو الحشرة !! : حياتها ما اتفق !! ؛ لا ما تريد أن يتفق !! ؛ وأنه لا رأى إلا أن أسخر من الشهوات فأزهد فيها وأنا القوىُّ الكريم قبل أن تسخر هى منِّى إذ جئتها وأنا الطامع العاجز !! ؛ وفى الأرض كفاية كل ما عليها ومن عليها ، ولكن بطريقتها هى لا بطريقة الناس ؛ ومادامت هذه الدنيا قائمة على التغيير والتبديل وتحول شىء إلى شئ ، فهذا الظبى الذي يأكله الأسد لا تعرف الأرض أنه قد أُكِلَ ولا أنه افْتُرِسَ وَمُزِّقَ ؛ بل هو عندها قد تحوَّل قوة فى شئ آخر ومضى ؛ أما عند الناس فذلك خطب طويل فى حكاية أوهام من الخوف والوجل !! ؛ كما لو اخترعت قصة خرافية تحكيها عن أسد قد زرع لحماً !! ؛ فتعهَّده !! ؛ فأنبته !! ؛ فحصده !! ؛ فأكله !! ؛ فذهب الزرع يحتج على آكله !! ؛ وجعل يشكو ويقول : ليس لهذا زرعتنى أنت !! ؛ وليس لهذا خرجت أنا تحت الشمس !! ؛ وليس من أجل هذا طلعت الشمس علىَّ وعليك !! .

والإنسان يرى بعينيه هذا التغيير واقعاً فى الإنسانية عامَّتها ؛ وفى الأشياء جميعها ؛ فإذا وقع فيه هو ضَجَّ وسخط كأن له حقّاً ليس لأحد غيره !! ؛ وهذا هو العجيب فى قصة بنى آدم !! ؛ فلا يزال فيها على الأرض كلمات من الجنَّة لا تُقال هنا ولا تُفهم هنا ؛ بل مَحِلُّ الاعتراض بها حين يكون الإنسان خالداً لا يقع فيه التغيير والتبديل ؛ ومن هذا كان خيال اللذة فى الأرض هو دائماً باعث الحماقة الإنسانية .

قال أبو عُبَيْد :

وذهبتُ أعتمل بيدى وجسمى على آلام من الفاقة والضُّر!! ؛ ومن الخيبة والإخفاق !! ؛ ومن إلجاء المسكنة !! ؛ وإحواج الخصاصة !! ؛ فلقد رأيتنى وإن يدى كيد العبد !! ؛ وظهرى كظهر الدابة !! ؛ ورجلى كرجل الأسير !! ؛ وعُنقى كعُنق المغلول !! ؛ ويطلع قُرص الشمس على الدنيا ويغيب عنها وما أعتمل إلا بقرص من الخبز !! ؛ ولقد رأيتنى أبذل فى صيانة كل قطرة من ماء وجهى سحابة من العرق حتى لا أسأل الناس !! ؛ ويا بؤساً لى إن سألت وإن لم أسأل !! .

وما كان يُمسكنى على هذه الحياة المُرَمَّقَة، تأتى رَمَقاً بعد رَمَق !! ؛ فى يوم بعد يوم !! : إلا كلام الشعبىِّ الذى سمعته فى مسجد الكوفة وقوله فيمن قتل نفسه ؛ فكان كلامه نوراً فى صدرى يُشرق منه كل يوم مع الصبح صبحٌ لإيمانى !! ؛ ولكن بقيت أيَّام نعمتى الأولى ولها فى نفسى ضربان من الوجع كالذى يجده المجروح فى جُرحه إذا ضُرِبَ عليه !! ؛ فكان الشيطان لا يجد

منفذاً إلىَّ إلا منها !! .

وفقدت الصديق وعونه !! ؛ فما كان يُقبل علىَّ صديق إلا فى أحلامى من وراء الزمن الأول !! .



قال مجاهد : والحبيب ؟!!

فتبسَّم الرَّجُل !! ؛ وقال : إذا فرغت الحياة من الذى هو أقل من الممكن ؛ فكيف يكون فيها الذى هو أكثر من الممكن ؟!!

إن جوع يوم واحد يجعل هذه الحياة حقيقة جافية لا شِعْرَ فيها !! ؛ ويترك الزمن وما فيه ساعة واحدة معطرة !! ؛ والبؤس يقظة مؤلمة فى القلب الإنسانى تحرم عليه الأحلام !! ؛ وما الحُبُّ من أوله إلى آخره إلا أحلام القلوب بعضها ببعض !! .



قَالَ أَبُو عُبَيْد :

وَتَضَعْضَعْتُ لهذه الحياة المُخزية !! ؛ وأبرمتنى أيَّامها !! ؛ وحملتُ فىَّ المَيِّتَ والحىَّ !! ؛ ورأيت الشيطان - لَعَنَهُ الله - كأنما اتخذنى وعاء مُطَّرَحَاً على طريقه يُلقى فيه القُمامة !! ؛ وظهر لى قلبى فى وساوسه كالمدينة الخربة ضربها الوباء !! ؛ فأعمرُ ما فيها مقبرتها !! ؛ وعاد البؤسُ وَقَاحَ الوجهِ لا يستحيى !! ؛

فلا أراه إلا فى أرذل أشكاله وأبردها !! ؛ ولقد يكون البؤس لبعض الناس على شىء من الحياء فيأتى فى أسلوب مُعتذر كالمرأة الدميمة فى نقابها !! .

وقُلتُ لنفسى :

ما هو ـ والله ـ إلا القتل !! ؛ فهذا عُمُرٌ أراه كالأسير أُقِيمَ على النِّطْع وَسُلَّ عليه السيف !! ؛ فما ينتقم منه المُنتقم بأفظع من تأخير الضربة !! ؛ وما يرحمه الرَّاحم بأحسن من تعجيلها !! .

وَيتُ أؤامر هذه النفس فى قتلها !! ؛ وأُحدِّثها حديث الموت !! ؛ فسدَّدَت رأيى فيه !! ؛ وقالت : ما تصنع بجسم كالمُتعفِّن أصبح كالمقبور لا أيَّام له إلا أيَّام انقراضه وتفتيته ؟!!

بَيْدَ أنِّى ذكرت كلام الشعبىِّ فى ذلك المجلس ـ وأنا أحفظه كُلّه ـ ؛ فجعلت أهُذُّهُ ما أترك منه حرفاً ، واتخذته مُتكلِّماً مع نفسى لا كلاماً !! ؛ كنت كلما غلبنى الضعف رفعت به صوتى وأصغيت كما أُصغى إلى إنسان يُكلِّمُنى !! ؛ فرأيت الشيطان بعد ذلك كاللص إذا طمع فى رَجُلٍ ضعيفٍ مُنفرد !! ؛ ثم لمَّا جاءه وجد معه رَجُلاً ثانياً قوياً فهرب !! .

قال أبو عُبَيْد :

ونالني رَوْحٌ من الاطمئنان وجدت له السكينة فى قلبى فنمت ؛ فإذا الفزع الأكبر الذى لا ينساه من سمع به !! ؛ فكيف الذى رآه بعينيه ؟!!

رأيتني ميِّتاً في يد غاسله يقلبه ويغسله كأنه خِرقة !! ؛ ثم حُمِلتُ على النعش كأن الحاملين قد رفعوني يقولون : انظروا أيُّها الناس كيف يصير الناس ؟!! ؛ ثم صلَّى عليَّ الإمام الشعبيُّ في مسجد الكوفة ؛ ثم دُلِّيتُ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ وَهِيلَ التراب عليَّ !! ؛ وَتُرِكْتُ وحيداً !!... ؛ وانصرفوا !!.

وما أدرى كم بقيت على ذلك ؟!!

ثم رأيت كأنما نُفِخَ في الصور وبُعثرت الأموات جميعاً !! ؛ فطرنا في الفضاء !! ؛ وكانت النُّجُوم غُباراً حولنا كتراب العاصفة في العاصفة !! ؛ وإذا نحن في عرصات القيامة !! ؛ وفي هول الموقف !! .

وتوجَّهت بكُلِّ شعرة في جسمي إلى الرجاء في رحمة الله !! ؛ ورأيت أعمالي رؤيةً أحزنتني !! ؛ فهي كمدينةٍ عظيمةٍ كل أهلها صعاليك إلا قليلاً من المستورين !! ؛ أرى منهم الواحد بعد الواحد في الساعة بعد الساعة ؛ ندروا وتبعثروا وضاعوا كأعمالي الصالحة !! .

وذكرت أنِّي كدت أقتل نفسي فراراً بها من العمر المؤلم !! ؛ فنظرت فإذا الزمن قد ظهر في أبديَّته !! ؛ ورجع الماضي حاضراً بكُلِّ ما حوى كأنه لم يمض !! ؛ وإذا عمري كُلّه لا يكاد يبلغ طرفة عين من دهر طويل !! ؛ فحمدت الله أن لم أفتد ألم اللحظة القصيرة القصيرة بعذاب الأبد الخالد الخالد الخالد !! .

وَجِيءَ على أعين الخلق بأنعم أهل الدنيا وأكثرهم لذات في تاريخ الدنيا كُلّه !! ؛ فصاح صائح : هذا أنعم من كان على الأرض مُنْذُ خلقها الله إلى أن

طواها !! .

ثم غُمِسَ هذ المُنَعَّمُ فى النَّار غمسة خفيفة كنبضة البرق !! ؛ وأُخرج إلى المحشر !! ؛ وقيل له والناس جميعاً يسمعون : هل ذُقت نعيماً قط ؟!!

قال : لا والله !! .

ثم جِيءَ بأتعس أهل الأرض وأشدِّهم بُؤساً مُنذُ خُلِقَت الأرض !! ؛ فَغُمِسَ فى الجنَّة غمسة أسرع من النَّسيم تحرك وَمَرَّ !! ؛ ثم أُخرج إلى المحشر وقيل له : هل ذُقت بُؤساً قط ؟!!

قال : لا والله !! .

وسمعنا شهيق جهنم وهى تفور تكاد تَمَيَّزُ من الغيظ !! ؛ فأيقنت أن لها نفساً خُلِقَت من غضب الله ! ؛ وخرج منها عُنُقٌ عظيمٌ هائلٌ ! ؛ لو تضرَّمت السماء كلها ناراً لأشبهته !! ؛ فجعل يلتقط صنفاً صنفاً من الخلق !! ؛ وبدأ بالملوك الجبابرة فالتقطهم مرة واحدة كالمغناطيس لتراب الحديد !! ؛ وقذف بهم إلى النَّار !! ؛ ثم انبعث فالتقط الأغنياء المُفسدين فأطارهم إليها !! ؛ ثم جعل يأخذ قوماً قوماً !! ؛ وقد ألجمنى العرق من الفزع !! ؛ ثم طرت أنا فيه !! ؛ ونظرت !! ؛ فإذا أنا محتبس فى مُظلمة نارية كالهاوية !! ؛ ليس حولى فيها إلا قاتلو أنفسهم !! ؛ ولو أن بحار الأرض جُعِلَ فيها البحر فوق البحر فوق البحر إلى أن تجتمع كلها فيكون العمق كبعد ما بين الأرض والسماء ثم تُسجر نار تلظَّى لكانت هى الهاوية التى نحن فى أعماقها !! ؛ وكنت سمعت من إمامنا الشعبىِّ : أن عُصاة المؤمنين المُوحِّدين إذا ماتوا على إيمانهم كانوا فى النار

أحياء وجوارحهم موتى !! ؛ لأن هذه الجوارح قد أطاعت الله وسبَّحته فكُرِّمت بذلك حتى على جهنَّم !! ؛ ثم يُعذَّبون عذاباً فيه الرَّحمة ؛ ثم يخرجون وينتظرهم إيمانهم على باب النار ؛ فكان إلى جانبي رَجُلٌ قتل نفسه ، فسمع قائلاً من بعيد يقول للمؤمن : اخرج فإن إيمانك ينتظرك !! ؛ فصاح الذى إلى جانبى : وأنا!! ؛ أفلا ينتظرنى إيمانى ؟!!

فقيل له : وهل جئت به ؟!!

ورأيتُ رَجُلاً ذبح نفسه يريد أن يصرخ يسأل الله الرحمة !! ؛ فلا يخرج الصَّوت من حلقه !! ؛ إذ كان قد فراه وبقىَ مَفْرِيّاً !! .

وأبصرت آخر قد طعن فى قلبه بِمُدية !! ؛ فهو هناك تسلخ الزبانية قلبه تبحث هل فيه نيَّة صالحة ؟!! ؛ فلا تزال تسلخ!! ؛ ولا تزال تبحث !! .

ورأيت آخر كان تَحَسَّى من السُّمِّ فمات ظمآن يتلظى جوفه !! ؛ فلا تزال تنشأ له فى النار سحابةٌ رَوِيَّةٌ تبرق بالماء !! ؛ فإذا دنت منه ورجاها !! ؛ انفجرت عليه بالصواعق!! ؛ ثم عادت تنشأ وتنفجر !! .

وقال رَجُل : إنما كنت مجنوناً ضعيفاً عاجزًا فأزهقت نفسى ؟!!

فنُودى : أوما علمت أن الله يحاسبك على أنك عاقل لا مجنون ؟!! ؛ وقوىٌّ لا ضعيف ؟!! ؛ وقادرٌ لا عاجز ؟!! ؛ كنت تعقل بالأقل أنك ستموت ؟!! ؛ وكنت تقوى على أن تصبر ؟!! ؛ وكنت تقدر أن تترك الشر ؟!!

وقال رَجُلٌ عالمٌ قد حَزَّ فى يده بسكين فمات :

« لم يكن الكمال من الدنيا ولا فى طبيعتها ولا هو شىءٌ يُدرك !! » !! .

فصرخ فيه صوتٌ رهيبٌ !! :

« ولكن من عظمة الكمال أن استمرار العمل له هو إدراكه !! » !! .



قال أبو عُبَيْد :

ثم انتصب بإزائى شيطان مارد أحمر يلتمع التماع الزجاج فيه الخمر !! ؛ فقام فى وجهى !! ؛ وقال : بماذا جئت إلى هُنا يا عدو الخمر ؟!!

فما كان إلا أن سمعت النداء :

شَفَعَتْ فيك الخمر التى لم تشربها !! ؛ اخرج إن إيمانك ينتظرك !! .

فصحتُ : الحمد لله !! ؛ وتحرَّك بها لسانى !! ؛ فانتبهت !! .

لقد علمت أن الصبر على المصائب نعمةٌ كُبرى !! ؛ لا يُنعم الله بها إلا فى المصائب !! .

.....

رَسَائِلُ الدَّم



رَسَائِلُ الدَّم

رَسَائِلٌ كُتِبَت بِمِدَادِ الحَسْرَةِ وَالأَلَم !!... ؛ وَزَادَ مِن نِيرَانِ حُزْنِهَا !!... ؛ أَنَّهَا كُتِبَت عَلَى ذِكْرَى فَتَاةٍ كُنْتُ أُضَحِّى بِعُمْرِى مِن أَجْلِهَا لَو دَفَعَتْنِى الأَقْدَارُ إِلَى ذَلِك !! ... ؛ رَحَلَت ... ؛ وَمَا زَالَت هَاهُنَا !! ... ؛ تَسْكُنُ فِى فُؤَادِى !!

مَقَالاتٌ فِى فَلْسَفَةِ الحُبِّ وَالجَمَال

محمد محمود دحروج

الشَّهِير بـ: « نِزَار شَاهِين المِصْرِى »



.....

٥ـ فَاتِحَة

.....

ابْنَةُ بَلْدَتِى القَدِيمَة !!... ؛ إِنَّهَا الفَتَاةُ السَّمْرَاءُ الَّتِى كَانَت مَصْدَرَ الإِلْهَامِ لِلشُّرُوعِ فِى تَدْبِيجِ هَذِهِ الرَّسَائِلِ !!... ؛ وَكَانَ مِمَّا صَوَّرَهُ لَنَا الخَيَالُ أَنَّنِى سَأُكْمِلُ هَذِهِ الرَّسَائِلَ عَلَى ذَاتِ المَنْحَى الَّذِى كَتَبْتُ بِهِ رَسَائِلِى الأُولَى ؛ تِلْكَ الَّتِى نَشَرْتُهَا فِى العَامِ المَاضِى لِتَكُونَ بِمَثَابَةِ الطَّلِيعَةِ لِمَا سَيَأْتِى بَعْدُ ؛ هَكَذَا كَانَ الظَّنُّ ... ؛ وَلَكِن بِانْصِرَامِ عَامٍ كَامِلٍ عَلَى قِصَّتِى مَعَ هَذِهِ الفَتَاة ؛ وَمَجِىءِ أَحْدَاثٍ وَمَشَاهِدٍ وَتَجَارِبٍ وَأُمُورٍ كَثِيرَةٍ شَتَّى !!... ؛ فَقَد تَغَيَّرَت النَّفْس !! ؛ وَتَبَدَّلَ الحَال !! ؛ وَهَجَمَت عَلَى مَسِيرَةِ حَيَاتِى خُطُوبٌ وَصُرُوفٌ رَهِيبَةٌ أَبَت أَن يَظَلَّ الوُجْدَانُ عَلَى حَالَتِهِ الَّتِى كَانَ بِهَا يَوْمَ أَن كَانَت الدُّنْيَا كُلُّهَا تَدُورُ فِى فَلَكِ الفَتَاةِ السَّمْرَاء !!... ؛ وَرَحِمَ اللهُ أَبَا العَلاء :

تَقِفُونَ ؛ وَالفُلْكُ المُسَخَّرُ دَائِرٌ

وَتُقَدِّرُونَ ... ؛ فَتَضْحَكُ الأَقْدَارُ !!

مِنَ العَسِيرِ أَن تُخَيِّلَ لِى نَفْسِى أَنَّنِى قَد نَسِيتُ أَو تَنَاسَيْتُ ذَلِكَ الَّذِى كَانَ فِى العَامِ الَّذِى وَلَّى !!... ؛ وَلَكِنِّى كُنْتُ يَوْمَهَا إِنْسَانٌ يَحْيَا بِعَقْلٍ وَنَفْسٍ وَخَيَالٍ ؛ وَأَنَا اليَوْمَ إِنْسَانٌ آخَر !!.

كُنْتُ فِى إِبَّانِ هَذِهِ الأَيَّامِ أَحْيَا بِعَقْلِ الأَدِيبِ الَّذِى لا يَرَى سِوَى كَوْنِهِ يَقْدِرُ

عَلَى خَوْضِ كُلِّ أَمْرٍ مِن أُمُورِ الحَيَاةِ الحِسِّيَّةِ وَالعَاطِفِيَّةِ ؛ وَأَنَا اليَوْمَ أَحْيَا بِعَقْلٍ مَأْسُورٍ لا يَعْرِفُ غَيْرَ حُدُودِ دَائِرَةِ اليَرَاعِ وَالمِدَادِ وَالطُّرُوس !!.

كُنْتُ أَعِيشُ بِنَفْسِ أَمِيرٍ مِن أُمَرَاءِ اللُّغَةِ وَالبَيَان ؛ لَم يُبَلَّ غَلِيلُهُ مِن حِكَايَاتِ الحَيَاةِ وَأَقَاصِيصِهَا وَاقْتِحَامِ مَجَاهِيلِهَا ؛ وَأَنَا اليَوْمَ لا أَرْجُو سِوَى العَيْشِ فِي عُزْلَتِي وَسْطَ رِحَابِ الصَّمْتِ وَالسَّكِينَةِ وَالتَّأَمُّلِ !!.

كُنْتُ أَسْعَى عَلَى دُرُوبِ أَيَّامِي بِخَيَالِ الشَّاعِرِ الحَالِمِ ؛ وَهَا أَنَا الآنَ اليَوْمَ أَرْقُبُ خَيَالِي وَهُوَ يُحَلِّقُ مُرْغَمًا فِي عَالَمٍ سَوْدَاوِيٍّ كَئِيب !!.

وَلِذَا ؛ فَقَد غَدَوْتُ إِنْسَانًا لَيْسَ هُوَ الَّذِي كُنْتُ أَعْرِفُهُ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ الَّتِي قَد خَلَت !!.

فَإِن رَأَيْتَ الرَّسَائِلَ الَّتِي كُنْتُ كَتَبْتُهَا وَنَشَرْتُهَا عَلَى النَّاسِ فِي ذَلِكَ العَامِ الَّذِي قَد مَضَى ؛ فَاعْلَم أَنَّهَا حَدِيثُ نَفْسٍ كَانَت لَهَا فُنُونٌ وَشُجُون !!... ؛ ثُمَّ مَاتَت هَذِهِ النَّفْسُ وَوُلِدَت نَفْسٌ جَدِيدَةٌ جَاءَت رَسَائِلُهَا الَّتِي سَتَرَاهَا عُقَيْبَ القَدِيمَةِ العَتِيقَةِ لِتُعَبِّرَ عَن آرَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَفْكَارٍ وَفُنُون ؛ وَعَن هُمُومٍ مُسْتَحْدَثَةٍ وَشُجُون ؛ وَعَن طَيْشٍ وَتَهَجُّمٍ بَغِيضٍ وَجُنُون !!.

نَعَم !!... ؛ سَتَرَى كَيْفَ عَمِلَت الحَوَادِثُ الَّتِي قَذَفَت بِهَا أَقْدَارُ مَا بَعْدَ عَهْدِ كِتَابَةِ الرَّسَائِلِ الأُولَى عَمَلَهَا فِي صِنَاعَةِ فِكْرٍ غَرِيبٍ مِن جُثَّةِ الفِكْرِ التُّرَاثِيِّ المَعْهُودِ الَّذِي عَاشَ لِسَنَوَاتٍ وَسَنَوَات ؛ وَمَا كَانَ مَثَلُ ذَلِكَ إِلاَّ كَمَثَلِ الوَرَقَةِ الخَضْرَاءِ الَّتِي أَذْبَلَهَا الخَرِيفُ ثُمَّ جَاءَت رِيَاحُهُ فَانْتَزَعَتْهَا مِن غُصْنِهَا وَطَوَّحَت بِهَا بَعِيدًا ؛ ثُمَّ دَارَت عَلَيْهَا الأَيَّامُ فَصَيَّرَتْهَا مُصْفَرَّةً هَشَّةً مُتَآكِلَةً ؛

فَمَا كَانَ مِنَ الطَّبِيعَةِ إلاَّ أَن أَتَت لِتَقُومَ بِدَوْرِهَا فِى تَحْوِيلِ الوَرَقَةِ المُحْتَضِرَةِ إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى مِن صُورِ الحَيَاة ؛ وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الأُولَى وَالثَّانِيَة !!.

تِلْكَ هِيَ قِصَّةُ هَذِهِ الرَّسَائِل !!.

محمد محمود دحروج

«نِزَار شَاهِين المِصْرِى»



.....

- بَيْنَ يَدَى هَذِهِ الرَّسَائل :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحُبُّ !!... ؛ النَّفسُ الشَّاعِرِيَّة !!... ؛ إِذَا مَا اجْتَمَعَا فِى قَلْبٍ وَاحِدٍ !!... ؛ تَخَلَّى الكَوْنُ عَن حَقَائِقِهِ وَمُسَلَّمَاتِهِ !!... ؛ وَأَصْبَحَ صَوْتُ العِشْقِ وَالهَوَى هُوَ النَّامُوسَ الأَكْبَرُ الَّذِى يَحْكُمُ هَذِهِ الحَيَاة !!... ؛ وَصَمَتَ الوُجُودُ كُلُّهُ ؛ فَلا تُسْمَعُ إِلاَّ خَفَقَاتُ قَلْبِهِ ؛ وَأَنَّاتُ رُوحِهِ ؛ وَكَلِمَاتُ ضَمِيرِهِ المُضْطَرِبَةِ البَرِيئَةِ الصَّادِقَةِ !!... ؛ أَيَّامٌ هِىَ فِى عُرْفِ أَهْلِ الصَّبَابَةِ دَهْرٌ !!... ؛ تَتَخَاذَلُ أَمَامَهُ كَافَّةُ الأَحْقَابِ وَالدُّهُور!!... ؛ وَتَارِيخٌ !!... ؛ يَتَلاشَى عِنْدَهُ تَارِيخُ عَبَاقِرَةِ هَذِهِ الأَرْض !!... ؛ فَالعِشْقُ هُوَ جَوْهَرُ العَبْقَرِيَّةِ ... ؛ وَالحُبُّ هُوَ سِرُّ النُّفُوسِ المَلائِكِيَّةِ ... ؛ لا شِعْرُ الشُّعَرَاء ؛ وَلا إِبْدَاعُ الكُتَّابِ وَالأُدَبَاء ... ؛ أَدْرَكَ كُنْهَ هَذِهِ العَاطِفَةِ الغَرِيبَةِ الرَّهِيبَةِ !!... ؛ لا الشُّعَرَاءُ الَّذِينَ مَاتُوا عِشْقًا... ؛ وَلا الأُدَبَاءُ الَّذِينَ قُتِلُوا شَوْقًا ... ؛ لا هَؤلاء !! ؛ وَلا أُولَئِك !!... ؛ كُلُّهُم رَحَلُوا وَهُم يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُم عَجَزُوا - رَغْم كَثْرَةِ مَا قَالُوا وَمَا كَتَبُوا - عَن وَصْفِ هَذَا الشَّىْءِ العَجِيبِ الَّذِى اسْتَعْبَدَ القُلُوبَ وَالعُقُول !!... ؛ حَاوَلْتُ كَثِيراً أَن أَضَعَ تَعْرِيفاً لِهَذَا المُصْطَلَحِ الشَّرِيف ... ؛ إِلاَّ أَنَّنِى عَجَزْتُ فِى كُلِّ مَرَّةٍ !!... ؛ لَقَد رُمْتُ تَعْرِيفَ مَالا يُعَرَّف ... ؛ وَجَاهَدتُ مِن أَجْلِ الوُصُولِ إِلَى ذَلِك ... ؛ فَإِذَا بِى كَمَن يَتَمَنَّى المُحَال!!... ؛ إِنَّهُ الحَقِيقَةُ المَجْهُولَةُ !!... ؛ نَعْرِفُهُ ... ؛ وَلَكِنَّنَا مَا أَدْرَكْنَا ذَاتَهُ ؛ وَمَا اكْتَشَفْنَا مَاهِيَّتَه !!... ؛ سُئِلْتُ كَثِيراً عَنِ العِشْقِ ؛ وَفِى كُلِّ مَرَّةٍ

كُنتُ أُعَبِّرُ عَنهُ بِألْفَاظٍ مُختَلِفَةٍ وَمَعَانٍ مُتَبَايِنَةٍ !!... ؛ قُلْتُ مَرَّةً : هُوَ صَفَاءُ الرُّوح ؛ وَنَقَاءُ السَّرِيرَة ؛ وَطَهَارَةُ الأَفْكَار ؛ وَجَمَالُ الخَيَال !! .

وَقُلْتُ مَرَّةً : هُوَ مَوْتُ الوَاقِع ؛ وَالعَيْشُ فِي عُيُونِ الحَبِيبَة !! .

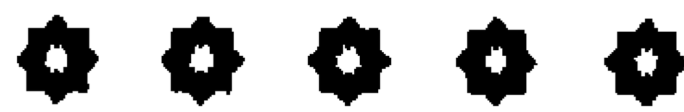
وَقُلْتُ مَرَّةً : هُوَ اسْتِعْبَادُ العَقْلِ لِلقَلْب ؛ وَخُضُوعُ الفِكْرِ لِلمَشَاعِرِ ؛ وَغِيَابُ الجَسَدِ وَحُضُورُ الرُّوح ؛ فَهُوَ أَسِيرُ العَاطِفَة ؛ تَأْمُرُهُ فَيُطِيع ؛ وَتَنْهَاهُ وَتَزْجُرُهُ فَيَنْتَهِي وَيَزْدَجِر ؛ تَخْتَفِي كُلُّ الكَلِمَات ؛ وَمَا يَبْقَى سِوَى صَدَى هَذِهِ الكَلِمَة ... ؛ الحُب !!.

وَقُلْتُ مَرَّةً : هُوَ الجُنُون !!... ؛ وَالجُنُونُ فُنُون !!... ؛ وَلِكُلِّ فَتًى مَذْهَب ... ؛ وَلِكُلِّ قَلْبٍ شَرِيعَة !!.

وَقُلْتُ مَرَّةً : هُوَ الحُزْنُ الَّذِي تَجَاوَزَ بِقُوَّةِ قَهْرِهِ كَافَّةَ الأَحْزَان ؛ وَهُوَ الأَلَمُ الَّذِي يُذِيبُ حَقِيقَةَ الإِنْسَان ؛ وَهُوَ الصَّمْتُ الَّذِي يُنَاجِي أَشْبَاحَ الرَّدَى وَالمَوْت !! .

وَقُلْتُ مَرَّةً : مَجْهُولٌ لا يُعْرَف ؛ فَكَيْفَ يُعَبَّرُ عَنْهُ أَو يُعَرَّف؟!!... ؛ مَارَسْنَا طُقُوسَهُ ... ؛ وَمَا عَرِفْنَا حَقِيقَتَه !!... ؛ فَهُوَ شَيْءٌ تَعْجَزُ عَنْهُ العُقُولُ وَالأَفْكَار ؛ وَتَتَقَاصَرُ دُونَهُ أَقْلامُ العُظَمَاءِ وَالعَبَاقِرَةِ ؛ حَتَّى وَلَو كَانَ المِدَادُ مِن نَار !! .

وَسَلَّمْتُ فِي النِّهَايَةِ بِصَوَابِ هَذَا الكَلام ؛ وَخَضَعْتُ بَعْدَ البَحْثِ وَطُولِ التَّجَارِيبِ ... ؛ لِهَذَا القَوْل !!.



رَسَائِلُ الدَّم

(هِبَه !!... ؛ ابْنَةُ بَلْدَتِي القَدِيمَة)

عُيُونٌ أشْعَلَت نِيرَانَ الحُبِّ فِي قَلْبِي بَعْدَ أن كُنْتُ ظَنَنْتُهَا قَد انْطَفَأت إلَى النِّهَايَة !!... ؛ جَاءَت مِن عَالَمِهَا البَاسِمِ الجَمِيل .... ؛ فَأنَارَت دُنْيَايَ المُظْلِمَة !!... ؛ أرَادَت وَأرَدتُ ... ؛ وَلَكِن كَانَ لِعَشِيرَتِهَا الكَلِمَةُ الأخِيرَة !! وَحَزِنَت هِي... ؛ أمَّا أنَا !! ؛ فَقَد تَحَوَّلَ دَمُ قَلْبِي إلَى دَمٍ أسْوَدٍ كَئِيب !!.... ؛ قَالُوا بِأنَّنِي لَن أرَاهَا بَعْدَ اليَوْم !! ؛ وَلَكِنِّي أقُولُ دَوْمَاً : مَا رَحَلَت وَمَا سَتَرْحَلُ أبَدَاً !! ؛ إنَّهَا هُنَا ... ؛ تَسْكُنُ فِي قَلْبِي ... ؛ إلَى يَوْمِ خَاتِمَتِي !!



.....

ـ الرِّسَالَةُ الأُولَى:

✿ ـ اللِّقَاءُ الأَوَّل

(مَا تَحَرَّكَ القَلْبُ وَمَا اضْطَرَب ؟!!)

كَم مِن فَتَاةٍ يَرَاهَا المَرْءُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ فَمَا يَتَحَرَّكُ قَلْبُهُ وَمَا يَضْطَرِبُ ؛ ثُمَّ يَأْتِى مَوْقِفٌ فَيَرَاهَا ؛ هِىَ هِىَ ؛ مَا تَغَيَّرَ شَىْءٌ ؛ مَا حَدَثَ مَا يَدْعُو لِتَعْظِيمِ الفِكْرِ أَو الوُجْدَان ؛ مَا مِن جَدِيدٍ فِى أَمْرِهَا ؛ وَلَكِن !!... ؛ وَلَكِن هَا هُنَا شَىْءٌ قَد حَدَثَ هَذِهِ المَرَّة !!... ؛ لِمَاذَا لَم أَشْعُر بِهَذَا فِى المَرَّةِ الأُولَى؟!! ؛ لَسْتُ أَدْرِى !! ... ؛ لَكِنِّى شَعُرْتُ بِأَنَّ قَلْبِى قَد سُرِق !!... ؛ رُوحِى قَد صَارَت عِنْدَهَا !! ... ؛ عَقْلِى مَا عَادَ يُفَكِّرُ فِى شَىْءٍ !!... ؛ مَا عَادَ يَبْحَثُ إِلاَّ عَنْهَا !!... ؛ غَرِيبَةٌ أَنْتِ يَا نَفْسِى !!... ؛ كُنْتُ أَقُولُ لِرِفَاقِى : أَنَا مَا أَحْبَبْتُ فَتَاةً قَط ؛ إِلاَّ وَفِيهَا تِلْكَ الشُّرُوطِ الَّتِى لا أَقْبَلُ سِوَاهَا مِن جِهَةِ الجَمَالِ المَادِىِّ المَرْئِىِّ المَحْسُوس ... ؛ وَهَكَذَا كَانَت ((أَسْمَاء)) ... ؛ وَهَكَذَا كَانَت ((مُنَى)) ... ؛ وَهَكَذَا كَانَت ((هِنْد)) ... ؛ أَمَّا ((هِبَه)) !!... ؛ فَهِىَ سَمْرَاء ؛ وَمَا أَحْبَبْتُ فَتَاةً سَمْرَاءَ اللَّوْنِ أَبَدًا ؛ نَعَم هِىَ تَمْلُكُ القَسَمَاتِ الَّتِى أَهْوَاهَا ؛ وَمَلامِحُ وَجْهِهَا هِىَ تِلْكَ المَلامِحِ الَّتِى تَرُوقُنِى ؛ وَلَكِنَّهَا لَيْسَت فِى دَرَجَةِ جَمَالٍ وَاحِدَةٍ مِمَّن ذَكَرْت ؛ حَتَّى ((مَنَال)) كَانَت أَوْسَمُ مِن ((هِبَه)) ؛ إِلاَّ أَنَّهَا كَانَت نَحِيلَةً ضَعِيفَةً ؛ وَكَانَ هَذَا هُوَ عَيْبُهَا المَادِىُّ الجَسَدِىُّ الوَحِيد ... ؛ إِذَن فَلِمَاذَا ؟!! ... ؛

قُلْتُ قَبْلَ ذَلِك : لَسْتُ أدْرِى !!... ؛ ألَم أقُل أنَّ الحُبَّ لا يَعْرِفُ القَوَاعِدَ وَلا الشُّرُوط ؟!!... ؛ ألَم أقُل مِن قَبْل : إنَّ لِلحُبِّ أسْرَارٌ سَمَاوِيَّةٌ تَذُوبُ أمَامَهَا تَجَارِبُ المُغَامِرِين ؛ وَحِكْمَةُ الحُكَمَاء ؛ وَعُقُولُ العُظَمَاء ؟!!... ؛ ألَم أقُل هَذَا ؟!!... ؛ إذَن !!... ؛ فَلا لَوْمَ وَلا عِتَاب .



.....

ـ الرِّسَالَةُ الثَّانِيَة :

✿ ـ اللِّقَاءُ الثَّانِى

(هَكَذَا كَان !!... ؛ وَلا تَسْأَل عَن السَّبَبِ !!)

رَأَيْتُهَا لأَوَّلِ مَرَّةٍ فِى بَيْتِ صَغِيرَتِى شَيْمَاء(١). ؛ كَانَت تَتَهَيَّأُ لِيَوْمِ زِفَافِهَا القَرِيب ؛ وَكُنْتُ أَتَحَدَّثُ مَعَهَا فِى هَذَا الأَمْر ؛ ثُمَّ عَبَرَت فَتَاةٌ فَجْأَةً وَاتَّجَهَت إِلَى جَوْفِ الدَّار ؛ لَمِحْتُ هَيْئَتَهَا ؛ لَكِنِّى مَا رَأَيْتُ وَجْهَهَا ؛ ثُمَّ عُدتُ إِلَى شَيْمَاء لِمُواصَلَةِ الحَدِيثِ الَّذِى انْقَطَعَ لِلحْظَةٍ ... ؛ وَبُعَيْدَ سُوَيْعَةٍ وَقَفَت الفَتَاةُ عَلَى بَابِ الحُجْرَةِ لِمُحَادَثَةِ الشَّيْمَاء ... ؛ وَنَظَرَت إِلَىَّ وَنَظَرْتُ إِلَيْهَا ؛ ثُمَّ أَشَحْتُ بِوَجْهِى وَأَعْرَضتُ عَنْهَا !!... ؛ مَا رَاقَتْنِى وَمَا أَعْجَبَتْنِى !!... ؛ وَانْصَرَفَت الفَتَاة ... ؛ كُنْتُ أَعْلَمُ مِن نَظْرَتِهَا مَعَ كَوْنِهَا كَانَت نَظْرَةً خَاطِفَةً أَنَّ هُنَاكَ ثَمَّةَ شَيْء !!... ؛ مَضَت الفَتَاةُ لِحَالِهَا ؛ وَسَأَلَتْنِى الشَّيْمَاء : مَا رَأْيُكَ يَا عَمِّى فِى هَذِهِ ؟... ؛ فَأَجَبْتُهَا : هَذِهِ لَيْسَت فِى العِير ؛ وَلا فِى النَّفِير !!... ؛ لَيْسَت هَذِهِ يَا شَيْمَاء مِن الصِّنْفِ الَّذِى يَأْخُذُنِى لأَوَّلِ وَهْلَةٍ ؛ بَل وَلا بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيل ... ؛ ثُمَّ مَضَى يَوْمٌ ... ؛ يَوْمَان ؛ ثُمَّ جَاءَت اللَّيْلَةُ الَّتِى تَسْبِقُ لَيْلَةَ

---

(١) ـ وَهِىَ ابْنَةُ أَخِى مِن جِهةِ العُمُومَةِ ؛ وَهِىَ رَفِيقَةُ هِبَه وَصَدِيقَتُهَا مُنْذُ الصِّغَر ؛ وَهِىَ فِى الثَّالِثَةِ وَالعِشْرِينَ مِن عُمُرِهَا ؛ وَكَذَلِكَ رَفِيقَتُهَا الحَبِيبَة ؛ فَأَنَا أَكْبُرُهُمَا بِستِّ سَنَوَات .

الزِّفَاف ؛ وَهِيَ لَيْلَةُ احْتِفَالٍ ؛ جَاءَت العِشَاء ؛ فَخَرَجْتُ مِن بَلْدَتِي قَاصِداً بَلْدَتِي القَدِيمَة ؛ وَهِيَ تِلْكَ البَلْدَةُ الَّتِي وُلِدتُ بِهَا ؛ وَالَّتِي بِهَا عَشِيرَتِي ؛ ذَهَبْتُ لِحُضُورِ الحَفْل ... ؛ دَخَلْتُ إِلَى المَكَان ؛ سَلَّمْتُ ثُمَّ جَلَسْت ؛ كَانَت هِبَه تَجْلِسُ بِجِوَارِ الشَّيْمَاء ؛ نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَمَا كَانَت تَرَانِي ... ؛ شَعُرْتُ بِشَيْءٍ غَرِيب !!... ؛ إِنَّهَا هِيَ الَّتِي رَأَيْتُهَا مِن قَبْل ... ؛ وَلَكِن ؟!!... ؛ مَا هَذَا الَّذِي أَجِدُهُ فِي قَلْبِي ؟!!... ؛ مَا هُوَ الَّذِي أَخَذَنِي هَذِهِ الأَخْذَة ؟!!... ؛ وَجْهٌ بَرِيء !! ... ؛ عُيُونٌ حَالِمَة !!... ؛ رُوحٌ كَأَنِّي أُرِيدُهَا وَأَبْحَثُ عَنْهَا !!... ؛ سُبْحَانَ مُقَلِّبِ القُلُوب !!... ؛ تَرَكْتُ مَكَانِي ؛ وَاتَّجَهْتُ نَحْوَ العَرُوسِ بِحُجَّةِ المُبَارَكَةِ لَهَا ؛ ثُمَّ وَقَفْتُ بِجِوَارِهَا ؛ وَبَيْنَا أَنْظُرُ ؛ الْتَقَت عَيْنَاي بِعَيْنَي هِبَه ... ؛ ابْتَسَمْتُ لَهَا ؛ فَابْتَسَمَت !!... ؛ وَتَكَرَّرُ المَشْهَدُ وَأَخَذَت العُيُونُ تَتَشَابَكُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِين ؛ حَتَّى أَنِّي كُنْتُ وَإِيَّاهَا كَظَاهِرَةٍ طَرِيفَةٍ بَدِيعَةٍ فِي وَسَطِ هَذَا الحَفْل !!.... ؛ وَعَلِمَ الجَمِيعُ بِحَقِيقَةِ مَا اسْتَقَرَّ فِي قَلْبِ نِزَار ... ؛ وَهِبَه !!... ؛ وَانْصَرَفَ الجَمِيعُ مِنَ الحَفْل ... ؛ خَرَجْتُ وَلَكِن بِغَيْرِ النَّفْسِ الَّتِي دَخَلْتُ بِهَا ... ؛ وَخَرَجَت هِيَ ؛ وَسَعَادَةُ الفَتَاةِ البَرِيئَةِ فِي عَيْنَيْهَا !!... ؛ يَا لَهَا مِن أَقْدَار !! ... ؛ لَقَد كَانَ عَقْلِي قَد ارْتَبَطَ بِالعَاصِمَةِ وَمَا عَادَ يُفَكِّرُ فِي سِوَى السَّفَرِ وَالرَّحِيل !! ... ؛ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِي حَيَاتِي قَد تَحَوَّلَ إِلَى سَرَاب !!... ؛ النَّصْرُ الوَحِيدُ الَّذِي حَقَّقْتُهُ فِي حَيَاتِي ؛ كَانَ فِي مَيْدَانِ الفِكْرِ وَالثَّقَافَة !!... ؛ أَمَّا حَيَاتِي كَإِنْسَان ؟!! ... ؛ حَيَاتِي كَقَلْبٍ عَاشَ مَعَ الحُبِّ وَلَهُ ؟!!... ؛ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ قَد رَحَل !!... ؛ خَذَلَتْنِي الدُّنْيَا خِذْلاناً رَهِيباً !!... ؛ لا أَدْرِي سَبَبَهُ وَلا أَعْرِفُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ

عَاقَبَتْنِى ؟!!... ؛ لا أَهْل !!.... ؛ لا حُب !!.... ؛ لا مَال !!... ؛ لا وَطَن !!... ؛ فَلِمَاذَا البَقَاءُ بِهَذِهِ الأَرْض !!... ؛ أَأَمْكُثُ فِى بَلْدَةٍ مَالِى فِيهَا سِوَى قَبْرِينِ هُنَاكَ عَلَى أَحَدِ حُدُودِهَا ؟!!... ؛ كُنْتُ قَد تَحَدَّثْتُ مَعَ بَعْضِ رِفَاقِى فِى العَاصِمَةِ حَوْلَ رَغْبَتِى الأَكِيدَةِ فِى إِكْمَالِ مَسِيرَةِ حَيَاتِى بِهَا ... ؛ هُنَاكَ عَمَلِى ؛ وَهُنَاكَ الزِّحَامُ الَّذِى أَغِيبُ بَيْنَ حُشُودِهِ فَأَنْسَى كُلَّ آلامِ المَاضِى !!... ؛ هُنَاكَ الشُّهْرَة ... ؛ وَالمَجْد !!... ؛ فَلِمَاذَا البَقَاء ؟!!... ؛ لِمَاذَا ؟!!... ؛ عَلَى أَنِّى كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ الجَحِيمَ يَنْتَظِرُنِى هُنَاك !!... ؛ أَنَا لَن أَتَزَوَّج قَاهِرِيَّةً أَبَداً !!... ؛ وَمَازِلْتُ أَقُولُ لِرِفَاقِى : فَتَاةٌ عَرْجَاءُ مِن بَلْدَتِى ؛ خَيْرٌ أَلْفَ مَرَّةٍ مِن حَسْنَاءٍ تَرَبَّت وَعَاشَت فِى العَاصِمَة ... ؛ هُنَاكَ الخَنَا ؛ وَالخِيَانَة !!... ؛ هُنَاكَ تَعْشَقُكَ الفَتَاةُ أَلْفَ عَامٍ ... ؛ ثُمَّ تَبِيعُكَ فِى سَاعَةٍ رَخِيصَةٍ !!... ؛ وَلأَنِّى شَابٌّ يَشْعُرُ بِمَا يَشْعُرُ بِهِ الرَّجُلُ إِزَاءَ النِّسَاء ؛ فَقَد كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّى قَد أُدَنِّسُ هُنَاكَ طَهَارَتِى الَّتِى عِشْتُ حَيَاتِى مُحَافِظاً عَلَيْهَا !!... ؛ سَأَصْنَعُ المَجْدَ الَّذِى أُرِيد ؛ وَلَكِنِّى سَأَخْسَرُ نَفْسِى وَذَاتِى !!... ؛ وَلَكِن مَا الفَارِق ؟!!... ؛ أَنَا هُنَا مَيِّتٌ بَيْنَ الأَحْيَاء !!... ؛ فَالنَّاسُ تَصِفُنِى بِأَنِّى الكَاتِب ؛ الأَدِيب ؛ الشَّاعِر ... ؛ وَلَكِنِّى أَعْلَمُ أَنَّ ثَقَافَتِى وَفَنِّى وَإِبْدَاعِى !! ... ؛ كُلُّ هَذَا لا يُسَاوِى شَيْئاً !!... ؛ كُلُّ مَا كَسَبْتُهُ مِن مَالٍ طُوَالَ السَّنَواتِ الَّتِى عَمِلْتُ خِلالَهَا بِمُؤَسَّسَاتِ النَّشْرِ بِالقَاهِرَة لا يُعَادِلُ قِيمَةَ المَهْرِ الَّذِى قَدَّمَهُ زَوْجُ أَسْمَاء يَوْمَ خِطْبَتِهَا !!... ؛ إِذَن ؟!!... ؛ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ !!... ؛ لِيَذْهَب كُلُّ شَىْءٍ إِلَى الجَحِيم !!... ؛ حَتَّى !!... ؛ حَتَّى أَنَا !!... ؛ لَو ذَهَبْتُ إِلَى الجَحِيم ... ؛ فَلا بَأس !!... ؛ لا قِيمَةَ لِلحَيَاةِ فِى عَيْنِى !!

... ؛ لا مَعْنَى لِلوجُودِ عِنْدِى !!... ؛ الكَاتِبُ الَّذِى ضَحَّى بِشَبَابِهِ وَعُمُرِهِ فِى مَيْدَانِ الفِكْرِ وَالثَّقَافَة ... ؛ هَزَمَهُ الفَلاَّحُ ابْنُ الفَلاَّح !!... ؛ وَحَمَلَ أَسْمَاء إِلَى بَيْتِهِ !!... ؛ دَفَعَ هُوَ آلافَ الجُنَيْهَات !!... ؛ وَأَمَّا أَنَا فَحِيلَتِى الخَيْبَةُ وَالحَسْرَة !! ... ؛ إِذَنْ !!... ؛ فَلْنَسِر نَحْوَ المَجْهُول !! .

نَعَم !!... ؛ كَانَت هَذِهِ هِىَ حَقِيقَةُ أَفْكَارِى وَمَشَاعِرِى !!... ؛ كَانَت أَسْمَاء قَد تَزَوَّجَت مُنْذُ عَامٍ ؛ وَلَكِن بَقِيت عَقِيدَتِى هَذِهِ عَلَى ثَبَاتِهَا وَرُسُوخِهَا !!... ؛ وَبِحُلُولِ عَام ٢٠١٢ م كَانَت الشُّهْرَةُ النِّسْبِيَّةُ قَد طَرَقَت بَابِى ؛ وَلأَوَّلِ مَرَّةٍ فِى تَارِيخِ قِصَّتِى مَعَ التَّأْلِيفِ وَالنَّشْرِ أُدْعَى لِلعَمَلِ فِى أَكْثَرِ مِن مُؤَسَّسَةٍ ... ؛ وَهَكَذَا زَادَت رَغْبَتِى فِى الرَّحِيل ... ؛ وَقَوِيت قَنَاعَتِى بِضَرُورَةِ البَحْثِ عَن حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ فِى غَيْرِ هَذِهِ الأَرْض !!... ؛ ثُمَّ ؟!!... ؛ ثُمَّ جَاءَت هِبَه !!... ؛ ظَهَرَت فِى عَالَمِى فَجْأَةً !!... ؛ نَظَرَاتُهَا الحَالِمَةُ الودِيعَة !!... ؛ جَعَلَتْنِى أَتَنَاسَى كُلُّ مَا كَانَ يَدُورُ بِعَقْلِى !!... ؛ قِصَّةٌ غَرِيبَةٌ !!... ؛ كُلُّ شَىْءٍ فِيهَا يَدْعُو إِلَى الدَّهَشِ وَالتَّعَجُّبِ !!... ؛ أَسْمَاء !!... ؛ الحُبُّ الأَطْوَلُ زَمَنَاً فِى تَارِيخِى وَالأَشَدُّ وَجَعَاً لِقَلْبِى ... ؛ مَا تَعَلَّقْتُ بِهَا بِهَذِهِ السُّرْعَة ... ؛ حَنَان !!... ؛ عَلِقْتُهَا وَأَنَا فِى التَّاسِعَةِ عَشْرَةَ مِن عُمُرِى ؛ وَكَانَت فِى مِثْلِ سِنِّى ؛ وَكُنْتُ أَرَاهَا وَقْتَمَا أُرِيد ؛ وَكُنْتُ أَتَحَدَّثُ مَعَهَا عَلَى سَجِيَّتِى بِلا خَجَلٍ أَو تَكَلُّفٍ ؛ وَمَا كَانَت تَعْرِفُ بِأَنَّنِى أُحِبُّهَا ... ؛ بَل كَانَت تُوقِنُ بِأَنَّنِى أَعْشَقُهَا !!... ؛ وَمَعَ ذَلِكَ مَا بُحْتُ لِهَا أَبَدَاً !!... ؛ كُنْتُ أَتَهَيَّأُ لِلجَامِعَة ... ؛ وَكَانَت هِىَ حَسْنَاءُ بَلْدَتِنَا القَدِيمَةِ بِلا مُنَازِعٍ ؛ مَا يَمُرُّ يَوْمٌ إِلاَّ وَيَتَقَدَّمُ لِخِطْبَتِهَا صَاحِبُ مَالٍ وَثَرَاء ؛ أَو مَن يَمْلُكُ

أرْضاً وَخيْراً ... ؛ كَانَ قَلْبِى يَنْطِقُ بِاسْمِهَا مَعَ كُلِّ نَبْضَةٍ مِن نَبَضَاتِهِ !!... ؛ إلاَّ أنَّنِى كُنْتُ أعْرِفُ كَيْفَ أُسَيْطِرُ عَلَى مَشَاعِرِى ... ؛ فَمَا تَحَرَّكَ اللِّسَان !!... ؛ وَمَا نَطَقَت الشِّفَاه !!.

ثُمَّ ؟!!... ؛ لَمَّا جَاءَت مُنَى إلَى عَالَمِى !!... ؛ وَكَانَت بَدِيعَةَ الحُسْنِ رَهِيبَةَ النَّظَرَات !!... ؛ حَاولَ الكَثِيرُونَ أن يَصِلُوا حِبَالَهُم بِحَبْلِهَا ؛ وَلَكِنَّهَا طَرَحَت كُلَّ هَؤلاء ... ؛ وَأرَادَت الأدِيبَ الفَقِير !!... ؛ وَرَغْمَ أنِّى كُنْتُ أعْلَم ... ؛ إلاَّ أنَّ لِسَانِى مَا نَطَقَ لَهَا أبَداً !!... ؛ وَمَا هَذَا لأنَّهَا لَم تَكُن قَد وَقَعَت مِنِّى كَمَا وَقَعْتُ مِنْهَا ... ؛ بَل أنَا كُنْتُ أهْوَاهَا وَأُرِيدُهَا !!... ؛ كُنَّا نَتَكَلَّم ؛ فَنَقْتَرِب ؛ وَلَكِن لا نَصِل إلَى بَيْتِ القَصِيد !!... ؛ صَارَحتُهَا بِحُبِّى وَعِشْقِى لَهَا بِالنَّظَرَاتِ وَحَسْب !!... ؛ وَبَقِىَ هَذَا هُوَ حَالِى مَعَهَا طِيلَةَ عَامٍ كَامِلٍ !!... ؛ وَلَمَّا جَاءَ يَوْمُ البَوْح ؟!!... ؛ أخْبَرَتْنِى أنَّهَا مِنَ المُحَالِ أن تَتْرُكَ زَوْجَهَا !!... ؛ هَذَا رَغْمَ أنَّهَا كَانَت دَائِماً مَا تَلْعَنُهُ !!... ؛ وَتُخبِرُنِى بِأنَّهَا تَخْشَى أن يَسُوقَهَا إلَى المَهَالِكِ !! ... ؛ فَكُنْتُ ازْدَادَ إشْفَاقاً وَخَوْفاً عَلَيْهَا !!... ؛ ثُمَّ أشَارَت إلَى أنَّهَا مَا أرَادَتْنِى زَوْجاً ؟!!... ؛ بَل أرَادَتْنِى أن أكُونَ رُبَّانَ سَفِينَتِهَا فِى نَهْرِ الفِرَاش !!... ؛ فَأخْبَرْتُهَا بِالإشَارَةِ أيْضاً أنَّنِى لَسْتُ مِن رُوَّادِ الخَنَا وَالخَطِيئَة !!... ؛ مِنَ المُحَالِ أن أدَنِّسَ بَرَاءَتِى وَطَهَارَتِى !! ؛ فَتَرَكَتْنِى وَذَهَبَت !!... ؛ أذْكُرُ آخِرَ مَرَّةٍ رَأيْتُهَا !! ... ؛ كَانَت تَنْظُرُ إلَىَّ وَكَأنَّهَا تَتَّهِمُنِى بِالغَبَاء !!... ؛ سَامَحَهَا الله !!... ؛ مَضَت ... ؛ تَرَكَت مَدِينَتِنَا ؛ وَعَادَت إلَى بَلْدَتِهَا ... ؛ مَضَت بِلا حَزَنٍ وَلا أسَفٍ !!... ؛ مَضَت !!... ؛ وَمَاتَ فِى فَمِّى الكَلام !!... ؛ وَبَقِيتُ وَحْدِى حَائِراً !!... ؛ أمْشِى

بوجْدَانِى المُعَذَّبِ وَسْطَ أَحْشَادِ الزِّحَام !! .

عَلَى كُلِّ حَالٍ ... ؛ فَالَّذِى أَرَدتُ أَن أُؤكِّدَه ... ؛ أَنَّنِى أُجِيدُ الصَّمْتَ الطَّويل ... ؛ أَنَّ مَشَاعِرِى وَإِن كَانَت تَمُورُ بِدَاخِلِى ... ؛ إِلاَّ أَنَّنِى أَعْرِفُ كَيْفَ أَمْنَعُ لِسَانِى ... ؛ أَن أَنْطِق !!... ؛ فِى الوَقْتِ المُنَاسِبِ فَقَط ... ؛ وَلَكِن !!... ؛ كَيْفَ عَشِقْتُ هِبَه بِهَذِهِ السُّرْعَة ؟!!... ؛ كَيْفَ أَظْهَرْتُ مَشَاعِرِى قَبْلَ أَوَانِهَا وَلَم أَتَجَلَّد كَعَادَتِى !!... ؛ كَانَ أَبْنَاءُ عَشِيرَتِى يَصِفُونَهَا بِالطِّيبَةِ ؛ وَبِالأَدَبِ ؛ وَبِأَنَّهَا مَا غَامَرَت مَعَ أَحَدٍ أَبَداً ؛ وَبِأَنَّهَا بَرِيئَةُ القَلْبِ وَالخُلُق ... ؛ وَلَكِنَّهُم كَانُوا يَنْصَحُونَنِى وَيُكْثِرُونَ مِن قَوْلِهِم : لِمَاذَا هَذِهِ السَّمْرَاء ؟!!... ؛ أَنْتَ مَا أَحْبَبْتَ مِثْلَ هَذِهِ أَبَداً ؟!!... ؛ الحَيَاةُ مَا ابْتَسَمَت لَكَ إِلاَّ فِى هَذَا العَام ... ؛ فَتَمَهَّل !! ... ؛ لا تَجْنِى عَلَى نَفْسِكَ بِزَوَاجٍ يُعَوِّقُ مَسِيرَتَك ؟!!... ؛ ارْحَل إِلَى القَاهِرَة !! ... ؛ سَتَصْنَع هُنَاكَ الأَمَلَ الَّذِى عِشْتَ مِن أَجْلِهِ ... ؛ وَمَن يَدْرِى ؟!!... ؛ قَد لا يَمْضِى كَثِيرُ وَقْتٍ إِلاَّ وَتَجِدُ نَفْسَكَ قَادِراً عَلَى الزَّوَاجِ مِنَ الأَجْمَلِ وَالأَرْقَى !! ... ؛ كُنْتُ أَسْمَعُ كَلامَهُم وَنَصَائِحَهُم ... ؛ فَلا أُجِيبُ إِلاَّ بِقَوْلِى :

حَسَنٌ فِى كُلِّ عَيْنٍ مَن تَوَد

كُنْتُ أَقُولُ لَهُم :

أَنَا مِن قَوْمٍ إِذَا عَشِقُوا
طَلَّقُوا العَقْلَ وَعَاشُوا لِلخَبَل !!

فَكَانُوا إِذَا مَلُّوا ... ؛ صَمَتُوا !!

وَهَكَذَا بَدَأَت الحِكَايَةُ الجَدِيدَة !!... ؛ وَأَلْقَيْتُ نَفْسِي وَمَشَاعِرِي فِي هَذَا العَالَمِ الغَرِيب !!... ؛ بِدَايَتِي مَعَهَا كَبِدَايَتِي مَعَ أَسْمَاء !!... ؛ المَشْهَدُ عَيْنُهُ !! ... ؛ الأَحْدَاثُ ذَاتُهَا !!... ؛ كَذَلِكَ كَانَت البِدَايَة !!... ؛ مَا اخْتَلَفَ شَيْءٌ إِلاَّ أَنَّ أَوَّلَ مَوْقِفٍ فِي الرِّوَايَةِ كَانَ فِي الصَّبَاح ... ؛ وَهُوَ هُنَا فِي اللَّيْل !!... ؛ نِهَايَتِي مَعَ أَسْمَاء مَعْرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ لا تَحْتَاجُ إِلَى مَزِيدِ كَلام .(١) !!... ؛ وَأَمَّا هِبَه !! ... ؛ فَمَا أَدْرِي ؟!!... ؛ وَلَكِنِّي أَقُولُ دَائِمَاً : لابُدَّ أن تُشْرِقَ الشَّمْس !!.



.(١) ـ انْظُر قِصَّتِي مَعَهَا فِي كِتَابِي ((كَلِمَاتٌ فِي مَوْسِمِ الخَرِيف)) ـ مَنْشُورَات دَار أَطْلَس لِلنَّشْرِ وَالإِنْتَاجِ الإِعْلامِيِّ بِالقَاهِرَة ـ .
قُلْتُ : كَانَ مِنَ المُقَرَّرِ أن يُنْشَرَ هَذَا العَمَلُ فِي دَارِ أَطْلَس ؛ وَلَكِنِّي رَأَيْتُهُم يُقَدِّمُونَ نَشْرَ أَعْمَالِي الَّتِي صَنَعْتُهَا فِي النَّقْدِ وَاللُّغَةِ ؛ فَنَشَرْتُهُ فِي دَارِ البِدَايَةِ الأُرْدُنِيَّةِ .

.....

ـ الرِّسَالَةُ الثَّالِثَة :

✿ ـ اللِّقَاءُ الثَّالِث

(هِيَ مَحْضُ كَلِمَات !!... ؛ وَلَكِنَّهَا كَحَبَّاتِ المَطَر ... ؛ صَادَفَت قَلْباً !!... ؛ أَضْنَاهُ الظَّمَأ !!)

مَلَّ قَلْبِى مِن فَرْطِ السَّأم !!... ؛ قُلْتُ فِى نَفْسِى : لَعَلَّ رُوحِى لَن تَعْرِفَ الحُزْنَ هَذِهِ المَرَّة !!... ؛ وَمِنَ العَجِيب !!... ؛ أَنَّنِى شَعُرْتُ فِى اليَوْمِ التَّالِى بِقُوَّةٍ تَدْفَعُنِى إِلَى رُؤْيَةِ هَذِهِ العُيُونِ البَرِيئَةِ !!... ؛ أَيْنَ الصَّبْر ؟!!... ؛ لَسْتُ أَدْرِى !! ... ؛ حَمَلَتْنِى أَقْدَامِى نَحْوَ بَلْدَتِى القَدِيمَة !!... ؛ بَل !!... ؛ إِلَى بَلْدَتِى الحَبِيبَة !! ... ؛ ذَهَبْتُ فِى الصَّبَاح ... ؛ وَمَرَرْتُ مِن عِنْدِ بَيْتِهَا ؛ إِذ هُوَ يُؤَدِّى إِلَى بَيْتِ وَالِدِ الشَّيْمَاء ... ؛ وَلَئِن أَضْحَت الشَّيْمَاءُ فِى بَيْتٍ آخَر ؛ وَأَصْبَحَت لَهَا حَيَاتُهَا الجَدِيدَة .. ؛ فَهُنَاكَ شَقِيقَتُهَا أَسْمَاء(١)!!... ؛ وَهِيَ صَدِيقَتِى أَيْضاً !!... ؛ وَلَكِنَّهَا الصَّدَاقَةُ الَّتِى تُعَذِّبُنِى !!.. ؛ كَانَت أَسْمَاء تَتَمَنَّى أَن نُكْمِلَ رِحْلَةَ الحَيَاةِ سَوِيّاً !! ... ؛ صُورِحْتُ بِهَذَا الأَمْرِ غَيْرَ مَرَّةٍ !!... ؛ وَلَكِنَّ قَلْبِى لَيْسَ بِيَدِى !!... ؛ أَعْلَمُ

---

(١) ـ لَيْسَت هَذِهِ هِيَ أَسْمَاء الَّتِى أَقُولُ عَنْهَا دَائِماً : ((القِصَّةُ الأَطْوَلُ زَمَناً فِى تَارِيخِى !! ... ؛ وَالأَشَدُّ وَجَعاً لِقَلْبِى !!...)) ؛ تِلْكَ الَّتِى ذَكَرْتُهَا فِى كِتَابِى ((كَلِمَاتٌ فِى مَوْسِمِ الخَرِيف)) ؛ أَسْمَاءُ هَذِهِ هِيَ شَقِيقَةُ الشَّيْمَاء ؛ وَالصَّدَاقَةُ بَيْنِى وَبَيْنَهُمَا مِن سِنِين ؛ وَإِنَّ وَالِدَهُمَا هُوَ ابْنُ عَمِّى كَمَا ذَكَرْتُ سَلَفاً .

أَنَّنِى كُنْتُ لَهَا بِمَثَابَةِ الرَّجَاءِ الوحِيدِ فِى هَذَا العَالَم !!... ؛ حَاوَلْتُ غَيْرَ مَرَّةٍ أن أَبْحَثَ فِى نَفْسِى عَن شَىْءٍ يَدْعُونِى إِلَيْهَا ... ؛ لَكِنِّى مَا وَجَدتُ هَذَا الشَّىْءَ أَبَدَاً !!... ؛ مَعَ أَنَّنِى كُنْتُ أُوقِنُ بِأَنَّ فُؤَادِى لَو أَرَادَهَا لَعِشْتُ مَعَهَا حَيَاةً لَن أَظْفَرَ بِهَا مَعَ سِوَاهَا ؛ فَهِىَ الأَدَب ؛ وَالخُلُق ؛ وَالصِّدْق ؛ وَالصَّبْر ؛ وَالوَفَاء ؛ وَالإِخْلاص ... ؛ للهِ دَرُّكِ يَا أَسْمَاء !!... ؛ إِنَّ القُلُوبَ بِيَدِ اللهِ يُحَرِّكُهَا كَيْفَ يَشَاء !!.

وَأَعُودُ لِوَصْلِ مَا انْقَطَعَ مِنَ الحَدِيثِ ؛ فَأَقُول : وَمَرَرْتُ مِن عِنْدِ بَيْتِهَا ؛ وَرَأَتْنِى وَأَنَا ذَاهِبٌ إِلَى بَيْتِ أَسْمَاء ... ؛ سَلَّمْت ؛ وَجَلَسْت ... ؛ فَإِذَا بِطَارِقٍ يَطْرُقُ عَلَى البَاب ... ؛ إِنَّهَا هِى !!... ؛ لا بَأسَ مِن مَجِيئِهَا فِى كُلِّ وَقْتٍ وَحِين ... ؛ فَهِىَ الصَّدِيقَةُ الوَحِيدَةُ لِلشَّيْمَاء ؛ وَكَذَلِكَ فَإِنَّ هِبَه مَا صَادَقَت سِوَاهَا مُنْذُ عَهْدِ الطُّفُولَةِ ؛ بَل لَو قُلْتُ : إِنَّ هِبَه تَرَبَّت فِى هَذَا البَيْت ؛ لَمَا أَبْعَدتُ ... ؛ وَلَئِن أَصْبَحَت الشَّيْمَاءُ فِى بَيْتٍ جَدِيدٍ ؛ فَهَذَا لا يُغَيِّرُ مِنَ الأَمْرِ شَيْئَاً ؛ فَالبَيْتُ بَيْتُهَا ... ؛ وَلَكِنِّى كُنتُ أَعْلَمُ سَبَبَ المَجِىءِ هَذِهِ المَرَّة !!... ؛ دَخَلَت ؛ فَجَلَسَت بِجِوَارِ أُمِّ الشَّيْمَاء !!... ؛ فَقَطَعْتُ كَلامِى ... ؛ وَأَخَذَت صَاحِبَةُ البَيْتِ تُحَادِثُهَا ؛ فَشَارَكَتْهَا الحَدِيث ... ؛ أَخَذْتُ أُنْصِت ... ؛ وَكَانَ العَجَب !!... ؛ صَوْتٌ هَادِىءٌ وَدِيع !!... ؛ نَبَرَاتٌ جَمِيلَةٌ شَجِيَّة !!... ؛ أَمَّا أَنَا !!... ؛ فَكُنْتُ أُصَوِّبُ نَظَرَاتَ عَيْنِى إِلَى وَجْهِهَا !! ؛ إِلَى عَيْنَيْهَا !!... ؛ مَا الغَرِيبُ فِى هَذَا ؟!! ... ؛ إِنَّمَا القَصْدُ هُوَ الإِنْصَاتُ لِمَن تَتَحَدَّث !!... ؛ لَيْسَ حَتْمَاً أَن تَكُونَ الدِّلالَةُ دَائِمَاً هِىَ اللَّهْفَةُ وَقُوَّةُ التَّعَلُّقِ... ؛ وَهَذَا هُوَ مَا فَهِمَتْهُ السَّيِّدَةُ الجَالِسَة !!... ؛

تَكَلَّمَت بِكَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ !!... ؛ثُمَّ مَا أَدْرِى لَعَلَّهَا خَجِلَت ... ؛ فَاسْتَأْذَنَت وَانْصَرَفَت ... ؛ وَلَوْلا طَبِيعَةُ المَوْقِفِ لَمَا تَرَكْتُهَا تَنْصَرِفُ هَكَذَا !!... ؛ ذَهَبَت ... ؛ وَبَقِيتُ أَجْتَرُّ فِى سَعَادَةٍ تِلْكَ الكَلِمَاتِ الَّتِى نَطَقَت بِهَا شِفَاهُهَا !!... ؛ مَا أَذْكُرُ نَصَّ الأَلْفَاظ ... ؛ إِنَّمَا أَذْكُرُ رَنَّاتَ الكَلامِ وَهِيَ تَخْرُجُ مِن تِلْكَ الشِّفَاه !! ... ؛ مَا أَجْمَلَهَا !!... ؛ مَا أَعْذَبَهَا !!... ؛ مَا أَبْدَعَهَا !!... ؛ لَيْتَهَا تَكَلَّمَت إِلَى يَوْمِ نِهَايَةِ العَالَم !!.

أَعْطِنِى النَّايَ وَغَنِّ

؛ فَالغِنَا سِرُّ الخُلُود

وَأَنِينُ النَّايِ يَبْقَى

عِنْدَمَا يَفْنَى الوُجُود



.....

ـ الرِّسَالَةُ الرَّابِعَة :

✿ ـ اللِّقَاءُ الرَّابِع

﴿ هَكَذَا كَانَ كَلامِى !!... ؛ وَكَذَا صَارَ لِسَانِى !! ﴾

إِلَى أَيْنَ يَمْضِى الأَسَد ؟!!... ؛ فَابْتَسَمَت فِى دَهَش !!... ؛ هَكَذَا مَازَحْتُهَا يَوْماً قَبْلَ حُدُوثِ مَا قَد كَان !!... ؛ أَمَّا الآن !!... ؛ فَمَا عُدتُ أَتَكَلَّم !!... ؛ أَصبَحَت لَذَّتِى هِىَ النَّظَرُ إِلَيْهَا فِى سُكُونٍ وَتَأَمُّلٍ !!... ؛ إِنَّ شَأْنَ الحُبِّ لَعَجِيب !!... ؛ كُنتُ بِالأَمْسِ أَضْحَكُ وَأُدَاعِبُ وَأَمْزَح ؛ وَأُسْمِعُ الرِّفَاقَ أَشْعَارِى ... ؛ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهَا تَتَحَادَثُ مَعَ الشَّيْمَاء فِى الحُجْرَةِ المُجَاوِرَة ... ؛ مَا كُنْتُ أَعْبَأُ ... ؛ كَانَت بِالنِّسْبَةِ إِلَىَّ مَحْضَ أُنْثَى ... ؛ وَأَنَا كَرِهْتُ كَافَّةَ أَصْنَافِ النِّسَاء !! ... ؛ إِذَن فَلا حَرَجَ وَلا خَجَل ... ؛ أَمَّا اليَوْم !!... ؛ فَقَد تَغَيَّرَ كُلُّ شَىْء !! ... ؛ حَتَّى هِى !!... ؛ مَا عَادَت مَرِحَةً طَلْقَةَ اللِّسَانِ كَأَوَّلِ عَهْدِى بِهَا !! ... ؛ حِرْتُ فِى السَّبَب ؟!!... ؛ كَانَ مِنَ المَظْنُونِ بُعَيْدَ أَن اضْطَرَبَت القُلُوب ... ؛ أَنَّ الحَوَاجِزَ سَتَسْقُط ... ؛ وَأَنَّ السُّدُودَ سَتَنْهَار ... ؛ فَطَبِيعَتُهَا كَطَبِيعَتِى ... ؛ انْفِعَالاتُهَا كَانْفِعَالاتِى ... ؛ طَرِيقَتُهَا كَطَرِيقَتِى ... ؛ وَكُلُّ هَذَا يَشِى بِكَثِيرٍ مِن أَوْجُهِ التَّشَابُهِ ... ؛ إِذَن ... ؛ فَلِمَاذَا !!... ؛ صَمَتُّ أَنَا ؟!!... ؛ وَصَمَتَت هِىَ أَيْضاً ؟!!... ؛ وَحِرْتُ فِى تَعْلِيلِ هَذَا الأَمْر ؟!!... ؛ وَلَكِنِّى قُلْتُ فِى النِّهَايَةِ : الطَّبِيعَةُ وَاحِدَة !!... ؛ أَنَا لا أُرِيدُ البَدْءَ كَعَادَتِى ... ؛ وَهِىَ أَيْضاً كَذَلِك !! .

تَكَرَّرَت زِيَارَاتِى لِلبَلْدَةِ ... ؛ اعتَادَت أَقْدَامِى عَلَى الذَّهَابِ إِلَى بَيْتِ أَسْمَاء ... ؛ وَمَا أَذْهَبُ إِلاَّ مِنَ الطَّرِيقِ الَّذِى بِهِ بَيْتُ الشَّمْسِ السَّمْرَاء !!... ؛ وَصَارَ المَشْهَدُ مَأْلُوفاً لا يَتَغَيَّرُ وَلا يَتَبَدَّل !!... ؛ مَا إِن أَدْخُلُ إِلَى البَيْت !!... ؛ إِلاَّ وَيَدْخُلُ بُعَيْدَ لَحظَاتِ الزَّائِرُ الآخَر !!... ؛ إِلاَّ أَنَّ المَوْقِفَ عَلَى حَالِهِ !!... ؛ صَاحِبَةُ البَيْتِ جَالِسَةٌ مَعِى ... ؛ وَإِذَا جَاءَت هِيَه ؛ فَلابُدَّ مِن أَنَّهَا جَاءَت لِرُؤْيَةِ أَسْمَاء ... ؛ فَأَنَا أُحَادِثُ الأُم ... ؛ وَهِىَ تُحَادِثُ الابْنَة ... ؛ وَمَا هَذَا المُبْتَغَى مِن وَرَاءِ زِيَارتِى أو زِيَارَتِهَا !!... ؛ وَلَكِن كَيْفَ العَمَل ؟!!... ؛ هَذَا هُوَ المَكَانُ الوَحِيدُ الَّذِى لا شُهْرَةَ فِيهِ وَلا تَسْمِيع ؟!!... ؛ إِذَن !!... ؛ فَاللِّقَاءُ العَابِر !!... ؛ وَالنَّظَرَاتُ الصَّامِتَة !!... ؛ وَالشُّعُورُ بِالتَّجَاور !!... ؛ كُلُّ هَذَا ؟!!... ؛ يَكْفِى !! ... ؛ وَلَكِن ؟!!... ؛ إِلَى حِين !!.



.....

ـ الرِّسَالَةُ الخَامِسَة :

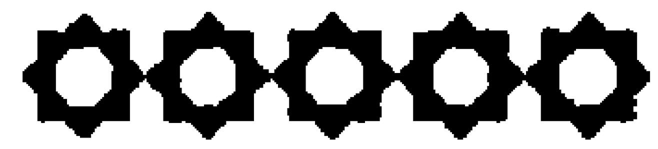
✿ ـ اللِّقَاءُ الخَامِس

﴿ مَا يَعِيشُ إلاَّ مِن قَلَمِه ؟!!... ؛ مُحَال !! ﴾

تَكَاثَرَت المَقُولات !!... ؛ كَأَنَّ الدُّنْيَا قَد خَلَت !!... ؛ وَبَقِيتُ وَحْدِى حَدِيثَ البَلْدَةِ !!... ؛ حَتَّى أَبْنَاءُ عَشِيرَتِى كَانُوا يَهْمِسُونَ إِلَىَّ فِى بَعْضِ الأَحَايِين : أَنْتَ تَرُومُ مِنْهَا مَا لا يَسُر؟!!... ؛ فَكُنْتُ أَضْحَك !!... ؛ وَكُنْتُ أَعْجَب !!... ؛ ثُمَّ أَصْمُت!!... ؛ غَرِيبَةٌ هِىَ طَرَائِقُنَا وَعَادَاتُنَا !!... ؛ الفُحْشُ وَالخَنَا يُمَرَّرُ وَيُسْتَر !! ... ؛ أَمَّا الحُب !!... ؛ فَكُلُّ امْرِىءٍ بِالحِكَايَةِ يَبُوحُ وَيَجْهَر!!... ؛ وَبِفَجْأَةٍ !!... ؛ أَصْبَحْتُ وَإِيَّاهَا حَدِيثَ الحَىِّ !!... ؛ عَلَى أَيْش؟!!... ؛ لَسْتُ أَدْرِى!!... ؛ وَلَمَّا مَلَلْتُ !!... ؛ كَانَت كَلِمَتِى :

✿ قَالُوا هَوَاهَا مُحَمَّدٌ !!... ؛ هَذَا النِّزَارِيُّ الغَرِيب !!... ؛ أَتَرَاهُ يَعْشَقُ أم يُدَاعِبُ أم يَرُومُ البَحْثَ عَن أَمْرٍ مَعِيب ؟!!... ؛ وَأَطَالُوا فِى عَبَثِ الحَدِيثِ لأَنَّهُم ؟!!... ؛ مُلِئَت قُلُوبُهُمُ بِجَهْلِ الحَبِّ مَا عَلِمُوا بِأَسْرَارِ الصَّبَابَةِ وَالهَوَى !! ... ؛ كُلُّ الحَيَاةِ بِعُرْفِهِم ؟!!... ؛ عَقْلٌ تَفَاحَشَ أو تَمَاجَنَ أو غَوَى !!... ؛ أَمَّا البَرَاءَةُ وَالوَفَا أو مَا احْتَوَتْهُ هُنَاكَ أَسْرَارُ القُلُوب !!... ؛ لُغْزٌ عَجِيبٌ عِنْدَهُم !! ... ؛ هُم مَا دَرُوا غَيْرَ الخَطَايَا وَالرَّزَايَا وَالذُّنُوب !!... ؛ وَأَقُولُ لا أَعْبَأُ بِأَنِّى عَشِقْتُهَا وَالقَلْبُ قَد أَعْلَنَ هُنَاكَ بِأَن أُحِب !!... ؛ وَأَقُولُ غَيْرَ مُخَجَّلٍ !!... : هَل

فِي الهَوَى وَالعِشْقِ ذَنْب ؟!!... ؛ الحُبُّ هُوَ سِرُّ الحَيَاةِ بِأَرْضِنَا !!... ؛ الحُبُّ مَلْحَمَةٌ تُغَنّى فِي تَأَمُّلِ صَمْتِنَا !!... ؛ قُولُوا فَإِنِّي !!... ؛ قُولُوا فَإِنِّي لَن أُغَادِرَ مِن هُنَا !!... ؛ قُولُوا فَقَد أضْحَت حَيَاتِي إِي وَرَبِّي هِيَ الأَمَانِي وَالمُنَى !! ... : ذَهَبَت خُطُوبُ الدَّهْرِ آلامُ الحَيَاةِ المُرْهِبَه !!... ؛ بَقِيت هُنَاكَ مَقُولَتِي !!... ؛ وَأَقُولُ فِي صِدْقٍ أنَا !!... : أنَا قَد عَشِقْتُكِ يَا هِبَه !! . ✿ . (١) .



... ؛ وَمَضَت أيَّام... ؛ نَهَارٌ وَلَيْل !!... ؛ صَبَاحٌ وَمَسَاء !!... ؛ أرَاهَا وَتَرَانِي ... ؛ أذْهَبُ وَتَأتِي... ؛ أمْضِي وَتَجِيء ... ؛ الهَوَى يَزْدَاد !!... ؛ وَالعِشْقُ فِي اشْتِعَال !!... ؛ وَبِفَجْأَةٍ !!... ؛ وَبِفَجْأَةٍ أظْلَمَت فِي عَيْنِي الدُّرُوب؟!!... ؛ مَا ظَنَنْتُ أنَّ الأيَّامَ سَتَبْدَأُ فِي مُحَارَبَتِي وَعِنَادِي بِهَذِهِ السُّرْعَةِ الرَّهِيبَة !!... ؛ عَلِمَ وَالِدُهَا !!... ؛ طَرَقَ الخَبَرُ سَمْعَهُ !!... ؛ فَقَالَ لَهَا فِي وُضُوحٍ غَاضِبٍ !!... :

﴿ لَن أسْمَحَ لابْنَتِي أن تَحْيَا مَعَ شَابٍّ لا يَعِيشُ
إلاَّ مِن قَلَمِهِ !!... ؛ وَلا يَمْلِكُ سِوَاه !! ﴾ .



... ؛ كَانَت رُؤْيَتُهَا فِي الصَّبَاحِ تُخْبِرُنِي بِأنَّ هُنَاكَ شَيْءٌ غَرِيبٌ؟!!... ؛ ذَهَبْتُ إِلَى بَيْتِ أسْمَاء ... ؛ وَرَأتْنِي هِبَه... ؛ فَجَاءَت... ؛ كُنْتُ أَقِفُ بِجِوَارِ أسْمَاء

---

(١) ـ مِن قَصَائِدِ دِيوَانِي : ((عِنْدَمَا نَجْلِس سَوِيًّا)) .

وَأُمِّهَا... ؛ثُمَّ سَمِعْنَا صَوْتَ فَتَاةٍ تُنَادِى... ؛ الْتَفَتُّ... ؛ فَإِذَا هِى !!... ؛ نَظَرْتُ إِلَيْهَا !!... ؛ فَأَطْرَقَت بِحُزْنٍ !!... ؛ آلَمَتْنِى رُؤْيَتُهَا فِى هَذَا المَشْهَدِ !!... ؛ حِرْتُ فِى عِلَّةِ حُزْنِهَا !!... ؛ نَظَرْتُ إِلَيْهَا ثَانِيَةً !!... ؛ فَنَظَرَت !!... ؛ ثُمَّ أَطْرَقَت فِى أَسَىً كَالمَرَّةِ الأُولَى !!... ؛ كِدتُ أَنْفَجِر !!... ؛ مَا هُوَ السَّبَب؟!!... ؛ حَتَّى وَلَو حَزِينَةً لأَجْلِ أَمْرٍ مَا... ؛ فَلِمَاذَا لَم تَدْخُل كَعَادَتِهَا؟!!... ؛ غَرِيبٌ هُوَ ذَلِكَ الأَمْر!! .

وَمَضَت هِبَه ؛ وَعَادَت إِلَى بَيْتِهَا... ؛ وَبَقِيتُ فِى حِيرَتِى !!... ؛ وَعِنْدَ الظَّهِيرَة !! ..... ؛ خُبِّرْتُ بِالأَمْر !!..... ؛ زَالَت حِيرَتِى !!..... ؛ وَهَجَمَ الحُزْنُ عَلَى نَفْسِى وَسَاحَتِى !!... ؛ مَضَى كُلُّ شَىْءٍ !!... ؛ وَبَقِيت حَسْرَتِى !! .



وَمَضَيْتُ !!... ؛ مَضَيْتُ كَى أَعُود !!... ؛ حَانَ مَوْعِدُ الإِيَابِ وَالرُّجُوع !!... ؛ كَانَ مِنَ الخَطَإِ أَن أُغَامِرَ ثَانِيَةً بَعْدَ كُلِّ هَذَا الَّذِى كَان !!... ؛ وَبَيْنَا خُطُوَاتِى تَتَّجِهُ إِلَى مَوْطِنِهَا الَّذِى مَا عَرِفَت سِوَاه !!... ؛ إِلَى أَرْضِ اليَأس !!... ؛ إِلَى دُرُوبِ التَّلاشِى وَالضَّيَاع !!... ؛ بَيْنَا أَمْضِى فِى طَرِيقِى؟!!... ؛ رَأَيْتُهَا وَاقِفَة !! ... ؛ رَأَتْنِى ... ؛ فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا !!... ؛ فَإِذَا بِحُزْنِ الكَوْنِ قَد هَبَطَ عَلَى عَيْنَيْهَا !! ... ؛ نَظَرَت إِلَيَّ فِى سُكُونٍ وَصَمْت !!... ؛ كَأَنَّهَا أَرَادَت أَن تَقُول : لا بَأْسَ يَا مُحَمَّد !!... ؛ لَقَد غَابَت الشَّمْسُ سَرِيعاً !!... ؛ سَامَحَ اللهُ هَذِهِ الحَيَاة !!... ؛ نَظَرْتُ إِلَيْهَا !!... ؛ فَرَأَيْتُ آيَاتَ الكَآبَةِ تَسْتَحْوِذُ عَلَى مَلامِحِهَا وَقَسَمَاتِهَا !!

... ؛ اهتَزَّ وجْدَانِى لِرُؤْيَتِهَا هَكَذَا !! ... ؛ زُلْزِلَ كَيَانِى!! ... ؛ شَعُرْتُ أنَّ قَلْبِى يُرِيدُ أن يَقْذِفَ بِدَمِهِ الكَئِيب !! ... ؛ كَرِهْتُ وُجُودِى!! ... ؛ تَهَاوَى الكَوْن !! ... ؛ أضْحَت الدُّنْيَا فِى عَيْنِى كَوَجْهٍ مَسْخٍ مُشَوَّهٍ لَعِين !! ... ؛ وَمَضَيْتُ وَحْدِى مِن جَدِيدٍ فِى طَرِيقِى!! ... ؛ أُغَنِّى أُغْنِيَتِى الحَزِينَة !! ... ؛ وَأنَا جَالِسٌ فَوْقَ عَرْشِ مَوَاجِعِى!! .

✥ مَا بَيْنَ بَدْئِى وَالخِتَام ؟!! ... ؛ أقَاصِيصٌ ... ؛ رِوَايَاتٌ ... ؛ حِكَايَاتُ ... ؛ فَهُنَاكَ مَن ذَهَبُوا !! ... ؛ وَمَن فُقِدُوا !! ... ؛ وَمَن مَاتُوا !! ... ؛ وَبَقِيتُ وَحْدِى فِى الأخِير !! ... ؛ رُوحٌ تَجُوبُ هُنَاكَ فِى التِّيهِ الكَبِير!! ... ؛ أمَلٌ تَحَوَّلَ يَا صَدِيقِى إلَى رَمَاد !! ... ؛ مَا عُدْتُ أعْرِفُ يَا أخِى !! ... ؛ مَعْنَى السَّفَاهَةِ وَالرَّشَاد؟!! ... ؛ أشْلاءُ أحْلام !! ... ؛ أشْلاءُ أحْلامٍ أُمِيتَت فِى الخَرِيف !! ... ؛ لا فَرْقَ بَعْدَ اليَوْمِ !! ... ؛ مَن غَصَبَ الهُدَى (١)!! ... ؛ وَمَنِ العَفِيف !! ... ؛ لا فَرْقَ بَيْنَ الشَّيْخِ عَرْبَدَ فِى المَقَابِحِ وَالمَثَالِبِ لا يَثُوبُ(٢) وَلا يَفِيق !! ... ؛ أو بَيْنَ طِفْلٍ بَاسِمٍ فِى وَسْطِ لَيْلٍ قَد تَهَشَّمَ رَأْسُهُ فَوْقَ الطَّرِيق !! ... ؛ يَا سَيِّدِى !! ... ؛ كُلُّ الحَقَائِقِ قَد هَوَت !! ... ؛ كُلُّ العُقُولِ هُنَاكَ فِى زَمَنِ الرَّذَائِلِ وَالمَخَازِى قَد غَوَت !! ... ؛ وَلِذَاكَ دَعْنِى فَإنَّنِى !! ... ؛ وَلِذَاكَ دَعْنِى فَإنَّنِى سَأسِيرُ وَحْدِى فِى المَدَائِنِ وَالدُّرُوب !! .. ؛ أقْتَاتُ مَعْنَى الحُزْنِ فِى لَيْلِ المَآسِى !! ... ؛

---

(١) ـ فُلانٌ يَمْضِى عَلَى هُدَى : أى عَلَى بَصِيرَةٍ .

(٢) ـ ثَابَ فُلانٌ إلَى رَشَدِهِ : أى عَادَ وَرَجِع .

وَالخُطُوب !!... ؛ أَمْضِى كَمَلاَّحٍ !!... ؛ أَمْضِى كَمَلاَّحٍ تُطَارِدُهُ رِيَاحُ القَهْرِ فِى بَحْرِ الضَّيَاع !!... ؛ أَمْضِى كَعَبْدٍ مِلْكَ نَخَّاسٍ يَعِيشُ مَصِيرُهُ أَن يُشْتَرَى أَو أَن يُبَاع !!... ؛ أَنَا قَد كَفَرْتُ بِكُلِّ أَعْرَافِ الحَيَاه !!... ؛ لا فَرْقَ بَعْدَ اليَوْمِ عِنْدِى بَيْنَ أَفْئِدَةِ المَلائِكِ وَالطُّغَاه !!... ؛ عُلِّمْتُ فِى يَوْمِى اللَّعِينِ حَقِيقَةً ؟!!... ؛ الحَقُّ عِنْدَ النَّاسِ شَىْءٌ لا يُرَى إِلاَّ سِوَاه ؟!!... ؛ دَعْ أَمْرَ قَلْبٍ أَو عُقُولٍ إِنَّهَا وَهْمٌ هُنَا !!... ؛ إِنَّ الشَّرِيعَةَ فِى زَمَانِى تَقِيسُ كُلٌّ حَسْبَ مَا مَلَكَت يَدَاه !!... ؛ وَلِذَا فَدَعْنِى لا تُمَهِّل إِى وَلا تَقُل انْتَظِر !!... ؛ سَأَعُودُ ثَانِيَةً لأَنْسَى الحُزْنَ فِى تِيهِ السَّفَر !!... ؛ سَيَقُولُ قَوْمِى ظَلَّ يَجْتَازُ الدُّرُوبَ لِكُلِّ أَزْمِنَةِ الحَيَاةِ وَلِلمُحَالِ قَد اخْتَرَق !!... ؛ ضَاعَت رُؤَاهُ فَعَاشَ فِى وَهْمِ السَّرَابِ !!... ؛ هُنَاكَ فِى قَلْبِ الجَحِيمِ !!... ؛ قَد احْتَرق ... ؛ هَذَا أَنَا !! ... ؛ هَذَا أَنَا !!... ؛ وَسْطَ الرِّيَاح !! ... ؛ رُوحٌ مَلِيئَةٌ !!... ؛ بِالمَوَاجِعِ !! ... ؛ وَالجِرَاح !!... ؛ وَغَداً هُنَاكَ القَبْرُ فِى طَرَفِ المَدِينَةِ سَاكِنٌ وَسْطَ الظَّلام !!... ؛ سَكَنَ الفُؤَادُ فَلا رَجَاءَ هُنَاكَ لِلدُّنْيَا اللَّعِينَةِ لا مَلام !!... ؛ قَبْرٌ حَزِينٌ خَاشِعٌ !!... ؛ صُنِعَت حِجَارَتُهُ هُنَاكَ مِنَ الكَآبَةِ وَالدُّمُوع !!... ؛ فَإِذَا أُرِيدَ الحُزْنَ يَوْماً عِنْدَهُ !!... ؛ فَابْكُوا وَلَكِن !!... ؛ فِى خُشُوع !!.﴾ . (١) .



(١) ـ «مَا بَيْنَ بَدْئِى وَالخِتَام» مِن قَصَائِدِ دِيوَانِى «عِنْدَمَا نَجْلِس سَوِيًّا» .

.....

ـ الرِّسَالَةُ السَّادِسَة : .(١)

✿ ـ لا لِقَاء !!
(وَدَائِماً صَخْرَةُ الوَهْمِ وَالشَّقَاء؟!!
فِى انْتِظَارِ الكَلِمَاتِ الخَرْسَاء !!)

.....

وَعُدتُ !! ؛ وكَذَا هُوَ المَصِيرُ دَوْمَاً !! ؛ وَلِذَا فَإِنِّى لَم أَعُد أَحْزَن !! ؛ لَقَد رُفِعَت الأَقْلام !! ؛ وَجَفَّت الصُّحُف !! ؛ إِنَّهُ قَدَرِى !! ؛ وَلا مَهْرَبَ لِلْمَرْءِ مِن أَقْدَارِهِ !! ؛ لَعَلَّ فِى الشَّقَاءِ حِكْمَةٌ لَم أَقِف عَلَيْهَا !! ؛ وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ ؛ فَسَأَمْضِى ؛ إِذَا كَانَت المَعَاذِيرُ لا تَشْفَع ؛ فَكَذَلِكَ اليَأْسُ لا يُجْدِى وَلا يَنْفَع ؛ كَانَ مَا كَان !! ؛ وَسَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ !! ؛ لا بَأس ؛ إِذَا كَانَ الكَأْسُ قَد نُزِفَ أَكْثَرُهُ ؛ فَلَم تَزَل هُنَالِكَ بَقِيَّة ؛ مَازِلْتُ قَادِراً عَلَى التَّحْلِيقِ فِى سَمَاوَاتِ الشِّعْرِ وَالكَلِمَات ؛ وَكَيْفَ لا ؟!! ؛ وَأَنَا لا أَرَى مَلائِكَةَ الشِّعْرِ إِلاَّ فِى زَمَنِ المِحْنَةِ وَالمَأْسَاة ؟!! ؛ وَلَكِن ؟!! ؛ وَلَكِن آهٍ مِن مَرَارَةِ التَّجَارِيب !! ؛ وَلَهْفِى عَلَى هَذَا العُمْرِ الحَزِينِ الذَّابِلِ !!

.(١) ـ مِن هَاهُنَا بَدَأَت الرَّسَائِلُ المُسْتَحْدَثَة .

✿ لا أُبْصِرُ هَـذَا العُمْرَ سِوَى ذِكْـرَى !!
كَخَيَـالٍ ضَلَّ طَرِيقاً !!... ؛ أو كَعُيُونٍ
حَائِرَةٍ سَكْرَى !!
كَرِيَاحِ خَرِيفٍ تُعْـوِلُ فِى جَـوْفِ
سُكُونِ اللَّيْـل !!
كَالفَارِسِ أَلْقَوْهُ بِحَـرْبٍ لَكِن مِن
غَيْرِ سُيُـوفٍ أو خَيْل !!
مَخْدُوعٌ إِذ ظَنَّ بِأَنَّ الأَرْضَ تُهَادِنُ
هَـذَا الشِّعْـرَ المَحْزُونَ الحَالِم !!
فَالشِّعْرُ بِضَـاعَةَ لا تَسْوِى وَضَـلالُ
العَـالَمِ حَـقٌّ إِى أَنْتَ المَجْنُونُ
الـوَاهِـم !!
الأَرْضُ سَتُعْـطِى أَحْـلامَ النَّـاسِ بِلا
أَجْـرٍ وَسَتَنْسَى هَـوَاكَ !!
حَـرِّق أَشْعَـارَكَ لا تَأْسَفْ لا شَـىْءَ
هُنَـاكَ !!
لا تُعْطِى ثِمَـارَكَ مَـن يَجْهَـل لا تَجْهَـر
لِلمَـلأ هُنَالِكَ بِالأَسْـرَار !!

سَتَعيشُ القِدِّيسَ الزَّاهِدَ وَتُكَافَأُ
بِجَزَاءِ الكُفْرِ هُنَالِكَ فِى جَوْفِ
النَّار !!
مَزِّق كَلِمَاتِ الوَجْدِ المَزْعُومِ
لِتَمْضِ بِأىِّ طَرِيقٍ أو دَرْب !!
إِى سِر بِفُؤادٍ لا يَدْرِى كُلَّ خَيَالاتِ
العِشْقِ لِتَلْعَن كُلَّ كَآبَاتِ الحُب !! ✿ (١).



---

(١) ـ كُلُّ مَا يَأْتِى مِن قَصَائِدٍ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ ؛ وَالَّتِى تَجِدُهَا بَيْنَ هَذَيْنِ القَوْسَيْنِ ✿ ✿ ؛ فَإِنَّمَا هِىَ مِن أَشْعَارِى .

.....

ـ الرِّسَالَةُ السَّابِعَة :

۞ ـ لِمَاذَا ؟!!

.....

لَمَاذَا ؟!! ؛ لِمَاذَا ؟!! ؛ لَسْتُ أَدْرِى !! ؛ وَلَكِنِّى أَعْلَمُ أَنَّ السَّيْرَ فِى طَرِيقٍ مَجْهُولٍ وَأَنَّ السَّعْى عَلَى دَرْبٍ ضَبَابِىٍّ مُخِيفٍ هُوَ قَدَرِى الَّذِى يَنْتَظِرُنِى !! . أَتَأَمَّلُ فِى ذَلِكَ الَّذِى قَد كَان ؛ وَأُحَاوِلُ أَن أَبْحَثَ عَنِ الأَسْبَابِ الَّتِى أَوْصَلَتْنِى إِلَى الوُقُوفِ عِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَةِ الغَرِيبَةِ اللَّعِينَةِ ؟!! ؛ فَلا أَجِدُ جَوَابَاً سِوَى هَذِهِ الطَّبِيعَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِى فُطِرْتُ عَلَيْهَا !! ؛ دَائِمَاً مَا كُنْتُ أَمْضِى فِى طَرِيقِى الَّذِى تُؤَدِّى نِهَايَتُهُ إِلَى النَّصْرِ وَالْمَجْدِ الَّذِى أَرْتَجِيه ؛ فَإِذَا مَا عَبَّدتُ السَّبِيلَ وَجَعَلْتُهُ مُذَلَّلاً مُمَهَّدَاً وَاضِحَاً ؛ إِذَا بِى انْصَرِفُ عَنْهُ لِدَاعٍ مِن دَوَاعِى الرُّوحِ ؛ ثُمَّ تَكُونُ النِّهَايَةُ أَن أَجْنِى الخَسَارَةَ هَاهُنَا وَهَاهُنَا !! ؛ ثُمَّ أَعُودُ مِن جَدِيدٍ لأَمْضِى عَلَى دَرْبِ الحَيَاةِ كَأَنِّى مَا صَنَعْتُ شَيْئَاً مِن قَبْل !!... ؛ عَشْرُ سَنَوَاتٍ مَضَت فِى ظِلِّ هَذَا الأُسْلُوبِ البَرِىءِ السَّاذَجِ !! ؛ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ مَرِيرَةٌ ؛ لِكُلِّ فَصْلٍ مِنْهَا حَاشِيَةٌ وَذَيْلٌ بِمَقَامِ الأَصْلِ وَالنَّصِّ وَالْمَتْنِ !! ؛ الحُبُّ !! ؛ وَالعَشِيرَةُ !!... ؛ وَجْهَانِ لِعُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ مُزَيَّفَةٍ !! ؛ صَنَعَا مِنِّى تَارِيخَاً مِنَ المَآسِى وَالعِبَرِ !! ؛ شَيَّخَا الرُّوحَ !! ؛ وَأَذْبَلا الجَسَد !! ؛ صَيَّرَانِى مَحْضَ بُرْكَانٍ مِنَ الحُزْنِ وَالكَآبَةِ وَالشَّجَن !! ؛ جُعِلَت نَفْسِى كَلَيْلَةٍ

سَوْدَاءِ تَمُوجُ بِالحِقْدِ وَالغَضَبِ وَالكَرَاهِيَة !! ؛ أَنْذَرَنِى أَبِى ـ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ ـ قَبْلَ يَوْمِ حِمَامِهِ مِن صُرُوفِ الدُّنْيَا الَّتِى تَهْجُمُ مِن دُونِ إِخْبَارٍ أَو تَوَقُّعٍ ؛ وَمَا دَرَى ـ شَرَّفَهُ اللهُ بِالجَنَّةِ ـ أَنَّ السِّهَامَ الغَادِرَةَ سَتَأْتِى مِن قَوْمِى لا مِن سِوَاهُم ؛ كَانَ يُعْجَبُ بِمَنْطِقِى وَحِكْمَتِى ؛ وَلَكِنَّهُ مَا كَانَ يَعْلَمُ ـ نَوَّرَ اللهُ ضَرِيحَهُ ـ أَنَّنِى فِى الحُبِّ مُغَامِرٌ طَيَّاشٌ لا يَضَعُ النَّتَائِجَ فِى الحُسْبَانِ وَلا يَنْظُرُ فِى العَوَاقِبِ !! ؛ وَأَنَّ الحُبَّ سَيَجْعَلُنِى أَحْيَا كَمَن يَحْيَا بِوَسْطِ الفَلاةِ أو فِى الخَرَائِبِ !! ؛ رَحِمَ اللهُ التَّقِيَّةُ النَّقِيَّةُ الشَّرِيفَةُ أُمِّى وَطَيَّبَ ثَرَاهَا !! ؛ مَازِلْتُ أَذْكُرُ قَوْلَهَا !! :

﴿ سَتُكْتَبُ نِهَايَتُكَ بِيَدِكَ لا بِيَدِ سِوَاك ﴾

وَكَذَلِكَ كَانَ يَا أُمَّاه !!

إِنْسَانٌ غَرِيبٌ حَقّاً !!... ؛ غَرِيبٌ فِى فِكْرِى !! ؛ وَفِى وُجْدَانِى !! ؛ وَفِى طِبَاعِى !! ؛ وَفِى سُلُوكِى !! ؛ وَفِى نَظْرَتِى لِلْحَيَاةِ وَالكَوْن !! ؛ وَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنَ الدَّرْسِ ... ؛ وَلَكِن ؟!! ؛ فَاتَ الأَوَانُ يَا صَدِيقِى !!

فَلِمَاذَا ؟!! ؛ لِمَاذَا ؟!!

٥

لِمَاذَا ؟!!

لِمَاذَا أَنْتَ مُغْتَرِبٌ ؟!!

لِمَاذَا أَنْتَ مُغْتَرِبٌ عَن العَالَم ؟!!

لِماذا أنتَ مُختَلِفٌ عَن الدُّنيَا ؟!!
لِماذا داخِلَ المَاضِى تَصُوغُ الشِّعْرَ
تُخبِرُ لَم أزَل أذكُر وَقَد كُنَّا ؟!!
لِماذا الحُلْمُ فِى زَمَنِى كَأشْلاءٍ
مُمَزَّقَةٍ ... ؛ بِلا مُدُنٍ ... ؛ بِلا
مَرْسَى ... ؛ بِلا شُطْآن ؟!!
لِماذا الخَيْرُ وَالإيمَانُ لِى دَرْبٌ ... ؛
وَثَمَّتَ لا أرَى دَوْمَاً ... ؛ سِوَى
الجَلاَّدِ وَالصُّلْبَان ؟!!
لِكُلِّ النَّاسِ تَارِيخٌ وَأزْمِنَةٌ وَأرْضٌ
يُنْسَبُونَ لَهَا ... ؛ وَتَأتِى قَصَائِدِى
وَلْهَى مُبَدَّدَةٌ ... ؛ لأنِّى كُنْتُ أكْتُبُهَا
... ؛ مِن لا زَمَن !!... ؛ مِن لا وَطَن !!
... ؛ مِن لا مَكَان !!
لِماذا عُمْرُكَ البَاقِى تُهَدِّرُهُ بِأُغْنِيَةٍ
عَنِ الآلامِ وَالشَّجَنِ ؟!!
أمَلْعُونٌ بِهَاذِى الأرْضِ ذَا قَدَرٌ ؟!! ؛
أم أنَّكَ مُولَعٌ دَوْمَاً بِدَرْبِ القَهْرِ
وَالمِحَنِ ؟!!

سُنُونٌ قَد غَدَت كَاللَّحْظَةِ السَّكْرَى !!

فَهَل مِن حِكْمَةِ الشُّعَرَاءِ أن تَمْضِى

بَقِيَّاتُ الحَيَاةِ بِمِثْلِ قَصِيدَةٍ

حَيْرَى ؟!!

سِهَامُ الدَّهْرِ لا تَرْأف وَلا تَرْحَم !!

مُقَيَّدُ وَسْطَ أغْلالٍ بِكُلِّ صَبَاحِ

أيَّامِك !!

فَهَل قَبْلَ الغُرُوبِ مُحَالٌ فِى مَصِيرِكَ

أنْتَ أن تَحْكُم ؟!!﴾ .



.....

ـ الرِّسَالَةُ الثَّامِنَة :

✪ ـ لِمَاذَا أَيْضَاً ؟!!

.....

سَأَمْضِي!! ؛ نَعَم سَأَمْضِي !! ؛ وَلَكِن ؟!! ؛ إِلَى أَيْن ؟!! ؛ سُؤَالٌ مُحَيِّرٌ !! ؛ مَا ظَنَنْتُ أَبَدَاً أَنَّنِي سَأَقِفُ فِي هَذَا المَوْقِفِ اللَّعِين !! ؛ أَن أَجْهَلَ وُجْهَتِي !! ؛ ذَلِكَ مَا لا يُحْتَمَل !! ؛ كَيْفَ كَانَ ذَلِك ؟!! ؛ أَيْنَ عَقْلِي ؟!! ؛ وَلَكِن لِمَاذَا أَلُومُ نَفْسِي ؟!! ؛ إِنَّ حَوَادِثَ أَيَّامِي دَائِمَاً مَا كَانَت تُخْبِرُنِي بِأَنَّ هُنَاكَ لَعْنَةٌ تُطَارِدُنِي وَتُجْبِرُنِي عَلَى أَن أَظَلَّ أَمْضِي فِي عَالَمِ التِّيهِ وَاللاشَيْء !! .

لِمَاذَا ؟!! ؛ سُؤَالٌ قَد ضِقْتُ ذَرْعَاً مِن كَثْرَةِ طَرْحِهِ عَلَى الدُّنْيَا وَالحَيَاة !! ؛ وَهُوَ أَيْضَاً قَد مَلَّ مِنِّي !! ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ لِي : بَل لِمَاذَا لا تَكُفُّ أَنْتَ عَن هَذَا السُّؤَال ؟!! ؛ أَنْت تَعْلَمُ أَن لا جَوَاب !! ؛ فَالرَّحْمَةُ لِي وَلَكَ وَلِشَيْطَانِ حُزْنِك !! ؛ الرَّحْمَةُ لَنَا جَمِيعَاً ؛ فَانْتَهِ خَيْرٌ لِي وَلَك !! .

نَعَم !! ؛ لَقَد أَفْرَطْتُ وَذَهَبْتُ إِلَى حَيْثُ لا وُجُودَ لِلصَّبْرِ وَالتَّجَلُّدِ !! ؛ وَلَكِن لا وَاللهِ !! ؛ مَا كُنْتُ أَبَدَاً بِخَائِرِ العَزْمِ وَالإِرَادَةِ !! ؛ وَلَو كُنْتُ مِمَّن يَفْزَعُ وَيَجْزَعُ لَسَقَطتُ عَلَى الطَّرِيقِ مُنْذُ زَمَنٍ ؛ وَلَكِنَّ أَيَّامِي الَّتِي ضَاعَت سُدَىً هِيَ مِن عُمُرِي وَحَيَاتِي ؛ وَأَنَا خَدَمْتُ أَيَّامِي الَّتِي خَلَت كَي تَخْدُمَنِي الأَيَّامُ الآتِيَة !! ؛ وَهَا هِيَ الحَيَاةُ قَد حَادَت مَعِي عَن قَانُونِهَا وَسُنَّتِهَا !! ؛ فَهَل يُعَدُّ

عَجْزاً أن أجِدَ نَفْسِى مَدْفُوعَاً بَيْنَ الفَيْنَةِ وَالفَيْنَةِ إلَى سُؤالِهَا بِقَوْلِى :

﴿ لِمَاذَا ؟!! ﴾



٥ لِمَاذَا ؟!!...... ؛ لِمَاذَا يُعَايِثُ هَذَا الزَّمَانُ
هُنَالِكَ كُلَّ مَن يَأمُل !!..... ؛ وَمَن
يَبْسُم ؟!!
لِمَاذَا حَرَامٌ عَلَى مَن يُغَنِّى بِحُبِّ الحَيَاةِ
حَرَامٌ إذَا جَاءَ يَوْمَاً يُغَنِّى !!...... ؛
وَيَحْلُم ؟!!
أبِالكُفْرِ كَانَت تُوَادِعُ هَاذِى الحَيَاة ؟!!
... ؛ أيَبْكِى بِشَوْطِ الحَيَاةِ الأخِيرِ !!... ؛
وَيَضْحَكُ دَوْمَاً هُنَاكَ الجُنَاة ؟!!
إذَا كَانَ عَوْدٌ غَرِيبٌ كَأمْثَالِ لَحْنٍ كَئِيبٍ
كَمَا الصَّمْتُ بَعْدَ البُكَا وَالنَّشِيج .... ؛
فَقُل أنتَ يَا ابْنَ الحَيَاةِ عَلامَ المَسِيرُ مِنَ
البَدْءِ كُنَّا ؟!!... ؛ عَلامَ الضَّجِيج ؟!!
مَعَ البَدْءِ كُنَّا كَمَا الفَجْرِ يَغْدُو بِحُلْمٍ
لِصَفْوِ الدُّرُوبِ وَحُبٌّ نَرَاهُ كَمَا الوَرْدِ

أَزْهَـرَ تَـحْتَ الشُّمُوسِ وَثَمَّت بِنَصْرِى
يَكُـونُ الإِيَاب !!
وَعُـدْنَا عَـلَى مَرْكَبِ الحُـزْنِ !!... ؛ عُـدْنَا
بِظَـنٍّ تَـهَاوَى !!... ؛ وَخَـاب
وَقُـلْنَـا !!... ؛ وَقُلْنَـا لِخِلٍّ صَغِيـرٍ تَـمَهَّل
فَمَـاذَا الـرَّجَاءُ إِذَا عَـاشَ زَهْـرِى !!... ؛
بِأَرْضٍ خَـرَاب ؟!!﴾ .

.....

ـ الرِّسَالَةُ الثَّامِنَة :

۞ ـ ألا يَا قَلْبُ لاتَحْزَن !!

.....

لِمَاذَا الحُزْن؟!! ؛ إِذَا كَانَ الرَّحِيلُ عَن هَذِهِ الحَيَاةِ عَمَّا قَرِيبٍ أَمْرٌ مُقَدَّرٌ لا رَيْبَ فِيهِ ؛ فَلِمَاذَا لا نَمْضِى فِى الدُّنْيَا وكَأَنَّنَا نَبْدَأُهَا مِن جَدِيد ؟!! ؛ لَم تَزَل هُنَالِكَ بَعْضُ آمَالٍ تَستَأْهِلُ أن نَعُودَ إِلَى الدُّرُوبِ بِهِمَّةٍ عَالِيَةٍ لا تَعْرِفُ اليَأْسَ وَلا القُنُوط ؛ أَعْلَمُ أَنَّنِى قَد أَغْدُو بَيْنَ طَرْفَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا مَحْضَ ذِكْرَى ؛ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِك ؛ فَلِمَاذَا لا أَصْنَعُ مَا يَذْكُرُنِى بِهِ النَّاسُ بَعْدَ مَوْتِى ؟!! ؛ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الأَمَلُ اليَتِيمُ الَّذِى لَم يَبْقَ لَنَا سِوَاه ؛ فَلَعَمْرِى إِنَّهُ لَقَمِينٌ بِالسَّعْى وَالمُثَابَرَةِ وَالكِفَاح ؛ فَكَيْفَ وَهُنَاكَ بَعْضُ آمَالٍ أُخْرَى ؟!!.

.....

۞ ألا يَا قَلْبُ لا تَحْزَن !!
ألا يَا قَلْبُ لا تَحْزَن !!
فَكُلُّ الذِّكْرَيَاتِ غَداً
بِقَبْرِ العُمْرِ قَد تُدْفَن !!
ألا يَا قَلْبُ لا تَحْزَن !!
ألا يَا قَلْبُ لا تَخْجَل !!

إِذَا يَغْدُو المَصِيرُ سُدَى
سَتُنْسَى الرِّحْلَةُ العَمْيَاءُ
عَنْ قُرْبٍ !! ... ؛ وَتُنْسَى !!
... ؛ عِنْدَمَا تَرْحَل !!
أَلا يَا قَلْبُ أَثْقَالٌ بِلا ذَنْبٍ !!
إِذَا صَمْتٌ إِزَاءَ قَضِيَّتِى وَحْدِى !! ؛
وَحَارَ الكَوْنُ فِى أَمْرِى !!... ؛
أَجِبْنِى ... ؛ أَنْتَ يَا قَلْبِى !!
أَجِئْتَ العَالَمَ الأَرْضِىَّ مُخْتَارًا ؟!!
أَجِئْتَ العَالَمَ الأَرْضِىَّ مُخْتَارًا ؟!!
أَم أَنَّكَ جِئْتَ عَن جَبْرٍ !! ؛ لِتَحْيَا
عَصْرَ مَرْثِيَةٍ !!... ؛ تَنُوحُ وَتَنْفُثُ
النَّارَا ؟!!
لِهَاذِى الأَرْضِ أَنْهَارٌ تُفِيضُ الخَيْرَ
فِى دِعَةٍ وَتَحْنَانٍ ... ؛ وَلِى نَهْرٌ
أَنَا وَحْدِى !!... ؛ بِهِ دَمْعِى
وَأَشْجَانِى !!
أَلا يَا قَلْبُ لا تَحْزَن !!
سَئِمْتَ الكَوْنَ أَجْمَعَهُ !!... ؛

وَذا قَدَرٌ لأحْلامِي !!
ألَيسَ العُمْرُ يَعْقُبُهُ ... ؛ بُعَيْدَ
العَيْشِ فِي عَبَثٍ ... ؛ نَقُولُ
لِرُوحِنَا الحَيْرَى ... ؛ ألا قَد حَانَ
مَوْعِدُهَا ... ؛ فَلا أسْرٌ وَلا كَمَدٌ
... ؛ فَنَامِي !!... ؛ بَعْدَنَا نَامِي !! ﴾ .

.....

ـ الرِّسَالَةُ التَّاسِعَة :

✡ ـ وَهَكَذَا !!

.....

وَهَكَذَا !! ؛ وَهَكَذَا عَزَمْتُ عَلَى البَدْءِ مِن جَدِيد ؛ وَلَكِنِّى قَد أَخَذتُ عَلَى نَفْسِى أن أَخُوضَهَا بِلا مُبَالاةٍ !! ؛ نَعَم !! ؛ لَن أُبَالِى بَعْدَ اليَوْمِ بِأَمْرِ قَلْبٍ أو هَوَى !! ؛ لَقَد سَئِمْتُ مِن العِشْقِ وَمِن أَحْوَالِهِ !! ؛ وَإِذَا كَانَ لابُدَّ مِنَ هَذَا البَلاء ؛ فَلْيَكُن ؛ وَلَكِن سَأَجْعَلُهُ تَحْتَ قَدَمِى بَعْدَ أن كُنْتُ أَرَاهُ يُحَلِّقُ فِى كَبِدِ السَّمَاء ؛ وَهَكَذَا !! ؛ تَزَنْدَقَت المَشَاعِرُ بَعْدَ أن كَانَت مِن صَفْوَةِ الأَوْلِيَاء !! ؛ وَإِذَا كُفِىَ المَرْءُ مِن أَمْرِ الطَّعَنَاتِ وَالجُرُوح ؛ فَلْيَعِش بِالحِسِّ المَادِىِّ وَلْيُرِح الفُؤَادَ وَالرُّوح !! ؛ وَلَئِن كَانَت الهَزَائِمُ قَد أَبْلَغَت !! ؛ فَإِنَّ ثِمَارَ الكُفْرِ بِالقَضِيَّةِ قَد أَيْنَعَت !! ؛ وَإِذَا كَانَت رِيَاحُ العِنَادِ قَد تَمَادَت !! ؛ فَإِنَّ نَسَمَاتِ الصَّفَاءِ قَد ذَبُلَت وَبَادَت !! ؛ فَيَا سُحُبَ العَبَثِ الأَهْوَجِ اللَّعِينِ اسْمَعِى !! ؛ وَيَا جُيُوشَ الطَّيْشِ الَّذِى لا يَهْدَأُ وَلا يَمَلُّ فَلْتَمْضِ مَعِى !!.



.....

ـ الرِّسَالَةُ العَاشِرَة:

۞ ـ بُعِثَ النَّبِىّ !!

.....

۞ بُعِثَ النَّبِىّ !!
بُعِثَ النَّبِىّ !!
بِرِسَالَةِ الكُفْرَانِ وَالطَّيْشِ الغَبِىّ !!
يَا أَيُّهَا الرُّهْبَانُ فِى دَيْرِ المَعَاصِى
وَالغِوَايَةِ إِنَّهُ بُعِثَ النَّبِىّ !!
فَلْتَشْرَبُوا خَمْرَ البَشَاعَةِ وَالعَبَس !!
وَلْتَشْرَبُوا نَخْبَ احْتِضَارِ الرُّوحِ مَرْحَى
لا جُنُودٌ لِلْفَضِيلَةِ بَعْدَ هَذَا اليَوْمِ كَلاً
وَلا عَسَس !!
مَاتَت شِعَارَاتِى القَدِيمَةُ فِى جَحِيمِ
هَزَائِمِى !!
كُلُّ ذَنْبٍ قَد يَكُونُ فَإِنَّهُ نَصْرٌ وَتَبًّا
لِلْخَصِيمِ اللائِمِ !!

إِنّى نِتَاجُ العَصْرِ يُنْكِرُ كُلَّ خُلْقٍ فِى
البَرِيَّةِ فَاضِلٍ !!... ؛ وَيَرَى التَّفَاحُشَ
وَالمَجَانَةَ تَاجَ رَأْيٍ عَاقِلٍ !!
حَمَلَ الأُلَى غَبَرُوا نُبُوَّاتٍ عَلَى قَدْرِ
القَرَائِحِ وَالفِكَر !!... ؛ كَانُوا بِأَزْمِنَةِ
الحَقَائِقِ وَالهُدَى !!... ؛ وَأَنَا نَبِىٌّ !!... ؛
فِى الزَّمَانِ الهَازِلِ !! ﴾ .



رَسَائِلُ
العهد الجديد



.....

ـ الرِّسَالَةُ الأُولَى :

✿ ـ حَنَان !!

﴿ رَاهِبَةٌ فِى دَيْرِ النَّظَرَاتِ السَّكْرَى !! ﴾ (١).

.....

((حَنَان)) !!... ؛ أَوَّلُ فَتَاةٍ قَابَلَتْنِى فِى حَيَاتِى بَعْدَ أَن خَرَجْتُ إِلَى الدُّنْيَا بِنَفْسٍ جَدِيدَةٍ وَبِاسْمٍ جَدِيدٍ !!... ؛ ((عُمَر إِيزِيل)) !! (✿) ... ؛ حَنَان !! ... أَهْدَيْتُ لَهَا بَعْضَ كُتُبِى (❀) ... ؛ فَإِنَّهُ وَجْهٌ قَد ظَهَرَ فِى طَرِيقِ حَيَاتِى ؛ فَنُقِشَت مَعَالِمُهُ فِى ذَاكِرَتِى مُؤْذِنَةً بِأَنَّهُ سَيَظَلُّ مَذْكُوراً .

.....

خَرَجْتُ إِلَى ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ ؛ وَكَانَ الْيَوْمُ يَوْمُ سُوق ؛ كُنْتُ أَسِيرُ فِى الطَّرِيقِ لا أُفَكِّرُ بِشَيْءٍ سِوَى مَا يَكُونُ دَوْمَاً مِن أَمْرِ كُتُبِى وَمُؤَلَّفَاتِى ؛ ثُمَّ !!؟... ؛ ثُمَّ نَظَرْتُ نَاحِيَةً هَكَذَا مِن دُونِ قَصْدٍ مُرَاد ؛ فَإِذَا بِفَتَاةٍ تَقِفُ قُدَّامَ مَتْجَرٍ كَبِيرٍ ؛

---

(١) ـ لَيْسَت هَذِهِ هِىَ حَنَان الَّتِى ذَكَرْتُهَا فِى كِتَابِى ((كَلِمَاتٌ فِى مَوْسِمِ الخَرِيف)) ؛ وَالَّتِى كَانَت أَوَّلُ رِسَالَةٍ كَتَبْتُهَا إِلَيْهَا بِتَارِيخ [التَّاسِعُ عَشَر مِن فِبْرَايِر ٢٠٠٠م] ؛ فَشَتَّانَ شَتَّان !! ؛ أَيْنَ الثَّرَى مِنَ الثُّرَيَّا !!؟ ؛ إِنَّهَا تِلْكَ الَّتِى صَدَّرْتُ رَسَائِلِى إِلَيْهَا بِقَوْلِى : =...

نَظَرْتُ إِلَيْهَا ؛ إِنَّهَا هِيَ ؛ إِنَّهَا حَنَان ؛ تِلْكَ الفَتَاةُ البَضَّةُ الجَمِيلَةُ الَّتِي كُنْتُ آتِي إِلَيْهَا مِن قَبْلُ إِذَا مَا أَرَدتُ شِرَاءَ بَعْضِ مَا احْتَاجُهُ لأَمْرِي ؛ عَرِفْتُهَا لأَوَّلِ

حَنَان ...!!

وَجْهٌ !!... ؛ سَيَسْكُنُ بِقَلْبِي حَتَّى النِّهَايَةِ !!

وَصَوْتٌ !!... ؛ سَيَعِيشُ صَدَاهُ بِدَرْبِ رِحْلَتِي

إِلَى يَوْمِ خَاتِمَتِي!!.

إِنَّهَا حَنَان !! ؛ الَّتِي ذَكَرْتُهَا فِي مَلْحَمَةِ « المُنْتَحِرُون » ؛ فَقُلْتُ :

« إِي بَعْدَهَا !!... ؛ إِي بَعْدَهَا جَاءَت حَنَان !!... ؛ كَانَت لَنَا أُنْشُودَةٌ تُتْلَى !! ... ؛ ذُقْنَا بِهَا صِرْفَ البَرَاءَةِ وَالعُذُوبَةِ وَالأَمَان !!... ؛ الشَّعْرُ كَاللَّيْلِ البَهِيمِ وَرِيقُهَا أَنْفَاسُهَا كَالصُّبْحِ إِن صُبْحٌ تَهَادَى أَو تَنَفَّس !!... ؛ أَنَا كُنْتُ رَاهِبُ عَصْرِهَا !! ... ؛ وَكَذَاكَ هِيْ كَانَت لَنَا سِفْرَ الهَوَى ... ؛ وَبَرَاءَةَ العَهْدِ المُقَدَّس !! ... ؛ كَانَت حَقِيقَةُ بَعْثَتِي!!... ؛ وَهُنَاكَ فِي فَمِهَا ... ؛ هُنَاكَ نُبُوَّتِي !!... ؛ عِشْنَا !!... ؛ عِشْنَا وَلَكِن قَد أَتَت !!... ؛ أَصْدَاءُ مِن مَجْهُولِ عَصْرٍ قَد عَلَت !! ... ؛ جَاءَ الغَنِيُّ المُقْتَدِر !!... ؛ وَبَقِيتُ وَحْدِي تَائِهاً !! ... ؛ أَبْكِي عَلَى زَمَنٍ غَدِر!!.

رَحَلَت بِدَمْعٍ يَسْتَقِي!!... ؛ مِن نَهْرِ أَوْدِيَةِ الأَلَم !!... ؛ أَسِفَت بُعَيْدَ فَوَاتِهِ !! ... ؛ ذَهَبَت لِقَبْرٍ مِن نَدَم !!... ؛ وَأَنَا هُنَا مِن يَوْمِهَا !!... ؛ مَازَالَ يَعْلُونِي الدَّهَش !!... ؛ أَحْيَا عَلَى أَرْضِ العَدَم !!.» .

وَأَمَّا هَذِهِ ؛ فَهِيَ فَتَاةُ العِقْدِ الثَّانِي مِن هَذَا القَرْن .

(✿) ـ « عُمَر إِيزِيل » : هُوَ الاسْمُ الَّذِي وَقَّعْتُ بِهِ أَكْثَرَ أَعْمَالِي الَّتِي نَشَرْتُهَا =....

٢٠ ....

في الأُرْدُن ؛ وَالَّتِي جَاءَت مُقَدِّمَاتُهَا تَدُلُّكَ عَلَى طَبِيعَةِ هَذِهِ النَّفْسِ بَعْدَ أن تَغَيَّرَت وَتَبَدَّلَت مَفَاهِيمُهَا ؛ فَقَد جَاءَ فِي صَفْحَةِ الإِهْدَاءِ مِن كِتَابِ « المَقَالات الشَّوَارِد » مَا صُورَتُهُ :

﴿ أَنَا عُمَر إِيزِيل !!... ؛ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا سِوَاي !!
...... ؛ سَأَصْنَعُ مَا أُرِيد !!... ؛ سَأَتَحَدَّى كُلَّ أَمْرٍ
أَخْشَاهُ وَأُلاقِيه ؛ أو سَأُقَابِلُهُ وَأُواجِهُهُ عَمَّا قَرِيب !!
... ؛ أَنَا مَن أَكَلَ وَشَرِبَ التَّجَارِبَ حَتَّى أَضْحَى
لا يُنْصِتُ إِلاَّ لِرَأْيِهِ ... ؛ وَمَا ذَاكَ إِلاَّ لأَنَّهُ لا يَرَى
سِوَى نَفْسِهِ !!... ؛ أَنَا ابْنُ المُحَال !!. ﴾ .

إِلَى زَمَنٍ أَرَدتُ فِيهِ أن أَحْيَا كَمَا يَحْيَا البَشَر ... ؛
وَلَكِنَّهُ أَبَى إِلاَّ أن أَمْضِي فِي دَرْبٍ مُظْلِمٍ لَعِينٍ لا
تَسْلُكُهُ سِوَى الشَّيَاطِين !!... ؛ وَمَن جَهِلَ أَسَالِيبَ
الشَّيْطَان ... ؛ لَم يَنْتَصِر عَلَيْه.... ؛ وَلَسْتُ أَنَا مَن
يَرْضَى بِالهَزِيمَة !!... ؛ إِلَى كُلِّ لَعْنَةٍ أَصَابَتْنِي بِدَهْرِي
الَّذِي مَضَى !!... ؛ أُهْدِي هَذَا الكِتَاب !!

القَادِمُ مِنَ الزَّمَنِ المَجْهُول
(عُمَر إِيزِيل)

".....................[21]

ثُمَّ جَاءَ نَصُّ المُقَدِّمَةِ الَّتِى كُتِبَت لِهَذَا الكِتَابِ - ((المَقَالات الشَّوَارِد)) - عَلَى هَذِهِ الصُّورَة:

((كُنْتُ فِيمَا مَضَى أرَى أنَّ كُلَّ امْرِىءٍ لابُدَّ أن تُهَيِىءَ لَهُ الحَيَاةُ دَوْرَهُ الَّذِى يَسْتَحِقُّهُ بَيْنَ أبْنَاءِ هَذِهِ الدُّنْيَا ... ؛ فَلَمَّا خَبِرْتُ الحَيَاةَ وَعَلِمْتُ مَا لَم أكُن أعْلَم !! ... ؛ أيْقَنْتُ أنَّهَا مَحْضُ حَرْبٍ لا يَنْتَصِرُ فِيهَا إلاَّ أمَرَاءُ الدَّهَاء !!... ؛ وَمِن يَوْمِئِذٍ نَزَعْتُ ثِيَابَ البَرَاءَةِ وَالسُّكُون ؛ وَاسْتَبْدَلْتُ بِقَلْبِى قَلْبَاً سِوَاه !! ... ؛ وَهَكَذَا يَتَحَوَّلُ أهْلُ الحُبِّ وَالسَّلام ... ؛ إلَى رِجَالاتِ مَكْرٍ وَحُرُوبٍ لا تَنْشَبُ إلاَّ تَحْتَ أسْتَارِ الظَّلام !!... ؛ وَمَن لَم يُقْدِم عَلَى القِتَالِ وَالنِّزَال ؟!! ... ؛ سَحَقَتْهُ الدُّنْيَا بِصُورَةٍ رَهِيبَةٍ لا تَرْحَم !!... ؛ وَأنَا لا أُرِيدَ أن أحْيَا عَلَى أرْضِ الضَّعْفِ وَالعَجْزِ وَالهَزَائِمِ !! .

.....

كَم حَاوَلْتُ أن أصْنَعَ السَّلامَ بَيْنِى وَبَيْنَ نَفْسِى ؛ ثُمَّ بَيْنِى وَبَيْنَ أبْنَاءِ هَذِهِ الدُّنْيَا ... ؛ وَلَكِن أبَت أقْدَارِى إلاَّ أن تَحُولَ دُونِى وَدُونَ كُلِّ رَغْبَةٍ تَدْعُو إلَى الحَقِّ وَالخَيْرِ وَالحُبِّ وَالجَمَال !!... ؛ وَجُعِلْتُ بَيْنَ أمْرَيْنِ لا ثَالِثَ لَهُمَا ؟!!... : إمَّا أن أرْكَنَ إلَى عُزْلَتِى ؛ فَتَمْضِى سَنَوَاتُ حَيَاتِى ؛ ثُمَّ تَأتِى المَنِيَّةُ وَيُقْدِمُ الرَّدَى ؛ وَتَنْتَهِى قِصَّتِى فِى هَذَا الوجُودِ بِلا نَصْرٍ وَلا ذِكْرٍ !! ... ؛ وَأمُوتُ فِى عُزْلَتِى كَمَن يَمُوتُ فِى سَجْنِهِ بَعْدَ أن عُوقِبَ بِقَضَاءِ جَمِيعِ أيَّامِ عُمْرِهِ بَيْنَ جُدْرَانِ هَذَا السِّجْنِ المُظْلِمِ الكَئِيب !!.

.... [22]

كَانَ عَلَىَّ إِمَّا أن أُسَلِّمَ رَقَبَتِى وأُعطِى مَصِيرِى عَن طَوَاعِيَةٍ وَاخْتِيَارٍ لِهَذَا الأَمْرِ الغَرِيبِ الَّذِى يَأْبَاهُ كُلُّ حُرٍّ غَيُورٍ ذِى طُمُوحٍ وآمَال !!... ؛ وَإِمَّا آلَةُ الحَرْبِ الَّتِى تَسْتَوْجِبُهَا طَبِيعَةُ هَذَا الزَّمَان ... ؛ مِن صَمْتٍ سَاكِنٍ وَلَكِنَّهُ يُنْكِرُ هُدُوءَ النَّفْسِ وِسَكِينَةَ الرُّوحِ !!... ؛ وَصَبْرٍ طَوِيلِ الذُّيُولِ وَلَكِنَّهُ لا يُقِرُّ بِشَىْءٍ اسْمُهُ القَنَاعَةُ وَالرِّضَى بِأَىِّ أَمْرٍ قَلَّ أَو كَثُر !!... ؛ وَالكِفَاحُ الَّذِى لا يُرِيدُ أن يَرَى خُطْوَةً تَمْشِى بِمُحَاذَاتِهِ فَضْلاً عَن أن تَسْبِقَهُ ؛ فَهُوَ لا يَبْغِى سِوَى المُقَدِّمَةِ الَّتِى تَأْنَفُ مِنَ المُشَارَكَةِ وَلا تَشْتَهِى إِلاَّ نَفْسَهَا وَحَسْب ؛ لا تُحِبُّ أن تَرَى أَحَداً فِى الدُّنْيَا مَعَهَا أو بِجِوَارِهَا !!... ؛ إِنَّهُ (عُمَر إِيزِيل) !!... ؛ كَانَ شِبْهَ مَلائِكِىٍّ !!... ؛ فَأَصْبَحَ يَسْعَى مَعَ الشَّيْطَانِ فِى دَرْبٍ وَاحِدٍ !!... ؛ وَإِن كَانَت لَهُ طَرِيقَتُهُ وَنَهْجُهُ وَفِكْرُهُ وَأُسْلُوبُهُ ؛ فَهُوَ مُنْفَرِدٌ بِنَفْسِهِ دَائِماً وَأَبَداً !! .

.....

هَذَا هُوَ (عُمَر إِيزِيل) !!... ؛ لَقَد كَانَ يَعْشَقُ الحُبَّ وَالسَّلام... ؛ فَأَصْبَحَ لا يَرَى الحَيَاةَ سِوَى مَعْرَكَةٍ مِنَ الكَرَاهِيَةِ وَالبَغْضَاءِ !!... ؛ وَلا يُبْصِرُهَا غَيْرَ حَرْبٍ مِنَ المَكْرِ وَالدَّهَاءِ وَالخِدَاعِ !!.

فَهَذَا هُوَ (عُمَر إِيزِيل) !!... ؛ الرَّجُلُ الَّذِى أَجْبَرَتْهُ الدُّنْيَا عَلَى أن يَبْدَأَ حَيَاتَهُ الجَدِيدَةَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ الرَّهِيبَة !!... ؛ وَمَا بَيْنَ حَنِينِهِ إِلَى مَا كَانَ فِى حَيَاتِهِ القَدِيمَةِ الَّتِى خَلَّفَهَا وَرَاءَهُ : مِن طَهَارَةٍ وَبَرَاءَةٍ وَحُبٍّ وَجَمَال !!... ؛ وَمَا

٢٣....................

يَحْيَاهُ الآنَ فِي حَيَاتِهِ الجَدِيدَةِ وَالَّتِي أَسَرَتْهُ وَدَفَعَتْهُ إِلَى دُرُوبِهَا دَفْعاً : مِن خِدَاعٍ وَنِفَاقٍ وَمَكْرٍ وَكَذِب !!... ؛ مَا بَيْنَ هَذِهِ وَتِلْكَ !!... : كَانَت هَذِهِ الكِتَابَات ... ؛ وكَانَت هَذِهِ الأَعْمَال !!... ؛ إِنَّهَا خُلاصَةُ تَجْرِبَةٍ مَلِيئَةٍ بِالتَّنَاقُضَات !! ... ؛ كَانَت !!... ؛ وَمَا تَزَال !!.)) انْتَهَى مَا أَرَدْنَاهُ مِن هَذِهِ التَّعْلِيقَة

(❀) ـ قُلْتُ فِي الأَصْل : ((حَنَان !! ... أَهْدَيْتُ لَهَا بَعْضَ كُتُبِي)) ؛ نَعَم ؛ أَهْدَيْتُ لَهَا الجُزْءَ الأَوَّلَ مِن كِتَابِي ((جَدَلِيَّةُ التَّجَلِّي وَالخَفَاء)) ؛ وَالمَنْشُورُ بِدَارِ البِدَايَةِ الأُرْدُنِيَّةِ ؛ وَهَذَا هُوَ نَصُّ الإِهْدَاء :

﴿ لَم يَمْضِ الأَمْرُ عَلَى مَا يُشْتَهَى !!... ؛ وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ !!... ؛ فَأَنَا مَا خَسِرْتُ شَيْئاً !! ... ؛ وَأَنْتِ كَذَلِكَ يَا صَدِيقَتِي !!... ؛ مَرَّ الأَمْرُ وَكَأَنَّهُ مَا كَانَ وَمَا جَرَى !!... ؛ وَلَكِنِّي مَازِلْتُ أَجْزِم ؟!!.... ؛ لَم تَزَل لِلرِّوَايَةِ بَقِيَّة !!.... ؛ لَم يَنْتَهِ الأَمْرُ بَعْد !!. ﴾ .

إِلَى غَانِيَةِ مَدِينَةِ الرِّيَاض

إِلَى ؟!!... : حَنَان

أُهْدِي هَذَا الكِتَاب

القَادِمُ مِنَ الزَّمَنِ المَجْهُول

(عُمَر إِيزِيل)

وَهْلَةٍ وَمَا أَنْكَرْتُهَا وَهِيَ تَرْتَدِي هَذَا النِّقَابَ الْمُسْتَحْدَثَ ؛ وَلَكِن ؟!! ؛ وَلَكِن مَا هَذَا الَّذِي جَرَى هَذِهِ المَرَّة ؟!! ؛ لَقَد نَظَرْتُ إِلَيْهَا ؛ فَنَظَرَت ؛ فَمَكَثَت النَّظَرَاتُ إِلَى حِين !! ؛ حَاوَلْتُ أَنَّ أَنْشَغِلَ عَنْهَا ؛ وَلَكِنَّهَا شَغَلَتْنِي !! ؛ فَقُلْتُ : لا بَأْسَ يَا صَبِيَّة !!... ؛ وَكَانَ مَا كَان !!.

.....

٥ وَذَهَبْتُ لِلسُّوقِ القَدِيم

وَذَهَبْتُ لِلسُّوقِ القَدِيم
أَمْشِي وَلا أَمْشِي فَإِنِّي حَائِرٌ
فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ الَّذِي مَا كَانَ
يَوْمَاً بِالرَّحِيم !!
وَذَهَبْتُ لِلسُّوقِ القَدِيم
أَمْشِي لِتَأْخُذُنِي الحَيَاةُ عَن
المَآسِي وَالهُمُوم !!
أَمْشِي تُرَاوِدُنِي خَيَالاتٌ !! ؛
فَهَذَا طَيْفُ آمَالِي وَذَا طَيْفٌ
حَزِينٌ لا غَيْرَ الكَآبَةِ
وَالوُجُوم !!
فِي ذَلِكَ السُّوقِ القَدِيم

النَّاسُ فِى حَشْرٍ فَهَذَا ذَاهِبٌ
أو ذَا يجِىء
مَا بَيْنَ فَلاَّحٍ عَجُوزٍ أو فَتَىً
نَظَرَاتُهُ أوْشَت بِأنَّ كِيَانَهُ مَا
كَانَ يَوْمَاً بِالبَرِىء
فِى ذَلِكَ السُّوقِ القَدِيم
حَيْثُ الزِّحَامُ وَحَيْثُ مَعْرَكَةُ
الحَيَاة !!
حَيْثُ أطْفَالُ الشَّوَارِعِ وَالثَّكَالَى
وَالنِّسَاءُ العَابِرَات
وكُنْتِ وَاقِفَةً !!
وكُنْتِ وَاقِفَةً بِمَتْجَرِ بَائِعٍ فِى
كُلِّ مَن يَأْتِى وَمَن يَغْدُو فَإِنَّكِ
تَنْظُرِين
وَنَظَرْتُ لِلعَيْنَيْنِ مِنْكِ عَلِمْتُ
أنَّكِ تَحْلُمِين !!
عَيْنَانِ سَاحِرَتَانِ أخْبَرَتَا عَلَيْكِ
حَبِيبَتِى حَتَّى وَإن لَم تَنْطِقِ !!... ؛
وَتَقُولُ أحْلُمُ بِالفَتَى الغَجَرِىِّ يَأْتِى

كَى لِهَذَا الوَغْرِ يَوْماً يَرْتَقِى !! ؛
يَغْزُو الجِبَالَ الشُّمَّ فِى عَسْفٍ
بِغَيْرِ تَرَفُّقٍ !! ؛
وَيُحَطِّمُ الحِصْنَ الأَبِىَّ وَكُلَّ بَابٍ
مُغْلَقٍ !!
مَعْ كُلِّ فَجْرٍ إِنَّنِى أَدْعُوهُ كَى
يُنْصِتَ لِلَهْفِى أو عَظِيمِ
تَحَرُّقِى !!
عَيْنَانِ سَاحِرَتَانِ مِن تَحْتِ
النِّقَاب !! ؛
أَخْبَرْتَنِى أَنَّ الفَتَاةَ تَقُولُ مَن
يَأْتِى لِيَمْحُو مَا أُعَانِى وَسْطَ
أَزْمِنَةِ العَذَاب ؟!!
فَنَظَرْتُ أَعْطَتْنِى بِنَظْرَتِهَا بِلا
مَهَلٍ عَلامَاتِ الإِشَارَه !!
فَأَتَيْتُهَا عَلِّى أُزِيلُ عَن الحَيَّةِ
بَعْضَ أَحْمَالِ المَرَارَه !!
أَقْدَمْتُ لِلْمَجْهُولِ مِن بَعْدِ أن
وَاتَت تَصَارِيحُ المُرُور

وَعَلِمْتُ أنَّ الحَرْبَ لا تَعْرِف
سِوَى المَأسُورِ أو نَصْرِ الفَتَى
الفَذِّ الجَسُور
أنَا قُلْتُ جِئْتُكِ عَاشِقاً !! ؛ أنَا
مُنْذُ أيَّامٍ وَهَا عَلَى بَابِ حُبِّكِ
لَم يَعُد عِنْدِى اصْطِبَار !!
قَالَت عَلِمْتُ بِيَوْمِهَا !! ؛ وَلِذَا
تَرَانِى اليَوْمَ وَاقِفَةً كَأنِّى فِى
انْتِظَار !!
قَالَت أتَصْدُقُ فِى الحَدِيثِ عَن
الهَوَى العَاتِى الدَّفِين ؟!!
فَأجَبْتُهَا فِى كِذْبَةٍ قَدَرِيَّةٍ إنِّى
أحِبُّكِ مِن سِنِين !!
طَالَ الحَدِيثُ فَزِدتُ مِنْهَا فِى
اقْتِرَاب !!
قَالَت كَفَاكَ جَرَاءَةً مَا هَكَذَا فِى
عُرْفِ أرْبَابِ الصَّبَابَةِ تُفْتَحُ
الأبْوَاب ؟!!
أنَا قُلْتُ إنِّى مُولَعٌ وَلِذَا تَرَانِى

فِى اشْتِيَاق !!

قَالَت أظُنُّ !! ؛ وإنَّمَا فِى عُرْفِنَا

يَأتِى الكَلامُ قُبَيْلَ أن يَأتِى

العِنَاق

البَدْرُ كَانَ بِوَجْهِهَا فَوَدِدتُ

تَقْبِيلَ اللِّثَامِ الأَسْوَدِ !!

قَالَت نُؤَجِّلُ فِى لِقَاءٍ آخَرٍ ... ؛

إن جِئْتَ أَنْتَ لِمَوْعِدِى !!... ؛ أنَا

قُلْتُ بَعْدَ ثَلاثَةٍ آتِى وَآخُذُ مَطْلَبِى !!

... ؛ قَالَت لِى تَبّاً يَا مُسَوِّفُ !! ؛ بَل

سَتَأتِى فِى الغَدِ !! ☙ .



.....

ـ الرِّسَالَةُ الثَّانِيَة:

✿ ـ « ذِكْرَى الخَرِيفِ الأَسْوَد !! »

.....

كَانَ كُلُّ شَيْءٍ هَيِّنَاً ؛ لَم يَكُن ثَمَّتَ مَا يَضِير ؛ حَتَّى جَاءَ الخَرِيفُ الأَسْوَد !! فَزُلْزِلَت الأَرْض!! ؛ وَكَانَ مَا لَم يَكُن فِى الحُسْبَان !! ؛ فَتَاةٌ أُخْرَى !! ؛ بَل شَيْطَانٌ فِى صُورَةِ فَتَاة !! ؛ لا أَدْرِى مِن أَىِّ أَرْضٍ قَد جَاءَت وَعِنْدَ أَعْتَابِى حَطَّتِ الرِّحَالَ وَنَشَرَت الخِيَام ؟!! ؛ وَتَهَيَّأْتُ لِلأَمْرِ وَلَبِسْتُ لِلْحَرْبِ لُبْسَتَهَا وَإِذَا حَانَ وَقْتُ النِّزَالِ فَلا حَدِيثَ وَلا كَلام !! ؛ وَسَادَ الصَّمْت !! ؛ وَقُلْتُ يَا رِيَاحَ الغَنِيمَةِ لا سَبِيلَ لِلْهُرُوبِ أَو الفَوْت !! .



« سَأَبْقَى وَحْدِى وَسْطَ اللَّيْلِ قِدِّيسَاً
وَشَيْطَانَا !!
لأَنَّ النَّاسَ جَازُونِى عَلَى الإِحْسَانِ
كُفْرَانَا !!
سَئِمْتُ الصَّبْرَ حَتَّى قَالَ لِلنَّفْسِ الَّتِى
فَاضَت إِلَيْكَ اليَوْمَ فَاحْتَشِدِى

وَثُـورِى !!
فَرَأَيتُهَا انْطَلَقَت وَعَاشَت لَم
تَذَر حَطَمَت هُنَالِكَ كُلَّ شَامِخَ
أو عَتِيدٍ مِن جُسُورِى !!
أبقَت فَلَم تَعْبَا بِآمَالِى وَحِصْنِ
فَضَائِلِى أطْفَأتِ مَا قَد كَانَ مِن
ضَوْئِى وَنُورِى !!
وَخَرَجْتِ غَاضِبَةً ظَلامُكِ غَالَ
مَا قَد كَانَ مِن حُسْنٍ وَخَيْرٍ فِى
طِبَاعِى أو شُعُورِى !!
مَن أنتِ ؟!! ؛ بُرْكَانٌ يَعِيشُ بِقَهْرِهِ
شَيْطَانٌ قُيِّدَ مِن قُرُونٍ
أو عُصُور ؟!!
أو كَالجَحِيمِ تَفُورُ فِى غَيْظٍ إذَا وَكَأن
أتَى يَوْمُ المَلاحِمِ وَالنُّشُور ؟!!
حُرِّرْتِى مِن سَجْنٍ فَبُثِّى اليَوْمَ
هَاذِى النِّقْمَةِ الكُبْرَى !!
أحِلِّ اللَّعْنَةَ السَّوْدَاءَ أنْفُثِى نَارَ
العَـذَابَ وَأخْفِ العُجْمَ

وَالعُرْبَا !!

ذَرِي مَن يَقْتَرِب يَوْمَاً يَضِيعُ

وَيَشْتَهِي الهَرَبَا !!

أَطِيعِي الرَّغْبَةَ الحَمْرَاءَ

حَسْبٌ وَاشْكُرِي السَّبَبَا

تَمَادِي فِي غِوَايَاتِكِ !!

فَهَيَّا فَانْشُرِي فِي كُلِّ أَرْضٍ

لِلْفَسَادِ هُنَاكَ مَا شِئْتِ مِن

أَعْلامِكِ الغَضْبَى

وَرَايَاتِكِ !!

وَلَن تَجِدِي المَلامَ فَإِنِّي قَد

قَتَلْتُ بَرَاءَةَ الدَّرْبِ القَدِيمِ

سَأَمْشِي فِي طَرِيقِكِ لَسْتُ

أَعْبَا !!.....؛

وَأَمْضِي فِي حَمَاقَاتِكِ !! ﴾٥﴿ .

.....

ـ الرِّسَالَةُ الثَّالِثَة :

✿ ـ « بُكَاءٌ !!... ثُمَّ مَاذَا ؟!! »

.....

كَانَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهَا يَتَمَثَّلُ فِي الإِعْجَابِ مِن جِهَتِهَا بِشَاعِرٍ رُومَانْسِيِّ النَّزْعَةِ ؛ وَمِن جِهَتِي كَانَت مَحْضُ رَغْبَةٍ فِي التَّعَرُّفِ عَلَى نَفْسِيَّةِ أُنْثَى وَالوُقُوفِ عَلَى دَخَائِلِ نَفْسِهَا وَطَبِيعَةِ فِكْرِهَا ؛ هَـذَا هُوَ كُلُّ مَا فِي الأَمْرِ ؛ ثُمَّ !!... ؛ فِي لَيْلَةٍ مِن لَيَالِي الخَرِيف ؛ وَبَيْنَا أَنَا فِي القَاهِرَةِ فِي مَنْزِلِ بَعْضِ أَصْدِقَائِي وَفِي سَاعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنَ اللَّيْلِ وَأَنَا عَلَى وَشْكِ الإِخْلادِ إِلَى النَّـوْمِ ؛ إِذ سَمِعْتُ صَوْتَ هَاتِفِي !! ؛ مَن هَذَا الَّذِي يُرِيدُنِي فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ ؟!! ؛ إِنَّهَا هِي !! ؛ رَدَدتُ عَلَيْهَا ؛ « كَيْفَ حَالُكَ يَا مُحَمَّد ؟ » ؛ « بِخَيْرٍ يَا إِلْهَام » ؛ ثُمَّ ؟!!... ؛ سَكَتَ الصَّوْت !!... ؛ ثُمَّ أَخَذَت فِي بُكَاءٍ هَادِئٍ حَزِين !!... ؛ ثُمَّ جَاءَت بِهَذِهِ العِبَارَاتِ وَبِتِلْكَ الأَلْفَاظ : لَم يَعُد فِي الحَيَاةِ شَيْءٌ اسْمُهُ الصِّدْق !! ؛ البَرَاءَةُ مَحْضُ لَفْظٍ لا يَحْمِلُ مَعْنَى !! ؛ الدُّنْيَا رَهِيبَةٌ رَهِيبٌ مَا فِيهَا !!.

ثُمَّ أَخَذَت تُحَدِّثُنِي عَن نَفْسِي!! ؛ كُنْتُ أَعْلَمُ كَيْفَ سَيَذْهَبُ حَدِيثُهَا !! ؛ كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّهَا تَبْحَثُ عَن العِشْقِ وَالهَوَى ؛ وَإِذَا كَانَ مَعَ أَدِيبٍ حَالِمٍ فَهَذَا أَمْرٌ حَسَن !! ؛ وَبَدَأَت قِصَّتِي مَعَهَا !!.



❊ أُرِيدُكِ أن تَكُونِى لا لِهَذَا !!
فَهَاتِى الدَّمْعَةُ الحَرَّى لِمَاذَا ؟!!

سَتَرَيْنَ فِى غَدِكِ صَبَابَاتِ
المُنَى
لا حُزْنَ بَعْدَ اليَوْمِ لا سُهْدٌ
هُنَاكَ وَلا ضَنَا !!

سَيَصِيرُ هَذَا الحُزْنُ فِى
الذِّكْرَى كَأَمْس
وَسَتَعْرِفِينَ الحُبَّ فِى سُكْرٍ وَفِى
طَرَبٍ وَهَمْس !!

سَتَرَيْنَ كَيْفَ العِشْقُ لَن يَبْرَح
هُنَالِكَ لَن يُفِق !!
سَيَكُونُ حُلْمٌ بِالحَقِيقَةِ
مُتَّفِق !!

وَسَتَعْلَمِينَ مَتَى السَّعَادَةُ فِى
سَمَاءِ العِشْقِ تَعْلُو !!... ؛

وَتَـأْتَـلِـقُ !!. ﷺ .

.....

ـ الرِّسَالَةُ الرَّابِعَة :

✿ ـ ✿ كَلامٌ !!... مِن أَوْدِيَةِ الجَحِيم !! ✿

.....

صَارَت تُحَادِثُنِي كُلَّ لَيْلَةٍ فِي الهَاتِفِ حَتَّى قُبَيْلَ الفَجْرِ !! ؛ كَانَ الحَدِيثُ فِي أَيَّامِهِ الأُولَى بِمَثَابَةِ اكْتِشَافٍ جَدِيدٍ وَحَقِيقِيٍّ لِطَبِيعَةِ الشَّخْصِيَّتَيْن ؛ وَمَهْمَا يَكُن مِن أَمْرٍ ؛ فَإِنَّهُ ظَلَّ يَجْرِي فِي دَائِرَةٍ هَادِئَةٍ لا تَدْعُو لِلضَّجَرِ أَو القَلَق ؛ ثُمَّ ؟!!... ؛ ثُمَّ أَخَذَ يَتَّجِهُ رُوَيْدَاً رُوَيْدَاً مُنْحَدِراً مِن جِهَةِ السَّمَاءِ نَحْوَ هُوَّةِ الجَحِيم !! ؛ وَيَا لَهَا مِن طَرَائِقَ فِي الاسْتِدْرَاج !!... ؛ مَا أَعْظَمَ حِيلَةِ الأُنْثَى إِذَا مَا أَرَادَت أَن تَصِلَ إِلَى أَمْرٍ لَم يَخْطُر لِلرَّجُلِ عَلَى بَالٍ أَو خَاطِرٍ !!.

وَهُنَّ يَنْبِذْنَ مِن قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ
مَوَاقِعَ المَاءِ مِن ذِي الغُلَّةِ الصَّادِي !!



✿ كَانَ فِي البَدْءِ كَلامٌ مَعَهُ لَم
أَخْشَ غَيَابَاتِ الغَدِ
سَارَ فِي دَرْبٍ وَدِيعٍ كُلَّ لَيْلٍ

فِى رِحَابِ المَوْعِدِ
ثُمَّ جَاءَ الرَّعْدُ يُنْذِرُ فِى فُجَاءَةَ
بِالمَصِيرِ الأَسْوَدِ !!
كَانَ النَّسِيمُ وَثَمَّ قَد مُلِئَت دُرُوبِى
بِالضَّبَابِ وَبِالدُّخَان !!
كَانَ الحَدِيثُ عَن البَرَاءَةِ وَالطَّهَارَةِ
وَالوَفَاءِ ... ؛ وَثَمَّ صَارَ الكُلُّ مَطْرُوداً
مُهَان !!
حَلَّت جُيُوشُ مَحَبَّةٍ لا تَعْتَرِف بِسِوَى
صَدَى الأَنَّاتِ أو بِالخَفْقَةِ الحَرَّى
وَبِاللَّمْسِ !!
وَخِلْتُ رُوحِى وَاهِماً وَكَذَبْتُ
نَفْسِى !!
وَعُدتُ أَدْرَكْتُ الحَقِيقَةَ وَاليَقِين !!
وَخُضْتُ فِى عَبَثِ الخَنَا طَلَّقْتُ
سَنَوَاتِ الهَوَى أَلْقَيْتُ ذَاتِى وَسْطَ
عِشْقٍ كَافِرٍ شَرِسٍ
لَعِين !!
وَذَهَبْتُ أَلْهُو مُلْقِياً ثَوْبَ التَّكَلُّفِ

سَادِراً فِيمَا أشَاء !!
حُطِمَت حُصُونُ بَرَاءَتِي ضَاعَ
الجَمَالُ !!... ؛ وَلَعْنَةُ الرَّحْمَنِ
تَلْحَقُ بِالنِّسَاء !! . »(١) .

.....

ـ الرِّسَالَةُ الخَامِسَة :

۞ـ ۞(لِقَاءٌ !!... فِى جَهَنَّم !!)۞

.....

أَلَحَّت فِى اللِّقَاء !! ؛ وكُنْتُ أُسَوِّفُ لِكَثْرَةِ مَشَاغِلِى ؛ وَفَعَلْت الأَفَاعِيلَ مِن أَجْلِ أن نَلْتَقِى !! ؛ ولَكِنِّى كُنْتُ أَهْرَبُ مِنْهَا فِى كُلِّ مَرَّةٍ !! ؛ ولَكِن ؟!! ؛ ولَكِن جَاءَ مَا كُنْتُ أَتَوَقَّعُهُ !! ؛ كَانَ اللِّقَاء !! ؛ جَاءَت مِنَ المَدِينَةِ إلَى بَلْدَتِى لِتَفرِضَ عَلَىَّ أَوَّلَ حَلَقَاتِ الرِّوَايَةِ الحَقِيقِيَّة !! ؛ سِرْنَا قَلِيلاً فِى الدُّرُوب ؛ ثُمَّ ؟!! ؛ ثُمَّ سَأَلَتْنِى أن نَجلِسَ فِى مَكَانٍ بَعِيدٍ عَن النَّاس !! ؛ وكَانَت هَذِهِ العَجِيبَةُ الأُولَى فِى قِصَّتِى الوَاقِعِيَّةِ مَعَهَا !! ؛ ثُمَّ سَأَلَتْنِى أن يَكُونَ المَكَانُ فِى بَيْتٍ حَتَّى تَكُونَ عَلَى سَجِيَّتِهَا !! ؛ وكَانَت هَذِهِ هِىَ العَجِيبَةُ الثَّانِيَة !! ؛ فَكَانَ مَا أَرَادَت !! ؛ ذَهَبْنَا !! ؛ وَمَا كِدْنَا نَنفَرِدُ حَتَّى تَلاقَت الشِّفَاه !! ؛ وَإِذَا تَلاقَت فَقَد انْكَسَرَت الهَيْبَة !! ؛ وَإِذَا تَلاقَت الشِّفَاهُ اعْتَادَت عَلَى ذَلِك !! ؛ وَإِذَا صَارَ هَذَا أَمْرَاً مُعْتَادَاً فَلابُدَّ مِن مُجَاوَزَتِهِ إِلَى سِوَاه !! ؛ وَلا تَكُونُ المُجَاوَزَةُ إِلاَّ لِلأَعْظَمِ فَالأَعْظَم وَلِلأَخْطَرِ فَالأَخْطَر !! ؛ وَإِذَا كَانَ اللِّقَاءُ مَرَّةً فِى كُلِّ أُسْبُوعٍ فِى الخُلْوَةِ الَّتِى لا يَجلِسُ مَعَنَا فِيهَا سِوَى الشَّيْطَانِ قَد صَارَ قَانُونَاً غَيْرَ مَدْفُوعٍ ؛ فَقَد أَضْحَى المَحْجُوبُ مَرْئِيَّاً !! ؛ وَصَارَ المَحْظُورُ حَقَّاً مَفْرُوضَاً !!.

.....

تَمَتَّع بِهَا مَا سَاعَفَتْكَ وَلا تَكُن
جَزُوعاً إِذَا بَانَت ؛ فَسَوْفَ تَبِينُ !!
وَإِن هِيَ أَعْطَتْكَ اللِّيَانَ ؛ فَإِنَّهَا
.... لِغَيْرِكَ مِن طُلابِهَا سَتَلِينُ !!
وَخُنْهَا وَإِن كَانَت تَفِي لَكَ إِنَّهَا
عَلَى قِدَمِ الأَيَّامِ سَوْفَ تَخُونُ !!
وَإِن حَلَفَت أَن لَيْسَ تَنْقُضُ عَهْدَهَا
فَلَيْسَ لِمَخْضُوبِ البَنَانِ يَمِينُ !!

.....

كَانَت تُحَادِثُنِي عَن الوَفَاءِ ؛ وَكُنْتُ أُوَافِقُهَا عَلَى صَوَابِ كَلامِهَا ؛ وَكُنْتُ أُوقِنُ بِأَنَّهَا فَاجِرَة !! ؛ نَعَم !! ؛ لا تَرَى فِي الدُّنْيَا سِوَى الخَنَا !! ؛ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَد كَانَت سَاذِجَةً رَعْنَاء !! ؛ مَا أَشْبَهُهَا إِلاَّ بِالمُومِسِ العَمْيَاء !! ؛ لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ كَانَت تُحَادِثُنِي عَن الوَفَاء !!.

لا تَأْمَنِ الأُنْثَى حَبَتْكَ بِوِدِّهَا
إِنَّ النِّسَاءَ وِدَادُهُنَّ مُقَسَّمُ !!
اليَوْمَ عِنْدَكَ دَلُّهَا وَحَدِيثُهَا
وَغَداً لِغَيْرِكَ كَفُّهَا وَالمِعْصَمُ !!

.....

﴿٥﴾ بَرِيئَةٌ أنْتِ !!... ؛ كَبَرَاءَةِ الدَّمْعَاتِ
يَسَّاقَطْنَ مِن عَيْنِ البَغِيِّ !!
قِدِّيسَةٌ أنْتِ !!... ؛ وَلَكِن فِي قَدَاسَةِ
الجَسَدِ الَّذِي مَا كَانَ يَوْمَاً بِالأَبِيِّ !!
أنْتِ الشِّفَاءُ عَزِيزَتِي مِن كُلِّ
أشْكَالِ العَذَابِ أو الجِرَاح !!
أنْتِ التَّقِيَّةُ وَالنَّقِيَّةُ قَد عَلِمْت !!
فِي كُلِّ وَقْتٍ تَبْتَدِي الصَّلَوَاتِ فِي
دَيْرِ السِّفَاح !!
أيَا دَوَاءً طَبَّ مِن كُلِّ المَوَاجِع !!
يَا رَبَّةَ الأَمْرِ الَّذِي مَا كَانَ يَوْمَاً
طَاهِراً !! ؛ إِي لَم يَرَ فِي طُولِ هَذَا
العُمْرِ غَيْرَ العَيْشِ فِي ظِلِّ
الفِرَاشِ أو المَضَاجِع !!
أنْتِ كَنَهْرٍ مِن جَحِيم !!... ؛ ظَمْآنِ
لِلَهَبِ المُقَدَّسِ هُوْ لَعَمْرُ أبِيكِ
قُرْبَانُ النَّعِيم !!
أنْتِ كَبِئْرٍ جَوْفُهُ نَاءٍ بَعِيد !!... ؛ لَم

يَمْتَلِىءُ يَوْمَاً يَقُولُ بِكُلِّ أونَةٍ
قَلِيلٌ كُلُّ مَا يَأتِى وَإِنِّى أَشْتَهِى
هَل مِن مَزِيد !!
كُلُّ كِلْمَاتِ الطَّهَارَةِ مَحْضُ
مَكْرٍ مَحْضُ زَيْفٍ
وَاسْتِعَارَه
قُولِى الحَقِيقَةَ يَا فَتَاه ؟!!... ؛ أَنْتِ
يُنْبُوعُ الرَّذِيلَةِ !!... ؛ أَنْتِ إِكْسِيرُ
الدَّعَارَه !! . ❁ . (١) .



---

(١) ـ لا يَذْهَبَنَّ بِكَ الظَّنُّ الوَاهِمُ أَنِّى مِن أَهْلِ كَبِيرَةِ الزِّنَا !! ؛ تَاللهِ مَا كَانَ ذَلِكَ أَبَدَاً !! ؛ تَخَيَّل مَا يَكُونُ بَينَ الشَّابِّ وَالفَتَاةِ إِذَا ضَمَّتْهُمَا العُزْلَةُ الشَّيْطَانِيَّةُ ؛ وَلَكِن إِيَّاكَ أن تَظُنَّ أَنِّى وضَعْتُ السَّهْمَ فِى القَوْس !! ؛ مَا كَانَ ذَلِكَ أَبَدَاً ؛ وَرَحِمَ اللهُ أَبَا مُحَمَّدَ بْنَ حَزْم [ت ٤٥٦ هـ] حِينَ أَخَذَ فِى ذِكْرِ مَا قَد عَرِفَ وَرَأى مِن مَسَاوِىءِ النِّسَاءِ وَفُجُورِهِنَّ ؛ ثُمَّ قَال :
« وَلا يُحَاسِبُنِي رَبِّي بِكَبِيرَةِ الزِّنَا مُذ عَقِلْتُ إِلَى يَوْمِي هَذَا . » .
« طَوْقُ الحَمَامَة » ؛ [ص : ٢٧٢] ؛ نُسْخَةُ الدُّكْتُور إِحْسَان عَبَّاس .

.....

ـ الرِّسَالَةُ البَائِسَة :

✪ ـ « رِسَالَةُ الآلاَم !! »

ـ 1 ـ

.....

وَرَجَعْتُ ثَانِيَةً !! ؛ وَرَجَعْتُ إِلَى دَيْرِ الشَّقَاءِ وَالنَّدَم !! ؛ وَعُدتُ لأَحْيَا عَلَى أَرْضِ الضَّيَاعِ وَالعَدَم !! ؛ أَرَى نِيرَانَ العِقَابِ تُطَارِدُنِى !! ؛ وَأُبْصِرُ إِرَادَتِى عَجْزَى عَن الشُّعُورِ بِالْمَرَارَةِ لا تَرُدُّنِى !! ؛ الدُّنْيَا بَالَغَت فِى تَعْذِيبِى !! ؛ وَقَد سَئِمْتُ مِن كُلِّ مَا حَوْلِى وَمَا بِى !! ؛ فَمَتَى العَوْدُ يَا زَمَنِى إِلَى شَاطِئِ النَّجَاة ؟!! ؛ ضَلَّت قَدَمِى طَرِيقِى وَخَاصَمَت وَأَظْلَمَت الحَيَاة !! ؛ أَيْنَ ذَهَبَت آمَالِى وَمَطَامِحِى ؟!!... ؛ تَبَدَّلَ كُلُّ شَىْءٍ !!... ؛ حَتَّى لَقَد تَغَيَّرَت مَعَالِمِى وَمَلامِحِى !! .



« ـ هَكَذَا خَاطَبَنِى الرَّفِيق !!
ضَاعَت مَلامِحُكَ القَدِيمَةُ يَا فَتَى !!
قُل لِى بِرَبِّكَ كَيْفَ كَانَ وَمِن
مَتَى ؟!!

ضَاعَت مَلامِحُكَ القَدِيمَةُ يَا فَتَى !!
أَيْنَ الصَّفَاءُ وَوَجْهُكَ البَسَّامُ
إذ كُنَّا صِغَار ؟!!
أَبِغَمْضَةِ العَيْنَيْنِ نَحْوَ التِّيهِ
أَلْقَاكَ القِطَار ؟!!
الكُلُّ حَطَّ رِحَالَهُ بِبِلادِهِ وَبَقِيتَ
وَحْدَكَ فِى انْتِظَار ؟!!
مَازِلْتَ تَمْضِى فِى الدُّرُوبِ
المُعْتِمَات !!
تَتَذَكَّرُ الدُّنْيَا الرِّفَاقَ وَأَنْتَ
تَنْسَاكَ الحَيَاة !!
عَادَ المُسَافِرُ وَالغَرِيبُ وَوَدَّعُوا مَا
كَانَ فِى الدُّنْيَا المَرِيرَه !!
وَأَنْتَ تَمْشِى بِالعُيُونِ الحَائِرَاتِ
هُنَاكَ وَحْدَكَ فِى مَوَانِيكَ
الضَّرِيرَه !!
يَا أَيُّهَا المَحْزُونُ وَحْدَكَ فِى المَنَافِى
لَم تَزَل وَالكُلُّ آب !!
تَمْشِى بِآلامِ الحَيَاةِ عَلَى دُرُوبِ

وَسْطَ أَزْمِنَـةِ الضَّبَاب !!

عَادَ الصِّحَـابُ وَكُلُّ وَاحِدَ مِنْهُمُ

غَنَّى هُنَالِكَ لِلرَّفِيقَةِ وَالرَّفِيق

وَبَقِيتَ أَنْتَ بِسِرِّكَ المَجْهُولِ

تَمْضِى فِى ظَـلامِ اللَّيْـلِ

فِى صَمْتِ الطَّرِيق !!

قَدَرِيَّةُ الأَشْيَـاءِ جَعَلَتْكَ الشَّرِيدَ

وَكُلُّ غَائِبَ قَـد أَتَى !!

لَهْفِى عَلَيْكَ وَأَنْتِ تَمْضِى

حَائِراً !!

ضَاعَت مَلامِحُكَ القَدِيمَةُ يَا فَتَى !! .



.....

ـ الرِّسَالَةُ البَائِسَة :

✿ ـ « رِسَالَةُ الآلاَم »

ـ 2 ـ

.....

« ـ هَكَذَا خَاطَبَنِى الرَّفِيق !!
ضَاعَت مَلامِحُكَ القَدِيمَةُ يَا فَتَى !!
ضَاعَت مَلامِحُكَ القَدِيمَةُ يَا فَتَى !!
أتُرَى تُغَيِّرُكَ الحَيَاةُ إِلَى الكَآبَةِ
بَعْدَ عَشْرٍ مِن سِنِين ؟!!
بَعْدَ البَرَاءَةِ وَالطَّهَارَةِ وَالنَّضَارَةِ
يَغْدُو هَذَا الوَجْهُ مُبْتَئِساً
حَزِين ؟!!
وَلَّى الزَّمَان !!.....
وَلَّى الزَّمَانُ وَكُلُّ أَيَّامِ البُطُولَةِ
وَالسَّعَادَةِ مَحْضُ تَارِيخٍ
وَمَاضِى !!

قَد عُدتُ أحْمِلُ فِى حَقَائِبِ
رِحْلَتِى جُرْحِى وَهَمِّى
وَارْتِمَاضِى (١).!!
قَد عُدتُ لا أحْمِل سِوَى
ذِكْرَى اللَّيَالِى الذَّابِلاتِ
هُنَاكَ مِن عُمْرِى وَمِن
أعْوَامِى !!
قَد عُدتُ مَا عِنْدِى سِوَى
قَلْبٍ تَعِيسٍ ظَامِى !!
مَحْضُ انْتِصَارَاتِى صِرَاعُ
الحُزْنِ مِن يَأسِى الكَئِيبِ
الدَّامِى !!
حَطَمَتْنِى رِيحُ القَهْرِ فِى عَصْرِ
المَرَائِى وَكُلُّ حُلْمٍ قَد تَقَوَّضَ
وَانْهَدَم !!
وَأسِيرُ وَحْدِى فِى مَجَاهِلِ
رِحْلَتِى أمْضِى بِصَمْتِى فِى

---

(١) ـ ارْتَمَضَ: أي تَحَرَّقَ غَيْظاً وَجَزَعاً .

مَدَارَاتِ العَدَم !!
وَيَعُودُ يَسْأَلُنِى !!
وَيَعُودُ يَسْأَلُنِى الرَّفِيق !!... :
ضَاعَت مَلامِحُكَ القَدِيمَةُ يَا فَتَى !!
وَذَبُلْتَ مِن بَعْدِ البَشَاشَةِ فِى
الزَّمَانِ الأَوَّلِ !!
شَخْصَانِ أَنْتَ ؟!!... ؛ أَجَبْتُهُ إِى قَد
يَكُونُ أَنَا المُبْعَثَرُ بَيْنَ عَهْدَيْنِ
حَسْبُكَ أَنَّ قَلْبِى وَاحِدٌ وَالاسْمُ
لِى
طَرَحَتْنِى هَاذِى الأَرْضُ طَرْحَةَ
مُبْغِضٍ !!... ؛ وَكَذَا الحَيَاةُ إِذَا رَأَتْكَ
وَثَمَّ بَاتَت غَيْرُ رَاضِيَةٍ عَلَيْكَ
تَنَكَّرَت فَغَدَوْتَ مَحْرُوماً
وَثَمَّ نَزَلْتَ أَسْوأ
مَنْزِلٍ !!
يَا أَيُّهَا الصَّحْبُ الكِرَامُ كَفَاكُمُ !!
... ؛ فَأَنَا التَّارِيخُ أَنَا القَصَائِدُ
وَالحِكَايَاتُ الغَرِيبَةُ قَد

أَرَى !!
لَكِنَّنِى خُبِّرْتُ قَبْلُ بِأَنَّهُ ... ؛ كَم
مِن رِجَالٍ عَبَّدُوا السُّبْلَ العَنِيدَةَ
ثُمَّ دَارَ الكَوْنُ دَوْرَتَهُ فَإِذَا العَزِيزُ
نَرَاهُ يَلْتَحِفُ العَرَا !!
قَد سِرْتُ آلافاً مِنَ الطُّرُقَاتِ لَم
أَعْبَأ هُنَالِكَ بِالجِرَاحِ أو المَلَل !!
وَسِرْتُ عَشْراً مِن سِنَى عُمْرِى
وَلَم أعْرِف سَآمَةَ أو كَلَل !!
وَهَا أعُودُ اليَوْمَ مِن طُرْقِى العَنِيدَةِ
وَالبَعِيدَةِ فِى المَدَى !!
وَهَا أَعُودُ اليَوْمَ مِن غَيْرِ الرَّجَاءِ
أو الأَمَل !!
حَيْرَانُ مِن قَدَرِى وَهَا بَعْضِى
يُخَاطِبُ فِى أَسَىً
بَعْضِى !!
أَمْضِى وَخُطْوَاتِى تُسَائِلُنِى لأَيْنَ
فَإِنَّنَا نَحيَا بِلا وَطَنٍ وَلا
أَرْضٍ ؟!!

يَا رَفِيقِى كُلُّ طِبٍّ الأَرْضِ مَا زَالَ
الجِرَاحَ وَلا شَفَا !!
يَا رَفِيقِى طَالَ عَذْلُكَ فَارْعَوِى !!
أَنَا قَد سَئِمْتُ فَإِنَّ لَوْمَكَ مَا أَزَاحَ
الدَّاءَ عَنِّى وَلا نَفَى !!
قَرُبَ الصَّبَاحُ لِكُلِّ شَىْءٍ هَدْأَةٌ !! ؛
وَكَذَاكَ أَجْهَدَنِى العِتَابُ !! ؛ كَذَاكَ
أُبْصِرُ طَيْفَ آلامِى مُعَنًّى مِن
مَرَارَتِهِ هُنَالِكَ قَد غَفَا !!
إِنِّى هُنَا المَأْسُورُ تَحْصرُنِى خُيُوطُ
العَنْكَبُوت !!
وَقِطَارُنَا العَجْلانُ دَوْمًا قَد يُجَاوِزُ
أَو يَفُوت !!
وَعَزَائِى إِن جَاءَ المَسَاءُ غَدًا
فَرُبَّ نَفْسِى رُبَّمَا أَيْضًا هُنَالِكَ
قَد تَمُوت !! . ﴾.



.....

ـ رِسَالَةُ اعْتِذَار:

✿ ـ ﴿ آسِفٌ جِداً !! ﴾

.....

﴿ آسِفٌ جِدّاً !!

آسِفٌ جِدّاً لأَنّي !!

ضَاعَ عُمْرِي فِي التَّمَنِّي !!

كُلُّ أَحْلامِي تَلاشَت !!

كُلُّ شَيءٍ ضَلَّ مِنِّي !!

مَا بَقِي غَيْرُ القَصَائِد !!

مَحْضُ مَأْسَاةٍ تُغَنِّي !!

كُلُّ آمَالِي تَهَاوَت !!

كُلُّ أَمْرٍ غَابَ عَنِّي !!

مَا غَدَا بِالأَرْضِ إلاَّ !!

غَيْرُ شَيْطَانِي وَجِنِّي !!

أَمَّا حُبِّي وَالأَمَانِي !!

إِنَّهَا عَيْنُ التَّعَنِّي !!

لَيْسَ عِنْدِى فِى حَيَاتِى !!
غَيْرَ أشْعَارِى وَفَنِّى !! ٥٢ .

.....

- رِسَالَةٌ فِى زَمَنِ التِّيه :

✿ - « رِسَالَةٌ ..... فِى هَيْكَلِ الشِّعْرِ المُقَدَّس !! »

.....

« إن عِشْنَا فِى زَمَنِ التِّيه !!... ؛ إن صَارَ العُمْرُ كَحُلْمٍ خَدَّاعٍ قَد كَذِبَ وَغَر !!... ؛ إن يَغْدُو الحُبُّ حَدِيثاً عَذْباً عَن عَهْدٍ قَد مَاتَ وَمَر !!... ؛ إن تُصْبِح أقْدَارُ المَرْءِ الحَالِم مَا بَيْنَ دُمُوع ... ؛ أو دَرْبٍ مَحْتُومٌ أن يَمْضِى عَلَيْهِ وَلَكِن مَجْهُولٌ كَيْفَ يَكُونُ العَوْدُ مُحَالٌ أن يُؤْذَنَ لِلسَّائِرِ يَوْماً بِرُجُوع !!... ؛ إن كَانَ حَرَامٌ أن نُبْصِرَ وَعْدَ الحُلْمِ وَكَيْفَ يَكُونُ النَّصْر !!... ؛ إن كَانَ العَيْشُ بِوَسْطِ سَرَابِ الوَهْمِ شِعَارُ الأَرْضِ وَنَامُوسُ العَصْر !! ... ؛ إن أضْحَى العَقْلُ وَكَانَ القَلْبُ وَصَارَ الحُبُّ بِضَاعَةَ وَالكُلُّ بِسِعْر !!... ؛ فَلْتُلْعَن كُلُّ حَقَائِقِ هَذَا العَالَمِ !!... ؛ وَلْيَبْقَ الشِّعْر !! »

كُولِرِدْج العَرَب

نِزَار شَاهِين المِصْرِى

[1981ـ 2013]



.....

ـ رِسَالَةٌ إِلَى زَمَنِ النِّسْيَان :

ـ « لازِلْتُ أَجْهَلُ مِن أنَا !! »

.....

« أنْسَى كَأَنِّى لَم أكُن !!
أنْسَى كَأَنِّى لَم أكُن يَوْمَاً هُنَا !!
لازِلْتُ أَجْهَلُ مَن أنَا !!
أنَا خُطْوَةٌ حَيْرَى بِأَرْضِ الحُزْنِ
فِى صَمْتِ الدُّرُوب !!
وَأنَا المُسَافِرُ فِى مَجَاهِلَ يَرْتَجِى
عَوْدٌ وَلَم يَدْرِ هُنَالِكَ أنَّهُ لا لَن
يَؤُوب !!
أنَا صَرْخَةٌ جَاءَت لأَرْضِ النَّاسِ
مِن صَمْتِ القُبُور !!
أنَا حُلْمٌ مَأْسُورٍ يُعَانِى بِقَيْدِهِ
مَرَّت عَلَيْهِ هُنَاكَ آلافُ
العُصُور !!

أنَا قَهْرُ هَذَا العَالَمِ الأَرْضِيّ
لَكِن إنَّمَا يَحْيَا بِبَعْضٍ مِن
بَقَايَا كِبْرِيَاء !!
كَالفَارِسِ المَطْعُونِ يَبْغِي أن
يُهَادِنَ إنَّمَا يَمْنَعْهُ شَيْءٌ مِن
حَيَاء !!
وَأنَا الحَقِيقَةُ وَسْطَ هَاذِي
الأَرْضِ ثَمَّت قَد أتَى نَفْيِ
وَشَرَّدَنِي الزَّمَان !!
وَأنَا الَّذِي أحْيَا وَلَكِن مِن
غَرِيبِ عَجَائِبِي تَأتِي
القَصَائِدُ وُقِّعَت مِن لا
مَكَان !!
وَأنَا المُعَانِدُ أجْبَرَتْهُ خِيَانَةُ
الأَيَّام أن يُعْطِي السَّلام !!
وَأنَا الَّذِي فِي صَمْتِهِ بَيْنَ
المَقَابِرِ جَاوَبَتْهُ هُنَاكَ
أشْلاءُ العِظَام !!
وَأنَا القَتِيلُ أنَا الطَّرِيدُ أنَا

الأسيرُ وَإِنَّنِى الجَانِى !!
وَأنَا المُخَلَّدُ وَسْطَ لَعْنَتِهِ
وَفِى الغُفْرَانِ كُنْتُ الذَّائِبَ
الفَانِى !!
وَأنَا الهُوِيَّةُ مَحْضُ مَجْهُولٍ
وَإِنِّى مِثْلُ نَخْلٍ فِى السَّمَاءِ
فُرُوعُهُ وَجُذُورُهُ بَاتَت
عَرِيقَه !!
وَأنَا الخَيَالاتُ الكَذُوبَةُ إِى
كَذَاكَ فَإِنَّنِى عَيْنُ التَّجَلِّى
وَالحَقِيقَه !!
أنسَى كَأنِّى لَم أكُن يَوْمَاً
هُنَا !!
لا ذَنْبَ لِلدُّنْيَا !! ؛ كَذَاكَ فَإِنَّنِى !!
لازِلْتُ أجْهَلُ مِن أنَا !! .



.....

- رِسَالَةُ الوَدَاع :

✪ - ﴿ وَيَمْضِي العُمْر ‼ ﴾

.....

﴿ . وَيَمْضِي العُمْرُ يَا لَيْلَى ‼
وَيَمْضِي العُمْرُ يَا لَيْلَى ‼
بِلا ضَوْءٍ ‼ ؛ بِلا وَامِض ‼
وَيَمْضِي العُمْرُ يَا لَيْلَى ‼
كَلُغْزٍ شَارِدٍ ‼ ؛ غَامِض ‼
وَيَمْضِي مِثْلَ أَشْعَارِي
كَغُصْنٍ بَيْنَ رِيحِ خَرِيف ‼
وَيَمْضِي العُمْرُ لا يَعْبَا
كَلَيْلٍ بَارِدٍ ‼... ؛ وَمُخِيف ‼
كَأُغْنِيَةٍ بِلا لَحْنٍ ‼ ؛ بِلا
صَوْتٍ ‼ ؛ بِلا كَلِمَات ‼
كَظِلٍّ يَمْشِي مُرْتَعِباً ‼... ؛
يُكَتِّمُ مِنْهُ أَنْفَاساً ‼... ؛ يَخَافُ

لِيُوقِظَ الأَمْوَات !!
كَوَجْهِ حَالِمٍ عَابِر ... ؛ بِدَرْبِهِ
فِي ظَلامِ شِتَاء !!... ؛ وَقَيَّدَ
أَحْرُفاً بِجِدَار !!... ؛ سَيَبْقَى
الشِّعْرُ يَا لَيْلَى ... ؛ وَإِن مَاتَ
الفَتَى الشَّاعِر !!
مَرَرْتُ بِكُلِّ آمَالِي !!... ؛ وَمَا
خُبِّرْتُ يَا لَيْلَى ... ؛ بِأَنَّ الشِّعْرَ
قَد يَغْدُو !!... ؛ هُنَا فِي هَيْكَلِ
الأَحْزَان !!
وَوَلَّى العُمْرُ فِي عَجَلٍ !!... ؛
وَيَرْحَلُ مِثْلَ أُمْنِيَتِي !!..... ؛
يَصِيرُ لِعَالَمِ النِّسْيَان !!
أَنَا إِنْسَانُهَا الدُّنْيَا ... ؛ مَرَرْنَا
لَم نَقُل شَيْئًا ... ؛ وَلَم تَعْبَأ هِيَ
الأُخْرَى !!..... ؛ فَلا كَانَت هِيَ
الدُّنْيَا !!... ؛ وَلا كُنَّا !!
رَأَيْنَاهَا كَوَهْمِ سَرَاب !!......
وَخِلْنَا السَّيْرَ يَنْفَعُنَا !!... ؛ وَلَمَّا

حَانَ مَوْعِدُنَا ؟!!... ؛ فَثَمَّ
ظَلامٌ !!... ؛ ثَمَّ ضَبَاب !!
عَلامَ الحُلْمُ يَا أُخْتَاهُ قَد عُدْنَا
بِلا ظِلٍّ !!... ؛ بِلا مَاءٍ !!
مَشَيْنَاهَا عَلَى وَجَلٍ !!... ؛ فَإِن
كَانَ اليَقِينُ أتَى ... ؛ فَلُمِّى !! ؛
بَعْضَ أشْلائِى !!
قَطَعْنَا الدَّرْبَ فِى حُزْنٍ !!... ؛
بِقَلْبٍ مُوجَعٍ وكَئِيب !!
سَأرْحَلُ دُونَ أُمْنِيَتِى !!
وَتَبْقَى الذِّكْرَى يَا لَيْلَى !!
وَتَبْقَى الذِّكْرَى حِينَ أغِيب !!. ✂ .



الفهرس

البلاغة العربية

(علم البيان)









دار البداية ناشرون وموزعون
عمان - وسط البلد
هاتف: 96264640679+ تلفاكس: 96264640579+
info.daralbedayah@yahoo.com
خبراء الكتاب الأكاديمي

دار المستقبل للنشر
عمان - وسط البلد - أول شارع
تلفاكس: 96264658263+
info.daralmostaqbal@yahoo.com
متخصصون بإنتاج الكتاب الجامعي